جائزة بوليتزر ٢٠٠٧





راي برادبوري

فهرنهايت 451

(الحرارة التي يحترق عندها ورق الكتاب)

رواية



راي برادبوري



ترجمة

سعيد العظم



”قصّة مرعبة في معانيها... وكم هو آسرٌ ذلك الوصف الذي يقدّمه برادبوري لهذا العالم المجنون بما فيه من صورٍ مثيرةٍ للقلق لشدّة تشابهها مع عالمنا نحن.“

THE NEW YORK TIMES

”قصّة تقضّ المضاجع في استقصائها للبُعد النهائي لمقولة 'الجهل نعمة'“.

THE TIMES

”ما من كاتب آخر يستخدم اللغة بأعظم ما فيها من فطرية أساسية واتّقاد.“

SUNDAY TELEGRAPH

”أبرع سرد جهنّمي يمكن أنْ يطلع به قلمُ كاتب مفتون بالخيال العلمي.“

KINGSLEY AMIS

راي برادبوري (١٩٢٠–٢٠١٢) هو أعظم كتّاب الخيال العلمي والفانتازيا في العالم. ولد في ووكيغان في ولاية إلينوي الأميركية عام ١٩٢٠. نشر أكثر من ٥٠٠ قصة قصيرة ورواية ومسرحية. حاز ميدالية "العطاء المتميّز" للأدب الأميركي لعام ٢٠٠٠ التي تمنحها المؤسّسة الوطنية الأميركية للكتاب، كما فاز بالتنويه الخاص لجائزة "بوليتزر" لعام ٢٠٠٧، بالإضافة إلى العديد من الجوائز التكريمية الأخرى.

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

الطبعة العربية

الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-1-85516-952-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114—2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

هذه القصّة مهداة مع الشكر إلى دون كونغدون.

"إذا أعطوك ورقاً مُسَطَّراً، اكتُبْ في الاتجاه المعاكس."

خوان رامون خيمينيز

الفصل الأول

الموقد والسمندل

كان من دواعي سروره إحراقُ الأشياء.

كان من السارّ جداً رؤيةُ الأشياء تتحلّل، رؤية الأشياء تسودّ وتتغيّر. وفيما ثبّت الفوّهةَ النحاسية الصفراء في قبضتيْه وكأنّها أفعى بيثونية ضخمة تبخّ كيروسيناً سامّاً على العالم حولها راح الدمُ يتدافع في رأسه وصارت له يدا قائد فذّ لفرقةٍ موسيقية تعزف كلّ سيمفونيات اللهيب والحريق لإسقاط أسمالِ التاريخ العفنة وأنقاضه المتفحّمة. بخوذته الرمزية حاملة الرقم ٤٥١ على رأسه الأجوف وبعينيْه المتوهجتَيْن بلون لهب برتقالي وهو يفكّر في الخطوة التالية ضغط على زرّ الإشعال فانفجر المنزل بحريقٍ مدمّر أكّال ألهب سماء المساء ولوّنها بالأحمر والأصفر والأسود. خطا إلى الأمام وسط غلالة من الشرار المتطاير. كلّ ما أراده، كما في النكتة القديمة، هو أنْ يُقحمَ في أتون قطعةَ خِطمي مشكوكة على عود فيما تموت الكتب على شرفة المنزل ومرجته

وأغلفتُها تتلوّى كأجنحة حمامات مذبوحة وهي تحترق في سعير من الشرار المتلولب ويتبدّد رمادُها على هبّات ريح سوّدتها النيران.

ارتسمت على وجه مونتاغ التكشيرةُ الوحشية التي تَسِم جميعَ الرجال الذين يسفعهم اللهيب ويدفعهم إلى التراجع.

كان يعلم أنّه قد ينظر في مرآة عند عودته إلى مركز الإطفاء ورائحةُ الفلّين المحروق تفوح منه، ليُتحِف نفسَه بغمزة، هو الرجلُ الشاعري. وعندما يخلد إلى النوم في وقت لاحق سيشعر في الظلام بتلك الابتسامة النارية عالقةً في طيّات عضلات محيّاه. لم تفارقه تلك الابتسامةُ أبداً، إنّها لم تتركه مُطلَقاً وأبداً أمدَ ما تُسعفه الذاكرة.

علّق خوذته السوداء بلون الخنفساء ولمّعها، علّق بعناية سترتَه المضادّة للنار ودلّل نفسَه بحمّام دوش طويل. بعدئذٍ خرج وهو يصفر لحناً ويضع يدَيْه في جيبَيْه وسار عبر الطابق الأعلى لمركز الإطفاء وأسقط نفسه في الفتحة الأرضية التي يتوسّطها عمودٌ ينزلق عليه الإطفائيون في حالات الاستعجال. وفي اللحظة الأخيرة عندما بدت الكارثةُ مؤكّدة أخرج يديه من جيبيه وكبح سقطتَه عبر الإمساك بالعمود اللامع بلون الذهب. انزلق قليلاً وتوقّف وسطَ صرير يديه على العمود، والمسافةُ بين عقبَيْه والأرضية الإسمنتية للطابق الأسفل لا تتجاوز بوصةً واحدة.

خرج من مركز الإطفاء في منتصف الليل وسار على امتداد الشارع نحو محطّة المترو ليحمله قطارُ الأنفاق الصامت المدفوع بطاقة الهواء على امتداد مسربه المشحَّم تحت الأرض قبل أن يتوقّف بزفرةٍ كبيرة من

الهواء الساخن ليُنزِله عند السلّم المتحرك ذي اللون القشدي الصاعد إلى الضاحية.

كان يصفر وهو يدع السلّم المتحرك يحمله إلى هواء الليل الساكن. سار نحو الزاوية بدون أنْ يجهد نفسه بالتفكير في أيّ أمر معيَّن. غير أنّه أبطأ خطاه قبل أنْ يبلغ الزاوية وكأنّ ريحاً هبّت عليه من حيث لا يدري أو كأنّ أحداً ناداه باسمه.

لقد ساورته في الليالي القليلة الماضية أشدُّ المشاعر غموضاً حيالَ الرصيف الواقع خلف الزاوية تماماً أثناء توجُّهه نحو منزله تحت ضوء النجوم. جاءه هذا الإحساس قبل لحظة واحدة فقط من الالتفاف حول الزاوية. لقد تواجد شخصٌ ما في هذا المكان. بدا الهواءُ مشحوناً بهدوء خاصّ وكأنّ شخصاً ما كان ينتظر هناك بهدوء وما لبث أنْ تحوّل إلى ظلّ قبل وصوله، ومن ثم تركه يمرّ. ربّما استشمّ أنفُه عطراً باهتاً، أو ربّما استشعرت البشرةُ على ظهر يديه، على وجهه، ارتفاعَ درجة الحرارة في هذه البقعة حيث يمكن لوقوفِ شخصٍ أنْ يرفع حرارةَ الجوّ المحيط به مباشرةً مقدارَ عشر درجات للحظةٍ واحدة. لم يستطع أنْ يفهم الأمر. وكلّما التفّ حول الزاوية لم يكن يرى في كل مرّة إلا الرصيفَ الأبيض الخاوي المحدودب. ولعلّه لمح في إحدى الليالي شيئاً يختفي بسرعة خلف فناء قبل أنْ يتمكّن من تركيز بصره أو من الكلام.

لكنّه أبطأ سيره في هذه الليلة حتّى كاد يتوقّف. كان عقلُه الداخلي الذي سبقَه في الالتفاف حول الزاوية نيابةً عنه قد سمع همسةً بالغة

الضعف. تنفّس؟ أم هل كان الجوُّ محتقناً فقط لوجود شخص ما هناك يقف منتظراً؟

التفّ حول الزاوية.

تطايرت على الرصيف المغمور بنور القمر أوراقُ الخريف بشكل جعل الفتاةَ المتحرّكةَ هناك تبدو مسمّرةً في مشيتها المنسابة وكأنَّ حركة الريح والأوراق تحملها إلى الأمام. كان رأسُها مدلّىً في نصف انحناءة للتفرّج على حذائيها وهما يحرّكان الأوراقَ الدوّارة. كان وجهها نحيلاً أبيضَ اللون كالحليب وبدا عليه جوعٌ حانٍ من النوع الذي يلامس كلَّ شيء بفضول لا يكلّ. كانت تلك نظرةَ دهشة كادت تكون باهتة، والعينان السوداوان مثبّتتان على العالم فلا يفوتُهما أيُ حراك. كان ثوبها أبيض اللون وله وشوشة. كاد يظنّ أنّه سمع حركةَ يدَيْها وهي تسير كما سمع ذلك الصوت الخافتَ جدّاً الذي صدر الآن مع الحركة البريئة لوجهها الذي استدار عندما اكتشفت أنّها كانت على مسافة لحظةٍ واحدة من رجل يقف منتظراً في وسط الرصيف.

كانت الأشجار المتمايلة فوق رأسيهما تُصدِر صخباً عالياً وهي تُسقِط مطرَها الجاف إلى أسفل. توقّفت الفتاة وبدا أنّها قد تتراجع مدهوشة، لكنّها لم تفعل وظلّت لابثةً تنظر إلى مونتاغ بعينين داكنتَيْن لامعتين عامرتين بالحياة إلى درجة أحسّ معها بأنّه قال شيئاً رائعاً بالفعل. لكنّه كان يعرف أنّ فمه لم يتحرّك إلا ليقول "هالّو"، وعندما بدت مبهورةً تماماً بالسمندل على ذراعه وقرص الفينيق على صدره، تكلّم من جديد.

قال: "بالطبع، أنتِ جارتُنا الجديدة، أليس كذلك؟".

رفعت عينَيْها عن شعارَيْه المهنيَّيْن وقالت: "لا بدّ وأنْ تكونَ أنت الإطفائي"، ثم توارى صوتُها.

- "يا لغرابة قولك هذا!".

- "كنتُ، كنتُ سأحزر ذلك بعينَيْن مغمضتَين"، قالت ببطء.

- "ماذا؟ هل هي رائحةُ الكيروسين؟ زوجتي تشكو دائماً".

ضحك وأضاف قائلاً: "لا تستطيعين أبداً أنْ تتخلّصي من هذه الرائحة تماماً".

- "كلا، لا تستطيع ذلك"، قالت بلهجة جادّة.

شعر بأنّها تسيرُ في دائرة حولَه وتتفحّصه بكلّ تفاصيله وتنفضه بهدوء وتُفرِغ جيوبه بدون أنْ تتحرّك ولو مرةً واحدة.

طال عليه الصمت فقال: "الكيروسين ليس إلاّ عطراً بالنسبة إليّ".

- "هل هذا ما يبدو لك حقّاً؟".

- "بالطبع، لِمَ لا؟".

أمهلت نفسها برهةً للتفكير في الأمر وقالت: "لستُ أدري".

استدارت لتواجهَ الرصيف المؤدّي إلى منزلَيْهما وقالت: "هل يزعجك أنْ أسيرَ معك في طريق العودة؟ أنا كلاريس ماكليلان".

- "كلاريس. أنا غاي مونتاغ. تعالي معي. ماذا تفعلين في الخارج وأنت تتجوّلين في هذه الساعة المتأخّرة؟ كم عمرك؟".

سارا في ليل الهبّات الدافئة - الباردة على الرصيف المفضَّض، وكانت في الجوّ نسمةٌ حملت رائحةً واهنة لثمار المشمش والفريز

الطازجة. نظر حوله وأدرك أنّ ذلك مستحيل في هذا الوقت المتأخّر من السنة.

كانت الفتاةُ وحدَها وتسير معه الآن ووجهُها وضّاء كالثلج تحت ضوء القمر، وأدرك أنّها تُدير أسئلتَه في رأسِها لتعطيه أفضلَ أجوبة تقدر عليها.

قالت: "حسناً، عمري سبعة عشر عاماً وأنا مجنونة. ويقول عمّي إنّ الأمرَيْن يترافقان دائماً. وقد قال لي: عندما يسألك الناس عن عمرك أجيبي دائماً أنّك في السابعة عشرة من العمر وأنّك مجنونة. أليس هذا وقتاً رائعاً للمشي في الليل؟ أحبّ رائحةَ الأشياء وأتفرّج على الأشياء، وأبقى في بعض الأحيان مستيقظةً طول الليل، أمشي وأتفرّج على الشمس وهي تشرق".

تابعا سيرهما صامتَيْن ثم قالت في آخر الأمر بنبرة متأنيّة: "اعلمْ أنني لستُ خائفةً منك على الإطلاق".

دُهِش. سألها: "ولماذا تخافين منّي؟".

- "أناسٌ كثيرون خائفون. أقصد أنهم يخافون من الإطفائيين. لكنّك لستَ إلا رجلاً بالرغم من كلّ شيء...".

رأى نفسَه في عينَيْها معلّقاً في قطرتَيْن متلألئتَيْن من الماء الصافي، رأى نفسَه داكناً وقزماً بتفاصيله الدقيقة والخطوط المحيطة بفمه؛ كان كلّ شيء موجوداً هناك كما لو كانت عيناها قطعتَيْن سحريتَيْن من الكهرمان البنفسجي القادر ربّما على الإمساك به وتصبيره سالماً. كان وجهها الناظرُ إليه الآن شبيهاً ببلّورٍ سريع العطب لونُه مسروق

من الحليب يشعّ منه ضوءٌ ناعم لا يخبو. لم يكن كضوء الكهرباء الهستيري. لكنْ، ماذا كان؟ كان كالضوء الرقيقِ النادر والمريح إلى حدّ غريب الذي يشعّ من لهب شمعة يتراقص بدلال. في إحدى المرات عندما انقطع التيارُ الكهربائي أثناء طفولته عثرت والدته على آخر شمعة لديها وأشعلتها، كانت تلك ساعةً وجيزة من الاكتشاف المتجدّد، من الإنارة الرائعة إلى درجةٍ فقدَ المكانُ معها أبعادَه المديدة واحتضنتهما بحنان، الأمّ والابن وحدهما، مسحورَيْن وكلُّهما رجاء أنْ لا يعود التيار الكهربائي بأسرع ممّا يبغي...

قالت كلاريس ماكليلان:

– "هل تمانع أنْ أسأل؟ منذ متى تعمل كرجل إطفاء؟".

– "منذ كان عمري عشرين عاماً، أي منذ عشر سنين".

– "هل تقرأ مرةً أيّاً من الكتب التي تحرقها؟"

ضحك وقال: "هذا مخالف للقانون!".

– "آه. بالطبع".

– "إنّه عمل ممتاز. في يوم الاثنين نحرق كتب ميلاي. في يوم الأربعاء كتب ويتمان. في يوم الجمعة كتب فوكنر. نحرقها حتى تصبح رماداً ثم نحرق الرماد، هذا شعارنا الرسمي".

واصلا سيرهما وقالت الفتاة: "هل صحيح أنّ رجالَ الإطفاء في الماضي البعيد كانوا يطفئون الحرائق بدلاً من إشعالها؟".

– "كلاّ. لقد كانت المنازل دائماً مضادّةً للحريق. تستطيعين أنْ تثقي بكلامي".

– "عجيب. سمعتُ مرةً أنّ المنازل في الماضي البعيد كانت تحترق عن طريق الصدفة وأنّ الناس كانوا يحتاجون إلى إطفائيّين لإخماد الحرائق".

ضحك.

نظرت إليه بسرعة وسألته: "لماذا تضحك؟".

– "لا أعرف". بدأ يضحك من جديد ثمّ توقّف وسألها: "لماذا؟".

– "لأنّك تضحك عندما لا أكون قد قلتُ شيئاً مضحكاً ولأنّك تجيب بصورة فورية. أنت لا تتمهّل أبداً للتفكير في ما سألتك".

توقّف عن السير وقال وهو ينظر إليها: "إنّك غريبة الأطوار. أليس لديك أيُّ احترام؟".

– "لم أقصد أن أؤذي مشاعرك. كلُّ ما في الأمر كما أظنّ هو أنّني أحبُّ مراقبةَ الناس أكثر ممّا ينبغي".

– "حسناً، ألا يعني هذا أيَّ شيء بالنسبة إليك؟".

ربّتت على الرقم ٤٥١ المطرّز على كمّه الأسود كالفحم.

قالت هامسة: "بلى". سرّعتْ خطوتَها وسألت: "هل تفرّجتَ مرةً على السيارات النفاثة التي تتسابق على الشوارع العريضة في ذلك الاتّجاه؟".

– "أنتِ تغيّرين الموضوع!".

– "أظن في بعض الأحيان أنّ السائقين لا يعرفون ما هو العشب، أو ما هي الزهور، لأنّهم لا يشاهدون أبداً هذه الأشياء وبتمهُّل".

ثم أضافت تقول: "لو أريتَ سائقاً بقعةً خضراء لهتف نعم نعم هذه

مرجةُ عشب. وماذا لو أريتَه بقعةً زهرية؟ كان سيصيح هذه حديقةُ زهور! البقع البيضاء هي منازل. البقع البنّية هي أبقار. كان عمّي مرةً يقود ببطء على طريق سريع. كان يقود بسرعة أربعين ميلاً في الساعة فسجنوه يومين. أليس ذلك مضحكاً، ومحزناً أيضاً؟".

قال مونتاغ بضيق: "أنتِ تفكّرين في أمورٍ أكثر مما يجب".

- "أنا نادراً ما أتفرّج على "العروض الجدارية" للصالونات أو أذهب إلى السباقات وحدائق الملاهي، لذا أمتلك متّسعاً من الوقت للأفكار المجنونة كما أظنّ. هل شاهدتَ اللوحات الإعلانية التي يبلغ طولها مائتي قدم في الريف خارج البلدة؟ هل تعلم أنّ طول لوحات الإعلان كان لا يتجاوز عشرين قدماً في الماضي؟ لكنّ السيارات أصبحت تمرّ أمامها بسرعة كبيرة إلى درجةِ أنّهم اضطُرّوا إلى تطويل الإعلانات لتطول مدّةُ رؤيتها".

ضحك مونتاغ فجأةً وقال: "لم أكن أعرف ذلك".

- "أراهنُك على أنّني أعرف شيئاً آخر لا تعرفه أنت. يوجد ندى على العشب في الصباح".

عجز فجأةً عن تذكُّر ما إذا كان قد عرف هذا الأمر أم لا، وأغضبه ذلك إلى حدّ ما.

أومأت برأسها نحو السماء وقالت: "وإذا نظرتَ لرأيتَ أنّ هناك رجلاً على القمر".

إنّه لم ينظر منذ زمن طويل.

سارا بقيةَ الطريق ساكتَيْن. كان سكوتُها عامراً بالأفكار. وكان

سكوتُه من النوع القابض المزعج راح يرمقها خلالَه بنظراتِ اتّهام.

وعندما وصلا إلى منزلها كانت جميعُ أنواره ساطعة.

– "ما الذي يجري؟"، سأل مونتاغ الذي نادراً ما رأى في حياته هذا العدد الكبير من المصابيح المنزلية.

– "آه، إنّهم فقط أمّي وأبي وعمّي، يجلسون معاً ويتحدّثون. الأمر شبيهٌ بأنْ تكون واحداً من المُشاة. لكنّه أندر من ذلك فقط. لقد اعتُقِل عمّي مرّةً أخرى – هل أخبرتُك ذلك؟ – لأنّه كان راجلاً. آه، إنّنا غريبون إلى أبعد حدّ".

– "لكنْ عمّاذا تتحدّثون؟".

ضحكت لسماع سؤاله. قالت "ليلة سعيدة" وبدأت الصعود على درب منزلها. لكنْ بدا أنّها تذكّرتْ شيئاً فعادت أدراجَها لتنظر إليه بتعجُّبٍ وفضول. سألته: "هل أنت سعيد؟".

صاح: "هل أنا ماذا؟".

لكنّها كانت قد ابتعدت. صارت في ضوء القمر وانغلقَ باب منزلها بهدوء.

* * *

"سعيد! مِ، بين كلّ هذا الهراء".

توقّفَ عن الضحك.

دسّ يده في فتحة القفّاز لباب منزله لكي يتمّ التعرُّفُ إليه من لمسته. انزلق الباب منفتحاً.

"بالطبع أنا سعيد. ماذا تظنّ هي؟ ألستُ سعيداً؟" وجّه هذا السؤال إلى الغرف الساكنة. وقف شاخصاً بنظره إلى أعلى نحو شبك فتحة التهوئة في البهو وتذكّر فجأة أنّ ثمةً شيئاً كامناً خلف الشبك، شيئاً بدا وكأنه يحترق فيه الآن. أشاح بعينَيْه عن الشبك بسرعة.

ما أغرب هذا اللقاء في هذه الليلة العجيبة. لم يتذكّر لقاءً مثله باستثناء ما حدث له بعد ظهر أحد الأيام قبل سنة عندما التقى رجلاً عجوزاً في الحديقة وتحدّثا بالفعل...

هزّ مونتاغ رأسَه. نظر إلى جدارٍ عارٍ. كان وجهُ الفتاة هناك، وجهٌ جميلٌ حقّاً في ذاكرته: أمرٌ مذهل في الواقع. كان وجهها رقيقاً جدّاً كميناء ساعةٍ صغيرة يُشاهَد باهتاً في غرفةٍ مظلمة في منتصف الليل عندما تستيقظ لتعرفَ الوقت فترى آلةَ الزمن هذه التي تُطلعك على الوقت بالساعة والدقيقة والثانية مغلَّفةً بسكونٍ أبيض ومتوهّجةً بكلّ ثقة لمعرفتها ما عليها أنْ تقولَه عن الليلة المنقضية بسرعةٍ نحو مزيدٍ من الظلمة والمتحرّكة أيضاً نحو شمسٍ جديدة.

"ماذا؟" سأل مونتاغ تلك النفسَ الأخرى، تلك الغبية الكامنة في العقل الباطن التي تجري أحياناً وهي تثرثر خارجَ إطار الإرادة والعادة والضمير.

نظر إلى الجدار من جديد. كيف يكون بمثابة مرآة أيضاً تعكس وجهها. مستحيل؛ فكم تعرف من الناس القادرين علىً أنْ يعكسوا نورَك عليك أنت؟ إنّ الناس في الغالب – بَحَث عن تشبيهٍ ووجده في مجال عمله – هم مشاعل تظلّ ملتهبةٍ إلى أنْ تأفل نهائياً. ما أندر أنْ

تأخذَ وجوهُ أناس آخرين شيئاً منك لترمي عليك من جديد ملامحَك الخاصّة وأعمقَ ما في باطنك من أفكارٍ مترجرجة؟

يا لقوّة الفراسة التي امتلكتْها الفتاة؛ كانت أشبهَ بمتفرّجة متحمّسة في مسرحية دمى، تحزر سلفاً وقبل لحظة كلَّ رفّةِ جفن، كلَّ حركةِ يد، كلّ نقرةِ إصبع. كم من الوقت سارا معاً؟ ثلاث دقائق؟ خمس؟ مع ذلك كم يبدو هذا الوقت مديداً الآن. كم كانت صورتُها ضخمةً على المسرح أمامه. يا لهذا الظلّ الذي تلقيه على الجدار بجمسها الهزيل! شعر بأنّها قد تطرف بعينها إذا استحكّته عينُه. وإذا تمدّدت عضلاتُ فكَّيْه بدون شعوره فسوف تتثاءب هي قبله بزمن طويل.

تساءل: "لماذا، وأنا أفكّر في الأمر الآن، بدت لي تقريباً وكأنّها كانت تنتظرني هناك، في الشارع، في ساعة متأخّرة لعينة من الليل...".

فتح بابَ غرفة النوم.

كان الأمرُ أشبهَ بالدخول إلى الغرفةِ المرمرية الباردة لضريح طقسي بعد غياب القمر. ظلمةٌ كاملة، لا أثرَ للعالم الفضّي في الخارجٍ، النوافذُ مغلقةٌ بإحكام، الغرفةُ عالَمُ مدافن لا يمكن لأيّ صوتٍ من المدينة الكبيرة أنْ يخترقها. لم تكن الغرفةُ خالية.

أصاخ السمع.

الطنين الخافت المتراقص في الهواء برهافةِ ناموسة صغيرة، الهمهمة الكهربائية لدبّور مختبئ ومستريح في عشّه الوردي الدافئ الخاصّ.

كادت الموسيقى تكونُ عاليةً إلى درجةٍ كافية ليتمكّن من متابعة نغمتها.

أحسّ بابتسامتِه تنزلق عن وجهه، أحسّ بها تذوب وتتدلّى إلى أسفل وتنطوي على نفسها كقشرة شحمية، كمادّةِ شمعة خيالية اشتعلت أطول ممّا تحتمل فتداعت على نفسها وانطفأت الآنً. الظلمة. لم يكن سعيداً. لم يكن سعيداً. قال تلك الكلمات لنفسه. أدرك أنّ هذا هو الوضعُ الحقيقي للأمور. لقد ارتدى سعادتَه كقناع على وجهه، ولكنّ الفتاةَ هربت عبر الفناء ومعها القناع، وما من سبيل أمامَه للعودة كي يدقّ على بابها ويطالبها بإرجاعه.

بدون أنْ يشعلَ النور تصوّر في مخيّلته كيف تبدو هذه الغرفة، زوجتُه ممدَّدةً على السرير حاسرةَ الغطاء وباردة كجسدٍ مرسوم على غطاء قبر، عيناها مشدودتان إلى السقف بخيطانٍ فولاذية خفيّة لا حراك فيهما، وفي أذنيها صَدَفتان صغيرتان، سمّاعتا الراديو الكشتبانيتان الرقيقتان المحشورتان هناك بإحكام لتنقلا إلى شاطئ عقلها اللانائم بحراً إلكترونياً طاغياً من الصوت، من الموسيقى، من الكلام والموسيقى والكلام. كانت الغرفة خاليةً بالفعل. كانت الأمواج تأتي في كل ليلة وتحملها على الذُرى المتلاطمة لمدّها الصوتي، فتطفو فوقها وتفتح عينَيْها واسعاً مع اقتراب الصباح. لم تمضِ ليلةٌ واحدة خلال السنتَيْن الماضيتَيْن لم تسبح فيها ميلدرد في ذلك البحر، لم تغطس فيه بسرور للمرّة الثالثة.

كانت الغرفة باردة، لكنّه شعر مع ذلك بأنّه لا يستطيع التنفُّس. لم يشأ أنْ يفتح الستائر والنوافذ الفرنسية الكبيرة لأنّه لم يُرِدْ أنْ يدخل

ضوءُ القمر إلى الغرفة. لذا عمد كرجلٍ يساوره إحساسٌ بأنّه سيموت في الساعة التالية من نقص الهواء إلى تلمُّس طريقه نحو سريره المفتوح المنفصل والبارد بالتالي.

وقبل لحظةٍ من ارتطام قدمه بذلك الشيء على الأرض عرف أنه سيرتطم بمثل هذا الشيء. لم يكن الأمرُ غيرَ شبيه بالإحساس الذي خالجه قبل أنْ يلتفّ حول الزاوية ويوشك على الارتطام بالفتاة وإسقاطها على الأرض. تلقّت قدمُه التي كانت تبثُّ ذبذباتٍ أمامَها أصداءً راجعة من العائق الصغير الجاثم في طريقها حتّى عندما كانت هذه القدم تتحرّك في الهواء. ركلت قدمُه هذا الشيء الذي أصدر صوتاً باهتاً وانزلق في الظلام.

وقف منتصباً تماماً وأصغى للشخص الراقد على الفراش الداكن في ذلك الليل الخالي من المعالم. كان النَفَسُ الخارج من المنخرين ضعيفاً إلى درجةِ أنّه ما كان ليحرّكَ إلا أوهى أهدابِ الحياة: وريقة صغيرة، ريشة سوداء، شعرة منفردة واحدة.

ما زال لا يرغب في ضوءٍ خارجي، أخرج من جيبه ولاّعتَه وتحسّس السمندل المحفور على قرصه الفضيّ، وأشعل الولاّعة.

تطلّعت إليه عينان تلمعان في وهج النار الصغيرة الجاثمة في يده وكأنّهما فصّان من حجر القمر، فصّان فاتحان من حجر القمر مدفونان في جدولٍ من الماء الرقراق تتدفّق فيه حياةُ العالم بدون أنْ تلامسَهما.

– "ميلدردا!".

كان وجهُها شبيهاً بجزيرة يغطّيها الثلج وقد يتساقط عليها المطر،

لكنّها لم تشعر بمطر، جزيرة قد تطفو عليها ظلالُ غيومٍ عابرة، لكنّها لم تشعر بظلّ. لم يكن هناك إلاّ غناءُ الدبابير الكشتبانية في أذنَيْها المسدودتَيْن بإحكام، عيناها هامدتان وكأنّهما من زجاج ونَفَسُها يدخل ويخرج بنعومة وبطء، يعبر منخريها داخلاً وخارجاً وهي لا تهتمّ بما إذا جاء أو ذهب، جاء أو ذهب.

التمع الشيء الذي ركله بقدمه تحت حافّة سريره الآن. كان هذا الشيء القارورةَ البلورية الصغيرة للحبوب المنوّمة التي مُلِئت في وقت سابق من ذلك اليوم بثلاثين كبسولة رآها الآن مبعثرةً ومفتوحةً وفارغة في ضوء شعلته الصغيرة.

وفيما هو واقفٌ هناك زعقت السماءُ فوق المنزل. كان هناك صوتُ تمزُّقٍ هائل وكأنّ يدَيْن عملاقتَيْن مزّقتا عشرةَ آلاف ميل من الكتّان الأسود على امتداد درزته. بدا مونتاغ وكأنّه انشطر إلى نصفَيْن. شعر بصدره يُقطَّع ويُبقَر. قاذفات القنابل النفاثة تعبر فوقه، تعبر فوقه، تعبر فوقه، واحدة اثنتان، واحدة اثنتان، واحدة اثنتان، ستّ قاذفات، تسع قاذفات، اثنتا عشرة قاذفة. واحدة وواحدة وواحدة، قاذفة أخرى وأخرى وأخرى. قامت القاذفات بكلّ هذا الزعيق نيابةً عنه. فتح فمه وترك زعيقَها ينسلّ إلى داخله ثم يخرج بينَ أسنانه التي كشّر عنها. ارتجّ المنزل. انطفأت الشعلة في يده. اختفى حجرا القمر. أحسّ بيده تغوص في اتجاه الهاتف.

رحلت النفّاثات. أحسّ بشفتَيْه تتحرّكان وتلامسان سمّاعة الهاتف. "مستشفى الطوارئ". همسة رهيبة.

شعر بأنّ النجوم انسحقت من صوت النفّاثات السوداء وبأنّ الأرضَ ستكون مغطّاة بغبارها كثلج عجيب في الصباح. كانت تلك الفكرةَ الغبية التي خطرتْ له واقفٌ يرتجف في الظلام تاركاً شفتيه تتحرّكان وتتحرّكان.

كانت لديهم هذه الآلة. كانت لديهم آلتان في الواقع. إحداهما تنزلق نزولاً نحو معدتك كما تنزلق أفعى كوبرا سوداء نزولاً في بئر عامرةٍ بالأصداء بحثاً عن الماء القديم والزمن العتيق المجتمّعَيْن هناك. شربتْ المادّةَ الخضراء التي طفت إلى أعلى في فوران بطيء. هل شربت من الظلمة؟ هل امتصّت كلّ السموم المتراكمة على مرّ السنين؟ أكلتْ بصمت يتخلّله لماماً صوتُ اختناقٍ باطني وتفتيشٍ أعمى. كانت لها عين. كان في وسع المشغِّل اللامبالي للآلة، بعد ارتدائه خوذةً بصرية خاصّة، أنْ ينظر إلى داخل روح الشخص الذي يُفرِغه بمضخّته. ماذا كانت العينُ ترى؟ لم يقل. كان يرى لكنّه لم يكن يشاهد ما تراه العين. لم تكن العمليةُ بأسرِها بعيدةَ الشَبَه عن حفر خندق في فناء منزله. لم تكن المرأة الممدّدة في السرير أكثر من طبقةِ رخام وصلوا إليها. تابعْ عملك مهما يكن من أمر، واصلْ الحفر نزولاً، استخرجْ الخواءَ لو أمكن سحبُ شيءٍ كهذا إلى الخارج في رجّة الأفعى الماصّة. وقف مشغّل الآلة وهو يدخّن سيجارة. كانت الآلةُ الأخرى شغّالةً أيضاً.

كانت الآلةُ الأخرى تُسيَّر من قبل مشغّل لامبالٍ بالقدر ذاته يرتدي وزرةَ عمل مضادّة للبقع اختلط فيها اللونان الأحمر والبنّي.

كانت هذه الآلة تمتصّ كلّ الدم من الجسم وتضخّ بدلاً منه دماً ومصلاً جديدَيْن.

قال المشغّل المنتصبُ فوقَ المرأة الصامتة: "علينا أنْ ننظّفَهم في الاتّجاهَيْن. لا جدوى من تنظيف المعدة إذا لم تنظِّف الدم. اترك ذلك الشيء في الدم وسيضرب الدمُ الدماغَ كمطرقة - بانغ بانغ - ألفي مرّة أو نحو ذلك، فيستسلم الدماغ ويتوقّف عن العمل".

- "توقَّفْ"، قال مونتاغ.

المشغّل: "كنتُ أقول فقط".

- "هل انتهيت؟"، سأل مونتاغ.

أوقفا الآلتين تماماً. "انتهينا". غضبُه لم يلامْسهما حتّى. وقفا ودخّانُ سيجارتيهما يتلولب حول أنفيهما وإلى داخل عيونهما بدون أنْ يجعلها تطرف أو تنقبض. "أجرنا خمسون دولاراً".

- "لماذا لا تقولان لي أولاً ما إذا كانت ستتعافى؟".

- "بالطبع ستكون بخير. لدينا في حقيبتنا هذه كلُّ المادّة المؤذية ولا تستطيع الوصولَ إليها الآن. كما قلتُ سابقاً، استُخرج القديم ووُضِع الجديد مكانه وستكون بخير".

- "ليس أيٌّ منكما طبيباً مجازاً. لماذا لم يرسلوا طبيباً مجازاً من الطوارئ؟".

- "بحقّ الجحيم"، قال المشغّل وسيجارته تتحرّك على شفته، "لدينا تسع أو عشر حالات كهذه كلّ ليلة. صار لدينا الكثير منها منذ سنوات قليلة فأوصينا ببناء الآلات الخاصّة. مع العدسة البصرية بالطبع،

وهي الإضافة الجديدة، أمّا الباقي فكلّه قديم، إنّك لا تحتاج إلى طبيب مجاز في حالة كهذه. كلُّ ما يلزمك حِرَفيّان يحلاّن المشكلة في نصف ساعة. انظر". بدأ يسير نحو الباب. "علينا أن نذهب. لقد تلقّينا للتوّ اتصالاً عبر السمّاعة الصغيرة القديمة، على مسافة عشرة مربّعات شارعية من هنا.. شخصٌ آخر قفز قبل قليل عن غطاءِ علبةِ حبوب. اتّصلْ بنا إذا احتجتَ إلينا من جديد. أبقِها هادئة. لقد وضعنا فيها عقاراً مضاداً للمسكِّنات. ستستيقظ جائعة. إلى اللقاء".

بفم شبيه بخطّ مستقيم تتدلّى منه سيجارة ومقلَتَيْن كعينَيْ أفعى نافخةً حمل كلٌّ من الرجلين عدّتَه من آلةٍ وأنبوبٍ وعلبةِ اكتئابٍ سائل ووحلٍ لزج داكن لمادّةٍ لا اسم لها. سارا الهوينا خارجين من الباب.

أرخى مونتاغ جسمه على مقعد وحملق في هذه المرأة. كانت عيناها مُغمَضتَيْن بسكينةِ الآن، ومدّ يده ليستشعر دفءَ نَفَسِها على كفّه.

- "ميلدرد"، قال في آخر الأمر.

فكَّر: "عددُنا أكبرُ كثيراً مما ينبغي. هناك مليارات منّا وهذا كثير جدّاً. لا أحدَ يعرف أحداً. يأتي غرباء وينتهونك، يأتي غرباء ويسلبون قلبك من صدرك. يأتي غرباء ويأخذون دمك. يا ربّي يا كريم، من هما هذان الرجلان؟ لم أشاهدهما أبداً طول عمري".

انقضت نصف ساعة.

كان مجرى الدم جديداً داخل هذه المرأة وبدا أنّه فعل أمراً جديداً لها. كانت وجنتاها متورّدتَيْن جداً وشفتاها نضرتَيْن جدّاً وعامرتَيْن

باللون وبدتا بضَّتَيْن ومسترخيتَيْن. في داخلها دمُ شخص آخر. ليتَ هناك ذاكرةً للحم شخصٍ آخر ودماغه. لو أنّهما استطاعا فقط أنْ يأخذا دماغها إلى مصبغة التنظيف على الناشف لإفراغ جيوبه وتبخيره وتنظيفه وإعادة إغلاقه وإرجاعه في الصباح. لو أمكن فقط...

نهض وفتح الستائر والنوافذ على مصاريعها ليسمح لنسيم الليل بالدخول. كانت الساعةُ الثانيةَ فجراً. أهي ساعةٌ واحدة فقط منذ أنْ كانت كلاريس ماكليلان معه في الشارع ومنذ عودته إلى المنزل ودخوله إلى الغرفة المظلمة وارتطام قدمه بالقارورة البلورية الصغيرة؟ ساعة واحدة فقط، لكنّ الكلمة ذابت وأعادت تكوُّنَها في شكل جديد لا لون له.

حمل الهواءُ ضحكاً عبر الفناء المصبوغ بلون القمر من منزل كلاريس وأبيها وأمّها وعمّها الذي يبتسم بهدوء وجدّية. كانت الميزةُ الطاغية لضحكهم استرخاءَه وصدورَه من القلب وعلى سجيّته ومجيئَه من المنزل المتلألئ بالأنوار في هذه الساعة المتأخرة من الليل فيما تدثّرت جميع المنازل الأخرى بالظلام. سمع مونتاغ الأصوات تتكلّم وتتكلّم وتتكلّم، تُفسِح المجال، تتكلّم، تنسجُ خيوط سردِها المهدّئ ثمّ تعيد نسجَها من جديد.

خرج مونتاغ عبر إحدى النوافذ الفرنسية الشبيهة بالأبواب وعبر الفناء بدون أنْ يفكّر في الأمر حتّى. وقف في الظلال أمام المنزل العامر بالكلام وفكّر حتى في طرقِ بابهم ليهمس: "دعوني أدخل. لن أقولَ أيّ شيء. كلُّ ما أريده هو أن أستمع. ما الذي تقولونه؟".

لكنّه لبث واقفاً في مكانه بدلاً من ذلك، يشعر ببرد شديد ووجهُه قناعٌ من جليد، يصغي إلى صوت رجل (العمّ؟) يتنقّل الهوينا.

– "حسناً، هذا في نهاية المطاف عصرُ المناديل المعدّة للرمي. نظِّفْ أنفَك أمام شخص ما، غضِّنْ المنديل، اشطفْه في المرحاض، اسحب منديلاً آخر، نظّف أنفَك فيه، جعّده واشطفه في المرحاض. كلٌّ يستعمل ذيلَ سترةِ كلِّ شخصٍ آخر. كيف يُفتَرض بك أنْ تدعمَ فريقَك المحلّي عندما لا تمتلكُ حتّى برنامجاً أو لا تعرفُ الأسماء؟ في هذه المناسبة، ما هو لون القمصان التي يرتدونها وهم يهرولون خارجين إلى الملعب؟".

تراجع مونتاغ عائداً إلى منزله وترك النافذة مفتوحة، تفحّص ميلدرد ورتّب أغطيتها بعناية ثم تمدّد وضوءُ القمر يسطع على عظم وجنته وقوس حاجبه المقطّب. تقطّر ضوءُ القمر في كل عين ليشكّل شلاّلاً فضياً داخلها.

قطرةُ مطر واحدة، كلاريس. قطرةٌ أخرى، ميلدرد، قطرة ثالثة، العمّ، قطرة رابعة، حريق هذه الليلة. الأولى كلاريس. الثانية ميلدرد. الثالثة العمّ. الرابعة الحريق. الأولى ميلدرد. الثانية كلاريس، الأولى، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة، كلاريس، ميلدرد، عمّ، حريق، حبوب منوّمة، رجال، مناديل معدّة للرمي، أذيال سترات، نظّفْ أنفك، جعِّد، اشطف، كلاريس، ميلدرد، عمّ، حريق، حبوب، مناديل، نظّفْ أنفك، جعِّد، اشطف. الأولى، الثانية، الثالثة! مطر. العاصفة. العمّ يضحك. الرعد يسقط إلى الطابق السفلي. العالم كله

يتدفّق إلى تحت. النار تتفجّر في بركان. كلُّ شيء يتسارع نازلاً حوله بزئير صاعد كنهر جارف يجري نحو الصباح.

قال: "ما عدتُ أعرفُ أيّ شيء"، وترك قرصاً منوّماً يذوب على لسانه.

في الساعة التاسعة صباحاً كان سرير مليدرد فارغاً.

نهض مونتاغ بسرعة وقلبه يضخّ بقوّة وهُرِع عبر الردهة ووقف أمام باب المطبخ.

كانت شريحةُ الخبز المحمَّص تقفز خارج آلة التحميص الفضية لتقبض عليها يدٌ معدنيةٌ عنكبوتية وتُغرِقها بزبدة ذائبة.

راقبت ميلدرد الخبز المحمّص وهو يُنقَل إلى صحنها. كانت كلٌّ من أذنَيْها مسدودةً بنحلة إلكترونية تطنّ في انتظار انقضاء الساعة.

نظرت فجأةً إلى أعلى، شاهدته وأومأت برأسها.

سألها: "هل أنتِ بخير؟".

كانت خبيرة في قراءة حركة الشفاه بفضل عشر سنوات من التدرُّب مع الأصداف الكشتبانية. أومأت مرّة ثانية. بدأت تحمّص شريحة خبز أخرى.

جلس مونتاغ.

قالت زوجته: "لا أعلم لماذا أشعر بالجوع إلى هذه الدرجة".

– "أنا جائعة".

– "في الليلة الماضية..."، بدأ يقول.

– "لم أنم جيّداً. أشعر بتوعُّك شديد". ثم أضافت قائلةً: "يا إلهي،

كم أنا جائعة. لا أستطيع أنْ أفهم لماذا".

قال من جديد: "في الليلة الماضية...".

راقبت شفتيه دون قصد منها وسألت: "ماذا عن الليلة الماضية؟".

- "ألا تتذكّرين؟".

- "ماذا؟ هل أقمنا حفلةً صاخبة أو فعلنا شيئاً ما؟ أشعر بأثرِ ثمالة. يا إلهي كم أنا جائعة. من كان هنا؟".

أجاب: "أشخاصٌ قليلون".

قالت وهي تمضغ خبزها المحمّص: "هذا ما ظننتُه. معدة متلبّكة، لكنّني جائعة إلى أبعد حدّ. أرجو أنْ لا أكون ارتكبتُ حماقة في الحفلة".

- "كلاّ"، قال بهدوء.

أخرجت آلةُ التحميص شريحة خبز ساخنة مدهونة بالزبدة وقدّمتها إليه. حملها في يده شاعراً بأنّ عليه التزاماً.

قالت زوجته: "أنت نفسك لا تبدو في أفضل حال".

* * *

أمطرت السماء في ساعة متأخرة من بعد الظهر وكان العالم بأسره داكناً وكئيباً. وقف في ردهة منزله يثبّت شارتَه المزدانة بالسمندل البرتقالي المتوهّج. وقف طويلاً ينظر عالياً إلى فتحة تكييف الهواء في الصالة.

توقّفت زوجتُه الجالسة في ركن التلفزيون عن قراءة نصِّها برهةً كافية لتنظر إليه. قالت: "هذا الرجل يفكّر فعلاً".

قال: "نعم، أردتُ أنْ أتكلّم معك". صمت ثم أضاف: "لقد ابتلعتِ كلَّ حبوب قارورتك في الليلة الماضية".

قالت مندهشة: "آه، ليس من طبعي أن أفعل أمراً كهذا".

- "كانت القارورة فارغة".

قالت: "ليس من طبعي أنْ أفعل أمراً كهذا. لماذا أفعل أمراً كهذا؟".

- "ربّما أخذتِ حبّتَيْن ونسيت فأخذت حبّتَيْن أخريّيْن ونسيت مجدّداً فأخذتِ حبّتَيْن إضافيّتَيْن وكنت خدرةً إلى درجة أنّك ثابرتِ حتى أصبحتْ في جسمك ثلاثون أو أربعون حبّة".

قالت: "بحقّ الجحيم، ما الذي قد أريده من القيام بأمر سخيف من هذا النوع؟".

أجاب: "لا أعرف".

كان واضحاً تماماً أنّها تنتظر رحيلَه. قالت: "لم أفعلْ ذلك. أبداً ولا في مليار سنة".

- "لا بأس إنْ كان هذا ما تقولينه".

- "هذا ما قالته السيّدة". رجعت إلى نصّها.

سألها بكلل: "ما الذي يجري بعد ظهر اليوم؟".

لم ترفع عينيها عن النصّ هذه المرّة. قالت: "حسناً، هذه مسرحية ستُعرَض على دائرة الجدار إلى الجدار بعد عشر دقائق. أرسلوا إليّ دوري هذا الصباح عبر البريد. أنا أرسلتُ إليه بعض أغطية العلب. إنّهم يكتبون نصاً ينقصه أحدُ الأدوار. إنّها فكرة جديدة. ربّةُ المنزل، هذه أنا، هذا هو الدور الناقص. وعندما يحين وقت الأسطر الناقصة ينظر الجميع إليّ من

الجدران الثلاثة فأتلو أنا هذه الأسطر. هنا يقول الرجل مثلاً "ما رأيك في هذه الفكرة برمّتها يا هيلين؟" ينظر إليّ وأنا جالسةٌ هنا في وسط المسرح، هل تفهم؟ وأقول أنا...". توقّفت عن الكلام برهةً ومرّرت إصبعَها تحت سطر في النصّ وتابعت: أظنّ أنّ هذا جيد! بعد ذلك يستمرّون في المسرحية إلى أنْ يقول الرجل "هل توافقين على ذلك يا هيلين؟" فأقول أنا "بالتأكيد أوافق!". أليس هذا ممتعاً يا غاي؟".

لبث واقفاً في الردهة ينظر إليها.

قالت: "إنّها ممتعةٌ بالتأكيد".

– "ما موضوع المسرحية؟".

– "لقد أخبرتُك للتوّ. هناك هؤلاء الأشخاص وأسماؤهم بوب وروث وهيلين".

– "آه".

– "إنها ممتعةٌ حقاً. وستكون أكثرَ إمتاعاً حتّى عندما نستطيع تحمُّل تكاليف تركيب الجدار الرابع. كم من الوقت سيلزمنا في اعتقادك قبل أنْ نوفّر مالاً ونجلب من ينتزع الجدارَ العادي ويركّب جدار تلفزيون رابعاً؟ المبلغ هو ألفا دولار فقط".

– "هذا ثلث راتبي السنوي".

أجابت: "المبلغ هو ألفا دولار فقط. وأظنّ أنّ عليك مراعاتي في بعض الأحيان. إذا كان لدينا جدارٌ رابع لماذا سيكون الأمر وكأنّ هذه الغرفة ليست ملكاً لنا على الإطلاق، بل ستكون هناك غرفٌ لأناس مثيرين من جميع الأنواع. في وسعنا أنْ نعيش مستغنين عن أشياء قليلة".

- "إننا نعيش بالفعل مستغنين عن أشياء قليلة لنسدد ثمن الجدار الثالث، لقد رُكّب قبل شهرين فقط، أتتذكرين ذلك؟".

- "هل هذا كل ما انطوى عليه الأمر؟". جلستْ برهة طويلة تنظر إليه، ثم قالت: "حسناً، إلى اللقاء يا عزيزي".

- "إلى اللقاء". توقّف واستدار وسأل: "هل للمسرحية نهاية سعيدة؟".

- "لم أصلْ إلى هناك في قراءتي بعد".

توجه نحوها، قرأ الصفحة الأخيرة، أومأ برأسه، طوى النصّ وأعاده إليها. خرج من المنزل إلى المطر.

* * *

خفّت غزارة المطر وكانت الفتاة تسير في وسط الرصيف ورأسُها مرفوع وقطراتٌ قليلة تتساقط على وجهها. ابتسمت عندما رأت مونتاغ.

- "هاللو".

قال "هاللو" ثم أضاف سائلاً: "ما الذي تخططين له الآن؟".

- "ما زلت مجنونة. المطر يعطيني شعوراً طيباً. أحبّ السير في المطر".

- "لا أظن أنني سأحبّ ذلك".

- "قد تفعل إذا جرّبت".

- "لم أجرّب ذلك قط".

لحست شفتيها وقالت: "للمطر مذاق لذيذ حتّى".

سألها: "ماذا تفعلين؟ هل تتجوّلين وتجربين كل شيء مرة واحدة؟".

- "أحياناً مرّتين".

نظرت إلى شيء في يدها. سأل: "ماذا لديك هناك؟".

- "أظنّ أنّ لديّ آخر زهرة هندباء برية لهذه السنة. لم أعتقد أنّني سأجد أياً منها في المرجة في هذا الوقت المتأخر من السنة. هل سمعتَ مرة بفركها تحت ذقنك؟ انظر". لمستْ ذقنها بالزهرة وهي تضحك.

- "لماذا؟".

- "إذا علّمت فذلك يعني أنني مغرمة، هل علّمت؟".

لم يكن في وسعه أن يفعل أي شيء إلا النظر.

قالت: "إذاً؟".

- "أنتِ صفراء تحت ذقنك؟".

- "لن ينجح الأمر معي".

- "هنا". قبل أن يتمكن من الحراك وضعت الزهرة تحت ذقنه.

تراجع وضحكت هي. قالت: "لا تتحرّك!".

دقّقت النظر تحت ذقنه وقطّبت وجهها.

سأل: "إذاً؟".

قالت: "يا للأسف، أنت لست مغرماً بأحد".

- "بلى، أنا مغرم".

- "لا يبدو ذلك عليك".

- "أنا غارق تماماً في الغرام!". حاول اصطناع وجه يتناسب مع

كلماته، لكنْ لم يكن ثمة وجه. أضاف: "أنا مُغرَمٌ بالفعل!".

- "آه، أرجوك أن لا تنظر في ذلك الاتجاه".

قال: "إنها زهرة الهندباء. لقد استهلكتها بالكامل على نفسك ولهذا السبب هي لا تصلح لي".

- "بالطبع، لا بد وأنْ يكون هذا هو السبب، آه، لقد أغضبتك الآن. في وسعي أن أرى أنني أغضبتُك. أنا أسفة. أسفة حقاً". لمستْ مرفقه. سارع إلى القول:

- "كلا، كلا، أنا بخير".

- "يجب أن أذهبَ الآن. إذاً قُلْ إنك تسامحني. لا أريدك أن تكون غاضباً مني".

- "أنا لست غاضباً. منزعج، نعم".

- "علي أن أذهب لمراجعة طبيبي النفساني الآن. إنهم يجبرونني على الذهاب إليه. إنني أختلق أموراً أقولها. لا أعلم ماذا يظنني، يقول إنني بصلة عادية وأبقيه منشغلاً بتقشير طبقاتها".

قال مونتاغ: "أميل إلى الاعتقاد بأنك تحتاجين إلى طبيب نفساني".

- "أنت لا تعني ذلك".

استنشق نفساً وزفرة وقال بعد لأي: "كلا، لا أعني ذلك".

- "الطبيب النفساني يريد أنْ يعرف لماذا أخرج وأتجوّل في الأحراج وأراقب الطيور وأجمع فراشات. سأُريك مجموعتي يوماً ما".

- "جيد".

- "يريدون أن يعرفوا ماذا أفعل بكل وقتي. أقول لهم إنني أجلس في بعض الأحيان وأفكر فقط. لكنني لا أقول لهم بماذا أفكر. يحتارون معي. أقول لهم أحياناً إنني أحب أن أُحيلَ رأسي إلى الوراء هكذا لأترك قطرات المطر تسقط في فمي طعمُها كالنبيذ تماماً. هل جرّبتها يوماً؟".

- "كلا، أنا...".

- "لقد سامحتني، أليس كذلك؟".

فكّر في الأمر وقال: "نعم. نعم لقد سامحتُك، الربّ وحده يعلم لماذا، أنتِ غريبةُ الأطوار. أنتِ مثيرةٌ للغضب. مسامحتُك سهلة جداً. تقولين إنَّ عمرك سبع عشرة سنة؟".

- "حسناً... في الشهر القادم".

- "يا للغرابة، يا للعجب. ستبلغ زوجتي عامها الثلاثين ومع ذلك تبدين أنتِ أكبر كثيراً في بعض الأحيان. لا أستطيع استيعاب ذلك".

- "أنتَ نفسَك غريبُ الأطوار يا سيد مونتاغ. أحياناً أنسى حتى أنك إطفائي. الآن هل تسمح لي بأن أُغضبك من جديد".

- "تفضلي".

- "كيف بدأ الأمر؟ كيف تورّطت فيه؟ كيف اخترت عملك وكيف حدث أنْ فكّرتَ في قبول الوظيفة التي تشغلها. أنت لستَ كالآخرين. لقد رأيتُ بعضاً منهم. أنا أعرف. عندما أتكلم تنظر أنتَ إليّ. وعندما قلتُ شيئاً عن القمر نظرت أنت إلى القمر ليلة أمس. الآخرون لا يفعلون ذلك أبداً. الآخرون يبتعدون ويتركونني

أتكلم أو يهددونني. لم يعد لدي أي إنسان أي وقت لأي إنسان آخر، أنت واحد من القلائل الذين يتحمّلونني. لهذا السبب أظن أن من المستغرب جداً أن تكون إطفائياً. لا يبدو ذلك ملائماً لك بشكل ما".

أحسّ بجسمه ينشطر إلى سخونة وبرودة، ليونة وصلابة، إلى ارتجاف ولا ارتجاف. راح النصفان ينطحنان أحدُهما على الآخر.

قال: "من الأفضل أن تُسرعي للحاق بموعدك".

ابتعدت مسرعةً وتركته واقفاً هناك تحت المطر. لم يتحرك إلا بعد زمن طويل.

وفيما هو يسير أمالَ رأسه ببطء شديد إلى الخلف تحت المطر للحظات قليلة فقط، وفتح فمه...

نام الكلب الميكانيكي لكنه لم يكن نائماً، كان عائشاً لكنه لم يعش في وجاره المدندن بنعومة، المهتز بنعومة، المُضاء بنعومة في الزاوية الخلفية الداكنة لمركز الإطفاء. كان الضوءُ الخافت للساعة الأولى بعد منتصف الليل، ضوء القمر المتسرب عبر إطار نافذة السقف الكبيرة، يلامس هذا الموضع وذاك من النحاسي الأصفر والأحمر والفولاذ لجسم الحيوان الآلي المرتجف بخفّة. ترجرج الضوء على قطع من الزجاج الزمردي وشعيرات دقيقة حساسة في منخري النايلون المشدودَيْن للحيوان المرتجف بخفة، بخفة، وقوائمه الثماني ملتفة تحته في قعدة عنكبوتية على كفوف مبطّنة بالمطاط.

هبط مونتاغ منزلقاً على العمود النحاسي. توجه إلى الخارج ليلقي

نظرة على المدينة بعد أن اختفت الغيوم تماماً. أشعل سيجارة ثم رجع وانحنى لينظر إلى الكلب. كان شبيهاً بنحلة ضخمة عادت إلى مأواها من حقل يمتلئ عسله بوحشية مسمومة، بجنون وكوابيس، وجسمُها مغطى بذلك الرحيق الكثيف لتنام الآن كي يخرج الشرُّ من داخل نفسها.

"هالو" همس مونتاغ وهو مسحورٌ كعادته بهذا الحيوان الميت، هذا الحيوان الحيّ.

في الليل عندما تكون الأمور بطيئة، وهذا ما يحدث كل ليلة، اعتاد الرجال أن يهبطوا على العمود النحاسي ليعيروا مجموعات التشغيل الرقمية لجهاز الشمّ لدى الكلب وليطلقوا في ممر المركز جرذاناً وفي بعض الأحيان دجاجات أو قططاً ينبغي إغراقُها بأية حال. ثم يدخلون في مراهنات على الحيوانات التي سيقبض عليها الكلب أولاً. تُطلق الحيوانات وتكتمِلُ اللعبة بعد ثلاث ثوان. فالحيوان الذي يُقبض عليه في وسط الممر، أكان جرذاً أو هراً أو دجاجة، يثبّت بين كفّين قابضَيْن بينما تنغرز فيه إبرة فولاذية مجوّفة طولها أربعة إنشات ممتدة من خطم الكلب لتحقنه بجرعات شديدة التركيز من المورفين أو البروكايين وليُلقى بعد ذلك مباشرةً في محرقة النفايات. ثم تبدأ لعبة جديدة.

كان مونتاغ يبقى في الطابق العلوي في معظم الليالي التي كانت هذه الألعاب تُمارَس فيها. وقد سبق له مرة قبل سنتيَن أن دخل في رهان مع أمهرهم فخسر أجرَ أسبوع كامل وواجهته ميلدرد بغضب مجنون عبّر عن نفسه ببروز أوردتها وظهور بقع على بشرتها. لكنه

يبقى في فراشه خلال الليل في هذه الأيام ووجهه نحو الحائط يستمع إلى القهقهات الآتية من تحت والخمش الوتير لأقدام الجرذان الراكضة والعياء الكمنجاتي للفئران وإلى الصمت المطبق المتنقل للكلب الواثب كعثة في نور ساطع ليعثر على ضحيته ويمسك بها ويغرز الإبرة فيها قبل أن يعود إلى وجاره ليموت فيه وكأن زراً قد أُدير.

لمس مونتاغ الخطم.

همهم الكلب.

قفز مونتاغ إلى الخلف.

نهض الكلب في وجاره نصف وقفة ونظر إليه وضوء نيون أخضر - أزرق يلتمع في مصباحي عينيه اللتين استيقظتا فجأة. همهم مرة ثانية مطلقاً خليطاً عجيباً من الأصوات الخادشة كأزيز كهربائي وبقبقة مقلاة وسحج معدن وطقطقة دولاب مسنَّن بان عليه الصدأ وعتقته الريبة.

قال مونتاغ وقلبه يخفق بقوة: "لا، لا يا ولد".

رأى الإبرة الفضية تمتد مسافة إنش في الهواء ثم تنسحب لتعود وتمتد ثم تنسحب. ظلت الهمهمة تتردد داخل الحيوان المحدِّق فيه.

تراجع مونتاغ. خطا الكلب خطوة خارج وجاره.

أمسك العمود النحاسي بإحدى يديه. تجاوب العمود وانسلّ صاعداً إلى أعلى بهدوء حاملاً معه مونتاغ عبر فتحة السقف ابتعد عن العمود وسار على سطح الطابق الأعلى ذي الإنارة الضعيفة. كان يرتجف وأصبح لونُ وجهه أخضر - أبيض. في الطابق السفلي أرخى الكلبُ

جسمه من جديد على قوائمه الثماني الشبيهة بأرجل حشرة إلى درجة لا تصدّق، وعاد ينغّم لنفسه وقد حلّ السلام في عينيه متعددتي الطبقات.

توقف مونتاغ على حافة فتحة النزول ليترك الخوف يبارحه. كان خلفه في الزاوية أربعة رجال جالسين حول طاولة للعب الورق تحت مصباح ذي مظلة خضراء. نظروا إليه لبرهة قصيرة لكنهم لم يقولوا شيئاً. وحده الرجل مرتدي قبعة الكابتن وعليها شعار طائر الفينيق وفي يده النحيلة أوراق لعبة استسلم لفضوله في آخر الأمر وتكلم عبر الغرفة الطويلة.

- "مونتاغ...؟".

- "إنه لا يحبني"، قال مونتاغ.

تمعن الكابتن في أوراقه وقال: "ماذا، الكلب؟ دعك من ذلك. إنه لا يحب ولا يكره. إنه يؤدي وظيفته فقط، الأمر شبيه بدرس في علم المقذوفات له مسار نقرره نحن له وهو يتبع هذا المسار. إنه يستهدف نفسه، يؤوي نفسه ويوقف نفسَه، إنه مجرد أسلاك نحاسية وبطاريات تخزين وكهرباء".

بلغ مونتاغ ريقه وقال: "من الممكن تعيير حاسباته على أي مجموعة تشغيل. هذه الكمية من الأحماض الأمينية، هذه الكمية من الكبريت، هذه الكمية من دهن الزبدة والمادة القلوية. أليس ذلك صحيحاً؟".

- "نحن نعرف كل ذلك".

- "إن جميع تلك المعادلات والنسب المئوية الكيميائية الخاصة بنا كلنا الموجودين في هذا المركز مسجلة في الملف الرئيسي في الطابق

السفلي. وسيكون من السهل على شخص ما أنْ يركّب مجموعة تشغيل جزئية في ذاكرة الكلب، ربما بالقليل من الأحماض الأمينية. ومن شأن ذلك أن يفسر ما فعله الحيوان للتو. لقد أبدى رد فعل تجاهي".

- "اللعنة"، قال الكابتن.

- "كان منزعجاً. لم يكن غاضباً تماماً. لقد اكتفى شخص ما بإدخال قدر كاف من الذاكرة ليهمهم عندما لمسته".

- "مَن الشخص الذي مِن شأنه أن يفعل شيئاً كهذا؟"، قال الكابتن متسائلاً وأضاف: "ليس لك أي عدو هنا يا غاي".

- "ليس لي عدو أعرفه".

- "سنطلب إلى الفنيين العاملين لدينا أن يفحصوا الكلب غداً".

عقّب مونتاغ قائلاً: "هذه ليست أول مرة يهددني فيها. لقد حدث الأمر ذاته مرتيْن في الشهر الماضي".

- "سنسوّي المسألة. لا تقلق".

لكن مونتاغ لم يتحرك من مكانه ولبث واقفاً يفكر في شبك فتحة التهوية في ردهة منزله وما يختبئ خلفه. لو عرف أحد هنا في مركز الإطفاء بأمر جهاز التهوية أليس من الممكن أن يُبلغ الكلب...؟

سار الكابتن باتجاه فتحة النزول ورمق مونتاغ بنظرة استفهام.

قال مونتاغ: "كنتُ أتساءل فقط. ما الذي يفكر فيه الكلب الجاثم في الأسفل أثناء الليل؟ هل تدبّ فيه الحياة على حسابنا؟ يصيبني ذلك بالقشعريرة".

- "إنه لا يفكر في أي شيء لا نريد له أن يفكر فيه".

قال مونتاغ بهدوء: "هذا محزن. كل ما برمجناه عليه هو الصيد والتقصي والقتل. كم هو مؤسف أن يكونَ هذا كلّ سيعرفه يوماً".

شخر بيتي برفق وقال: "لِمَ التذمّر؟ إنه قطعة رائعة من الإنتاج الحرفي. إنه بندقية صيد ممتازة تستطيع أن تنال هدفها بنفسها وأن تضمن إصابة المرمى في صميمه كل مرة".

قال مونتاغ: "لهذا السبب لا أريد أن أصبحَ ضحيته التالية".

– "لماذا؟ هل يؤنّبك ضميرك على أمر ما؟".

نظر مونتاغ إلى أعلى بسرعة.

وقف بيتي هناك يسرد إليه نظرة ثابتة بعينيه فيما انفتح فمه وبدأ يضحك بصوت خافت جداً.

يوم، يومان، ثلاثة أيام، أربعة أيام، خمسة أيام، ستّة أيام، سبعة أيام. وفي كلٍّ من سبع مراتٍ خرجَ فيها من المنزل كانت كلاريس موجودة هناك في مكان ما من العالم. رآها مرة تهزّ شجرة جوز، ورآها مرةً أخرى جالسةً على العشب تحيك كنزة زرقاء ووجدَ في ثلاثِ مراتٍ أو أربع باقةَ زهورٍ خريفيةٍ على شرفةِ منزلِه أو حفنة ثمار كستناء في كيس صغير أو بعض أوراق الخريف المشكوكة بعناية على ورقة بيضاء مثبتة على بابه بدبوس كبس. كانت كلاريس تمشي معه كل يوم حتى زاوية الطريق. كان أحد الأيام ممطراً تلاه يوم مشرق فيوم عصفت فيه الرياح بقوة تبعه يوم صحو وهدوء. وكان اليوم الذي تلا اليوم الهادئ حاراً كأتون صيفي، ومع أفول بعد الظهر كان وجه كلاريس بكامله محروقاً بأشعة الشمس.

سألها في إحدى المرات عند مدخل قطار الأنفاق: "ما سبب شعوري بأنني أعرفك منذ سنوات طويلة؟".

أجابت: "لأنني أميل إليك ولا أريد منك أي شيء، ولأنّ واحدنا يعرف الآخر".

- "تُشعرينني بأنني كبير جداً في السن وتعطينني إحساساً قوياً بالأبوة".

قالت: "الآن دورُك أنت لتفسّر. لماذا ليست لك بنات مثلي إن كنت تحب الأطفال إلى هذه الدرجة؟".

- "لا أعلم".

- "أنت تمزح".

- "أقصد...". صمت وهزّ رأسه وأضاف: "حسناً، إن زوجتي، إنها... لم ترغب أبداً في إنجاب أطفال".

توقّفت الفتاة عن الابتسام وقالت: "أنا أسفة. لقد ظننتُ فعلاً أنك تتسلى على حسابي. أنا حمقاء".

قال: "لا، لا. كان ذلك سؤالاً جيداً. لقد مضى زمن طويل منذ أن أهتم أحد إلى درجة كافية ليسأل. سؤال جيد".

- "لنتكلم عن موضوع آخر، هل شممت يوماً أوراق أشجار عتيقة؟ أليست لها رائحة القرفة؟ هنا، شم".

- "نعم في الواقع، رائحتها تشبه عبير القرفة بصورة ما".

نظرت إليه بعينيْها الصافيتيْن السوداويْن وقالت: "أنتَ تبدو مصدوماً دائماً".

- "كل ما في الأمر أنني لم أحظَ بوقت...".
- "هل نظرت إلى اللوحات الإعلانية الممددة كما قلت لك؟".
- "أظن أنني فعلت، نعم". كان عليه أن يضحك.
- "ضحكتُك الآن أغرب كثيراً مما كانت في السابق".
- "هل هذا صحيح؟".
- "إنها مرتاحة أكثر بما لا يُقاس".

شعر باطمئنان وراحة. سألها: "لماذا لست في المدرسة؟ أراك كل يوم تتجولين هنا وهناك".

- "آه، إنهم لا يفتقدونني". أضافت: "يقولون إنني غير اجتماعية. أنا لا أخالط الناس. الأمر غريب جداً. أنا اجتماعية جداً في الواقع. الأمر كله يتوقف على ما تعنيه بكلمة اجتماعية. أن أكون اجتماعية يعني بالنسبة إلي أن أتكلم معك عن أمور من هذا النوع". خشخشت بحفنة من ثمار الكستناء التي سقطت من شجرتها في الفناء الأمامي وأضافت تقول: "أو الكلام عن مدى غرابة العالم. من الجميل الاختلاط بالناس. لكنني لا أظن أن من الخصال الاجتماعية أن تجمع عدداً من الناس ثم لا تسمح لهم بالكلام. ألا توافقني؟ ساعة من درس التلفزيون، ساعة من كرة السلة أو لعبة البيسبول أو الجري، وساعة أخرى من تاريخ النسخ أو رسم اللوحات، ومزيد من الرياضة. لكنْ هل أننا لا نطرح أسئلة أبداً، أو معظمنا على الأقل. ما يفعلونه هو أن يمطروك بالأجوبة بنغ، بنغ، بنغ ونحن نجلس هناك أربع ساعات أخرى أمام المعلم - الفيلم. هذا ليس سلوكاً اجتماعياً على

الإطلاق بالنسبة إليّ. هذه قموع كثيرة ومياه كثيرة تُصَبّ في فتحتها وتخرج من أسفلها وهم يقولون لنا إن هذا نبيذ وهو ليس كذلك. إنهم ينهكوننا تماماً بحيث لا نستطيع أن نفعل أي شيء في المساء إلى الذهاب إلى الفراش أو التوجه إلى حديقة الملاهي للتنمر على الناس أو كسر زجاج النوافذ في دار تهشيم النوافذ أو تحطيم السيارات في دار تكسير السيارات بواسطة الكرة الفولاذية الضخمة. أو نذهب في السيارات ونتسابق في الشوارع لترى كم تستطيع سيارتُك الاقتراب من أعمدة الإنارة وممارسة لعبة تحدي الاصطدام لتعرف من هو الجبان ولعبة إسقاط طاسات العجلات. أظن أنني كل ما يقولون عني، لا بأس في ذلك. ليس لي أي أصدقاء. ومن المفترض أن يُثبِت ذلك أنني غير طبيعية. لكن جميع من أعرفهم إما يتصايحون أو يتراقصون بجموح أو يضرب بعضهم بعضاً. هل تلاحظ كيف يؤذي الناس بعضهم بعضاً في هذه الأيام؟".

– "تتكلمين وكأنك طاعنة في السن".

– "أحياناً أكون عتيقة، أخاف الأطفال من عمري. يقتل بعضهم بعضاً. هل كان الأمر هكذا دائماً؟ عمي يقول لا. لقد قُتل ستة من أصدقائي بالرصاص في السنة الماضية وحدها. ومات عشرة آخرون في حوادث سيارات. أخافهم وهم لا يحبونني لأنني أخاف. يقول عمي إن جده كان يتذكر الوقت الذي لم يكن الأطفال يقتلون فيه بعضهم بعضاً. لكن ذلك كان قبل زمن طويل عندما كانت الأمور مختلفة. كانوا يؤمنون بالمسؤولية كما يقول عمي، يجب أن تعلم أنني

إنسانة مسؤولة. قبل سنوات ضربت عندما كنت في حاجة إلى أنْ أُعاقب. وأنا أقوم بكل واجبات التسوق وأنظف المنزل بيدي".

تابعت قائلة: "لكنني أحب أن أراقب الناس أكثر من أي شيء آخر. في بعض الأحيان أركب قطار الأنفاق وأنظر إلى الناس وأُصغي إلى كلامهم. كل ما أريده هو أن أتبين من يكونون وماذا يريدون وإلى أين يذهبون. أتوجه أحياناً حتى إلى حدائق الملاهي، كما أركب في السيارات النفاثة عندما تتسابق عند حافة المدينة في منتصف الليل ولا تبالي الشرطة ما دامت السيارات مؤمَّنة، وما دام لدى الكل بوليصة تأمين بعشرة آلاف يكون الجميع راضين. في بعض الأحيان أنسلّ هنا وهناك وأصيخ السمع في قطارات الأنفاق. أو أُصغي إلى ما يقال في مقاهي المشروبات الغازية، وهل تعلم أمراً ما؟".

– "ماذا؟".

– "الناس لا يتكلمون عن أي شيء".

– "آه، لا بد لهم من أن يفعلوا!".

– "كلا، ليس أي شيء. يذكرون في الغالب ماركات الكثير من السيارات أو الملابس أو أسماء المسابح ويقولون ما أروعها! لكنهم يقولون جميعاً الأمور نفسَها ولا يقول أحد أمراً مختلفاً عما يقوله أي شخص آخر، وفي معظم الأحيان تكون صناديق النكات في المقاهي مفتوحة وتكرر النكات ذاتها في الغالب. أو يكون الجدار الموسيقي مُضاءً تتراكض عليه صعوداً ونزولاً جميع النماذج الملونة، لكنها جميعاً ليست إلا ألواناً وصوراً تجريدية. وفي المتاحف، هل زرت

أحدها يوماً؟ كل شيء تجريدي. هذا كل ما يوجد فيها الآن. يقول عمي إن الوضع كان مختلفاً في ما مضى. قبل زمن طويل كانت الصور تقول شيئاً ما في بعض الأحيان، أو حتى تُظهر أناساً".

- "عمّك قال، عمك قال. لا بد وأنْ يكون عمك شخصاً مميزاً".

- "إنه مميز مميز بالتأكيد. حسناً، علي الذهاب الآن. إلى اللقاء يا سيد مونتاغ".

- "إلى اللقاء".

- "إلى اللقاء...".

يوم، يومان، ثلاثة أيام، أربعة أيام، خمسة أيام، ستة أيام، سبعة أيام، مركز الإطفاء.

- "مونتاغ، أنت تتسلق هذا العمود كعصفور على شجرة".

اليوم الثالث.

- "مونتاغ. ثمة شيء مضحك سمعته هذا الصباح، إطفائي في مدينة سياتل برمج الكلب الميكانيكي على مهاجمة التركيبة الكيميائية الخاصة به ثم أطلق له العنان. كيف تسمي هذا النوع من الانتحار؟".

خمسة أيام، ستة أيام، سبعة أيام.

بعد ذلك اختفت كلاريس، لم يعلم ما كان خطبه بعد ظهر ذلك اليوم، لكن الأمر تعلق بعدم مشاهدتها في مكان ما من العالم. كان المرجُ خالياً، كانت الأشجار خالية. في بادئ الأمر، عندما ما لم يكن يعرف حتى أنه يفتقدها أو يبحث عنها، كانت الحقيقة أن خلجات قلق غامضة راحت تتفاعل داخله عند وصوله إلى محطة قطار الأنفاق.

كان هناك خطب ما، لقد تشوش روتينه صحيح إنه روتين بسيط تأسس خلال أيام قليلة قصيرة، ومع ذلك...؟ كاد يعود أدراجه ليمشي الدرب نفسه مرة أخرى لإعطائها وقتاً كي تظهر من جديد. كان واثقاً من أن كل شيء سيكون على ما يرام إذا جرّب السير على الدرب نفسه. لكن الوقت كان متأخراً ووضع وصول القطار حدّاً لخطته.

حفيف أوراق اللعب، حركة الأيدي وطرْفُ أجفان العيون وأجاشةُ صوت الساعة الناطقة في سقف مركز الإطفاء: "الساعة الواحدة وخمس وثلاثون دقيقة، صباح الاثنين الرابع من شهر تموز... الواحدة وست وثلاثون دقيقة... الواحدة وسبع وثلاثون دقيقة صباحاً...".

وقعُ أوراق اللعب على سطح الطاولة المُدهِن. وصلت كل هذه الأصوات إلى مونتاغ خلف عينيه المغمضتين، خلف الحاجز الذي شيّده لتوه. كان في وسعه الإحساس بما يملأ مركز الإطفاء من بهرجة وبريق وسكون، ألوان النحاس، ألوان العملات المعدنية، ألوان الذهب والفضة.

كان الرجال المتوارون على الجانب الآخر من الطاولة يتنهدون فوق أوراقهم، كانوا ينتظرون "... الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعون...".

أعلنت الساعة الناطقة بصوت كالنحيب التوقيت البارد لصباح بارد في سنة أشدّ برداً.

– "ما المشكلة يا مونتاغ؟".

فتح مونتاغ عينيه.

أعلن جهاز راديو موضوع في مكان ما بصوت رتيب: "... من المُحتمل أن تعلن الحرب في أي ساعة. وهذا البلد جاهز للدفاع عن...".

ارتجّ مركز الإطفاء عندما عبر سرب كبير من الطائرات النفاثة سماء الصباح المظلم وهي تصفر نغمة صوتية واحدة.

طَرف مونتاغ بعينيه، كان بيتي ينظر إليه وكأنه تمثال في متحف. قد ينهض بيتي في أي لحظة ويتجول في مكانه وهو يتلمس ويتقصى ذنبه وإحساسه بذاته. ذنب؟ أي ذنب هو ذاك؟

- "دورك في اللعب يا مونتاغ".

نظر مونتاغ إلى هؤلاء الرجال الذين كانت وجوههم مسفوعة بشمس ألف حريق حقيقي وعشرة آلاف حريق خيالي والذين كان عملهم يوهّج خدودهم ويلهب عيونهم هؤلاء الرجال الذين كانوا ينظرون باستمرار إلى ألسنة لهب ولاّعاتهم البلاتينية وهم يشعلون غلايينهم السوداء المتوقدة أبدياً. هم وشعرهم الفحمي وحواجبهم المصطبغة بلون السُخام ووجناتهم المتسخة بالرماد المائل إلى الزرقة حيث أكملوا حلاقتهم بعناية، لكنّ تراثهم كان بادياً للعيان. بدأ مونتاغ حركته وفمه مفتوح. هل سبق له أن رأى إطفائياً ليس له شعر أسود وحواجب سوداء ووجه ناري ويبدو غير حليق وإن يكن وجهه حليقاً وله لون الفولاذ الأزرق؟ كان جميع هؤلاء الرجال انعكاساً مرآتياً لشخصه! هل كان اختيار الإطفائيين يتم بناءً على مظهرهم

بالإضافة إلى ميولهم الشريرة؟ لون الجمر المنطفئ والرماد يحيط بهم ورائحة الحريق المتواصل تنتشر من غلايينهم. الكابتن بيتي هناك، ها هو ينهض وسط غيمة داكنة من دخان الغليون.

فتح بيتي علبة تبغ أخرى وجعّد في قبضته غلاف السيلوفان ورماه في نار ناشطة.

نظر مونتاغ إلى أوراق اللعب في يديه. قال: "أنا... أنا كنتُ أفكر. كنت أفكر في حريق الأسبوع الماضي. في الرجل الذي تدبرنا أمر مكتبته، ماذا جرى له؟".

- "لقد اقتادوه وهو يصرخ إلى مستشفى الأمراض العصبية".

- "لم يكن مجنوناً".

رتّب بيتي أوراقه بهدوء وقال: "أيّ رجل يكون مجنوناً إذا ظن أن في إمكانه خداع الحكومة وخداعنا نحن".

قال مونتاغ: "حاولتُ فقط أن أتخيّل... أعني كيف سنشعر إذا جاء إطفائيون لإحراق بيوتنا وكتبنا".

- "ليست لدينا أية كتب".

- "لكن لو كان لدينا بعض منها".

- "هل لديك أي منها؟". رفّت عينا بيتي ببطء.

- "لا". نظر مونتاغ وراءهم إلى الجدار الذي عُلّقت عليه القوائم المطبوعة لملايين الكتب الممنوعة؛ كتب اشتعلت أسماؤها في ألسنة النار فاحترقت السنون تحت فأسه وخرطومه الذي ما كان يرش الماء بل الكيروسين.

"لا". لكن ريحاً باردة هبت في رأسه وأطارت بنعومة شبك فتحة التهوية في منزله وبردت وجهه. ومن جديد رأى نفسه في حديقة خضراء يتحدث إلى رجل عجوز، عجوز طاعن في السنّ، وكانت الريح الآتية من الحديقة باردة أيضاً.

تردد مونتاغ. سأل: "ماذا... هل كان الأمر هكذا دائماً؟ مركز الإطفاء، عملُنا؟ أقصد – حسناً – في زمن غابر...".

قال بيتي: "زمن غابر! ما هذا الكلام؟".

"أحمق"، فكّر مونتاغ في نفسه. سوف تفضح نفسك. في آخر حريق كان هناك كتاب قصص جنيات لمح فيه سطراً واحداً. قال: "أقصد في الزمن القديم قبل أن تُجعل المنازل مضادة للحريق..". فجأةً بدا أنّ صوتاً أكثر شباباً بما لا يُقاس، كان يتكلم نيابةً عنه، فتح فمه وكانت كلاريس ماكليلان تقول: "ألم يكن الإطفائيون يمنعون الحرائق بدلاً من تأجيجها وإشعالها؟".

– "هذا كثير!". أخرَج كلّ من ستونمان وبلاك كتاب القواعد الخاص به الذي كان يتضمن أيضاً تواريخ موجزة لإطفائيي أميركا ووضعه حيث يستطيع مونتاغ المطلع على محتواه من زمن طويل أن يقرأ:

التأسيس: عام ١٧٩٠ لإحراق الكتب المتأثرة بالإنكليز في المستعمرات. الإطفائي الأول: بنجامين فرانكلين.

القاعدة الأولى ١ – استجب للإنذار بسرعة.

٢ – أشعل النار بسرعة.

٣ – أحرق كل شيء.

٤ – عُد إلى مركز الإطفاء فوراً وأثبت وجودك هناك.

٥ – ابقَ مستعداً لإنذارات أخرى.

كانوا جميعاً يراقبون مونتاغ. لم يتحرك.

دقّ جرس الإنذار.

رفس الجرس المعلّق في السقف نفسه مائتي مرة. فجأةً كانت هناك أربعة مقاعد فارغة. تساقطت أوراق اللعب كزوبعة ثلجية. ارتجف العمود النحاسي. ذهب الرجال.

جلس مونتاغ في مقعده. سعل التنين البرتقالي في الأسفل إشارةً إلى أن الحياة دبّت فيه.

انزلق مونتاغ على العمود هابطاً كرجل في منام.

قفز الكلب الميكانيكي في وجاره وعيناه تطلقان لهباً أخضر.

– "مونتاغ، لقد نسيت خوذتك".

تناولها من حيث كانت معلقة على الجدار خلفه، ركض، قفز وانطلقوا ورياح الليل تعصف فوق صرخة صفارة الإنذار وضجيج رعدهم المعدني!

كان منزلاً متداعياً مؤلفاً من ثلاثة طوابق في الجزء القديم من المدينة، لا يقل عمره عن مائة سنة يوماً واحداً، لكنه طلي كجميع المنازل بطبقة بلاستيكية رقيقة مضادة للحريق قبل سنين عديدة. وبدا أن هذه الطبقة الواقية هي الشيء الوحيد الذي يُبقي المنزل واقفاً تحت السماء.

– "ها قد وصلنا!".

توقفت سيارة الإطفاء بقوة وتسمّرت في مكانها. جرى بيتي

وستونمان وبلاك على الرصيف وبدوا فجأةً منفرين وبدينين في معاطفهم المشمعة المتهدلة المضادة للحريق. تبعهم مونتاغ.

اقتحموا الباب الأمامي للمنزل وقبضوا على امرأة بالرغم من أنها لم تكن تجري، لم تكن تحاول الهرب. كانت واقفة هناك ببساطة تتمايل من جانب إلى آخر وعيناها مركزتان على لاشيئيةٍ في الجدار وكأنها تلقت ضربة بالغة الشدة على رأسها. كان لسانها يتحرك داخل فمها وبدا أنّ عينيها تحاولان تذكر شيء ما، ثم تذكّرتاه وعاد لسانها إلى التحرك:

- "قم بدور الرجل يا سيد ريدلي، وببركة الله سنضيء اليوم في إنكلترا شمعة أثق بها لن تُطفأ أبداً".

قال بيتي: "كفى هذا الكلام! أين هي؟".

صفع وجهها بموضوعية مدهشة وكرر السؤال. ركّزت المرأة العجوز ناظريها على بيتي وقالت: "أنت تعلم أين هي وإلا لما كنتم هنا".

رفع ستونمان بطاقة التحذير الهاتفية وعلى جانبها الخلفي الشكوى الموقعة بالنسخ التلفوني.

- "لدي سبب للاشتباه بالعلية، رقم ١١ شارع إلم، المدينة E.B".

- "ستكون هذه جارتي السيدة بليك"، قالت المرأة بعد أن قرأتْ الحرفَيْن الأولين للاسم.

- "حسناً يا رجال، لنذهب ونصادرها".

ما هي إلا هُنيهة حتى كانوا غارقين في ظلمة لها رائحة العفن يدفعون ببلطاتهم القصيرة أبواباً لم تكن موصدة بأي حال وهم يتعثرون كصبية يمزحون ويصيحون. "هاي" صرخ مونتاغ عندما انصبّ عليه دفق من الكتب وهو يصعد مرتجفاً الدرج شديد الانحدار. يا للإزعاج! في السابق كانت المسألة دائماً مثل إطفاء شمعة. كانت الشرطة تدخل أولاً وتُغلق فم الضحية بشريط لاصق تم تسوقها إلى إحدى سياراتها الصغير اللامعة فيجد الإطفائيون منزلاً فارغاً عندما يصلون. وهكذا لا تؤذي أنت كإطفائي أي إنسان، بل تؤذي أشياء! وبما أن الأشياء لا يمكن أن تتألم في الواقع، أي أنها لا تتمتع بأي إحساس ولا تصرخ ولا تتذمر كما قد تبدأ هذه المرأة في الصياح والشكوى، لا يكون هناك ما يؤرّق ضميرك في ما بعد. كنت تنظف المكان فقط. تقوم بعمل ناطور المبنى من حيث الأساس. كل شيء إلى مكانه الصحيح. هاتوا الكيروسين بسرعة! من معه عود كبريت؟

لكنّ أحداً ما أخطأ الآن، أخطأ في هذه الليلة. هذه المرأة تُفسِد الطقس المعهود. كان الرجال يُحدثون جلبة كبيرة، يضحكون، ينكّتون لتغطية صمت الاتهام الرهيب الكامن تحت سلوكهم. جعلت المرأة الغرف الفارغة تعصف بصوت الاتهام وتُمطر غباراً ناعماً من الإثم استنشقوه في أنوفهم وهم يعبثون في المكان. لم يكن ذلك رياضةً ولم يكن صحيحاً. شعر مونتاغ بانزعاج مفرط، لا يجوز أنْ تكون المرأة هنا وتشاهد كل شيء.

انهالت الكتب كقنابل على كتفيه وذراعيه ووجهه الناظر إلى أعلى.

اشتعل كتاب في ما يشبه امتثالاً للأوامر؛ اشتعل كحمامة بيضاء في يديه ترفرف بجناحيهما. كانت إحدى الصفحات معلقة ووجهها مفتوح في النور الخافت المتذبذب، كانت مثل ريشة ثلجية اللون رُسمت الكلمات عليها بأناقة، وفي خضم العجلة والحماس لم يحظ مونتاغ إلا بلحظة واحدة لقراءة سطر. لكنّ هذا السطر انطبع في عقله في الدقيقة التالية وكأن حروفه خُتمت هناك بفولاذ متوهج. "نام الزمن في ضوء شمس الأصيل". رمى الكتاب على الأرض وسقط فوراً كتاب آخر بين ذراعيه.

- "مونتاغ، اصعدْ إلى هنا".

انغلقت يد مونتاغ وكأنها فم وعصرت الكتاب بحماس وامتلأ صدره بجنون اللامبالاة. كان الرجال فوقه يرمون في الهواء المغبرّ رزماً من المجلات. كانت هذه تتساقط على الأرض كطيور مذبوحة، فيما وقفت المرأة في الطابق تحتهم كفتاة صغيرة بين الجثث.

لم يفعل مونتاغ أي شيء. يده فعلت كل شيء. يده التي تمتلك دماغاً خاصاً بها وضميراً وفضولاً في كل إصبع مرتجفة. تحولت هذه اليد الآن إلى سارقة. اقحمت الكتاب الآن تحت ذراعه، ضغط عليه بقوة تحت إبطه المتعرّق وجرى خارجاً فارغ اليدين ومتباهياً كساحر! انظروا هنا! أنا بريء! انظروا!

حملق مخضوضاً في اليد البيضاء. مدّها بعيداً عنه وكأنه مصاب ببعد البصر. قرّبها إلى وجهه وكأنه أعمى.

- "مونتاغ!".

انتفض في مكانه.

- "لا تتسمر هناك يا غبي!".

كانت الكتب مكدسة كأكوام كبيرة من الأسماك المتروكة لتجفّ. كان الرجال يرقصون ويتعثرون ويسقطون فوقها. التحقت العناوين في عيونهم، سقطت، اختفت.

- "كيروسين".

ضخّوا السائل البارد من الأوعية المربوطة على ظهورهم والمرقمة ٤٥١. غمروا كلّ كتاب وأغرقوا الغرف بالكيروسين.

هُرِعوا نازلين إلى أسفل ومونتاغ يتبعهم مترنحاً في أبخرة الكيروسين.

- "تعالي يا امرأة!".

كانت المرأة جاثية على ركبتيها بين الكتب تتلمس الأغلفة الجلدية والكرتونية المبللة وتقرأ العناوين المذهبة بأناملها وعيناها ترمقان مونتاغ بنظرات اتهام.

قالت: "لن تتمكنوا أبداً من أخذ كتبي".

قال بيتي: "أنت تعرفين القانون. أين هو حسن إدراكك؟ لا يتوافق أي من هذه الكتب مع الكتب الأخرى. لقد عشتِ منغلقة على نفسك لسنوات في هذا المكان الشبيه ببرج بابل حقيقي لعين، تخلصي من هذا الوهم! إن أشخاص هذه الكتب لم يعيشوا أبداً. تعالي الآن".

هزت رأسها.

قال بيتي: "المنزل كلّه سيحترق".

سار الرجال متثاقلين إلى الباب. نظروا خلفهم إلى مونتاغ الواقف قرب المرأة.

سأل محتجاً: "أنتم لن تتركوها هنا؟".

- "إنها ترفض الرحيل".

- "إذاً أجبروها على الرحيل".

رفع بيتي يده التي كانت الولاعة متوارية فيها وقال: "حان وقت عودتنا إلى المركز. كما أن هؤلاء المتعصبين يحاولون الانتحار دائماً. هذا نمط مألوف".

وضع مونتاغ يده على مرفق المرأة وقال لها: "في وسعك أن تأتي معي".

أجابت: "كلا، لكنْ شكراً بأية حال".

قال بيتي: "سأعدّ إلى عشرة. واحد، اثنان".

قال مونتاغ: "أرجوك".

قالت المرأة: "اذهبْ أنت".

- "ثلاثة، أربعة".

جذب مونتاغ المرأة قائلاً: "هيا".

أجابت المرأة بهدوء: "أريد البقاء هنا".

- "خمسة، ستة"..

قالت: "تستطيع أن تتوقف عن العد".

فتحت أصابع إحدى يديها قليلاً وكان في راحتها شيء رفيع لا غير.

عود كبريت عادي من المطبخ.

ألهب منظر عود الثقاب أرجل الإطفائيين. فهُرعوا نازلين للخروج من المنزل والابتعاد عنه. لكن الكابتن بيتي المحافظ على رزانته انسحب ببطء عبر الباب الأمامي ووجهه القرمزي يبدو مسعوفاً ولامعاً بفعل ألف حريق والإثارات الليلية. فكّر مونتاغ: "يا إلهي، كم هذا صحيح! الإنذار يأتي دائماً في الليل. لا يأتي أبداً في النهار! هل السبب أن النار تبدو أجمل في الليل؟ تزداد مشهديتها وتكون أكثر جاذبية؟". ظهر الآن قليل من الذعر على وجه بيتي القرمزي وهو واقف في الباب. فركت المرأة عود الثقاب المنفرد في يدها وتصاعدت أبخرة الكيروسين حولها. أحس مونتاغ بالكتاب المخبأ يدقّ على جسمه كما يدقّ قلبه في صدره.

- "ارحل"، قالت المرأة وشعر مونتاغ بنفسه يتراجع ويخرج من الباب ليذهب بعيداً بعيداً، لاحقاً ببيتي على الدرج وعبر المرج حيث امتدّ خط الكيروسين كأثر حلزون شرير.

وقفت المرأة على الشرفة الأمامية التي جاءت إليها لتتفحصهم عيناها بهدوء. كان صمتها إدانة. وقفت المرأة بلا حراك.

حرك بيتي أصابعه ليشعل الكيروسين.

تأخر كثيراً. شهق مونتاغ.

مدت المرأة الواقفة على الشرفة يدها وفي عينيها نظرة ازدراء لهم جميعاً وحكّت عود ثقاب المطبخ على الدرابزين.

خرج الناس راكضين من جميع المنازل في الشارع.

لم يقولوا شيئاً في طريق عودتهم إلى مركز الإطفاء.

لم ينظر أحدهم إلى الآخر. جلس مونتاغ في المقعد الأمامي مع بيتي وبلاك. لم يدخنوا علايينهم حتى. جلسوا هناك ينظرون عبر مقدمة السمندل العظيم فيما التفوا حول زاوية وتابعوا بصمت.

قال مونتاغ في آخر الأمر: "سيد ريدلي".

- "ماذا؟"، سأل بيتي.

- "قالت يا سيد ريدلي. قالت شيئاً جنونياً عندما دخلت من الباب. قالت: العبْ دورَ الرجل. هذا ما قالته يا سيد ريدلي. قالت شيئاً ما، شيئاً، شيئاً ما".

قال بيتي: "سنشعل هذا اليوم ببركة الله شمعة في إنكلترا أثق بأنها لن تنطفئ أبداً"، نظر ستوغان إلى الكابتن مذهولاً مثلما فعل مونتاغ.

فرك بيتي ذقنه وقال: "رجل اسمه لاتيمر قال ذلك لرجل اسمه نيكولاس ريدلي عندما كان الاثنان يُعدمان حرقاً في أوكسفورد في ١٦ تشرين الأول من عام ١٥٥٥ بتهمة الهرطقة".

عاد مونتاغ وستونمان إلى التحديق في الشارع وهو يتحرك تحت عجلات سيارة الإطفاء.

قال بيتي: "أنا مليء بالهواجس والشكوك. هذا ما ينبغي أن يكون عليه معظم قادة الإطفائيين. أنا أفاجئ نفسي في بعض الأحيان. انتبهْ يا ستونمان!".

فرمل ستونمان سيارة الإطفاء.

قال بيتي: "اللعنة! لقد تجاوزت الزاوية التي نلتف عندها للذهاب إلى مركز الإطفاء".

- "من هناك؟".

- "من يمكن أن يكون؟"، قال مونتاغ وهو يستند بجسمه على الباب المغلق في الظلام.

قالت زوجته في آخر الأمر: "حسناً أضِئ النور".

- "لا أريد النور".

- "تعال إلى السرير".

سمعها تتقلب وقد عيل صبرها فيما نوابض السرير تئن.

سألته: "هل أنت سكران؟".

إذاً كانت اليد التي بدأت كل شيء. أحس بيد ثم باليد الأخرى تحرران من معطفه وتتركانه يهوي على الأرض. حمل سرواله وكأنه مدلّى فوق هاوية وتركه يسقط في الظلام. لقد أصيبت يداه بالعدوى التي سرعان ما ستصل إلى ذراعيه. كان في مقدوره الشعور بالسم يصعد عبر رسغيه وإلى مرفقيه وكتفيه. ثم أحس بانتقاله السريع من لوح كتف إلى لوح كتف كشرارة تقفز عبر فتحة.

كانت يداه جائعتين وبدأت عيناه تشعران بالجوع أيضاً كما لو كان عليهما أنْ تنظرا إلى شيء ما، إلى أي شيء، إلى كل شيء.

سألته زوجته: "ماذا تفعل؟".

وازن نفسه في الهواء وهو يمسك الكتاب بين أصابعه الباردة المتصببة عرقاً.

قالت بعد دقيقة: "حسناً، لا تقف فقط هناك في وسط الغرفة".

أصدر صوتاً خافتاً.

سألته: "ماذا؟".

أصدر مزيداً من الأصوات الخافتة. سار بخطى مرتدة نحو السرير وأقحم الكتاب تحت الوسادة الباردة بحركة متكلِّفة. ارتمى في السرير وأفزع زوجته التي صرخت متذمرة. تمدد بعيداً عنها عبر الغرفة على جزيرة شتوية يفصلها بحر فارغ. تحدثت إليه خلال ما بدت فترة طويلة، تحدثت عن هذا وذاك من الأمور، وكان حديثها مجرد كلمات مثل الكلمات التي سمعها مرة في حجرة نوم طفل صغيرة في بيت أحد أصدقائه حيث كان طفل في السنة الثانية من عمره يكوّن مجموعات كلمات ويرطن بألفاظه ويطلق أصواتاً فرحة في الهواء. لكن مونتاغ لم يقل شيئاً، وبعد فترة طويلة، عندما كان لا يصدِر إلا أصواتاً خافتة، شعر بها تنتقل عبر الغرفة آتية إلى سريره.

وقفت فوقه ووضعت يدها على وجهه لتحسّس وجنته. وعلم أن يدها ستكون مبتلة عندما ترفعُها عن وجهه.

نظر إلى ميلدرد في ساعة متأخرة من الليل. كانت مستيقظة. كان لحن ناعم يرقص في الهواء وصدفتها محشوة في أذنها من جديد لتستمع إلى أناس بعيدين في أماكن بعيدة. كانت عيناها واسعتين تحدقان في أعماق السواد المتلبد فوقها في السقف.

ألم تكن هناك نكتة قديمة عن الزوجة كثيرة الثرثرة على الهاتف التي خرج زوجها اليائس مسرعاً إلى أقرب متجر وخابرها ليسألها

عن الطبق الذي أعدته لوجبة العشاء. حسناً، لماذا لم يشترِ لنفسه محطة إذاعة صوتية بسماعة صدفية ليتكلم مع زوجته في ساعة متأخرة من الليل، ليهمهم ويوشوش ويصيح ويصرخ ويزعق؟ لكنْ ماذا يوشوش؟ ماذا يزعق؟ ماذا يسعه أن يقول؟

فجأةً أصبحت غريبة إلى درجة أنه لم يستطع أن يصدق أنه يعرفها أساساً. لقد كان في منزل شخص آخر كما في النكات الأخرى التي يرويها الناس عن السيد النبيل الذي عاد إلى منزله ثملاً في ساعة متأخرة من الليل ففتح الباب الخطأ ودخل إلى الغرفة الخطأ ونام في الفراش نفسه مع شخص غريب ثم استيقظ باكراً في الصباح وذهب إلى العمل دون أن يلاحظ أي منهما ما حدث.

همس قائلاً: "ميللي...؟".

- "ماذا؟".

- "لم أقصد أن أُخيفك. ما أودّ معرفته هو...".

- "إذاً؟".

- "متى التقينا؟ وأين؟".

سألت: "متى التقينا لأي سبب؟".

- "أقصد... أصلاً في البداية".

علم أنها كانت تقطب وجهها في الظلام.

قال موضحاً: "اللقاء الذي جمعنا لأول مرة. أين كان ومتى؟".

- "لنرَ، كان ذلك في...".

توقفت عن الكلام.

قالت: "لا أعرف".

كان يشعر بالبرد. قال: "ألا تستطيعين أن تتذكري؟".

- "لقد مضى زمن طويل جداً".

- "عشر سنوات فقط. هذا كل شيء. عشر سنوات فقط".

- "لا تنفعل. أنا أحاول التركيز". أطلقت ضحكة غريبة بدأت خفيفة ثم راحت تعلو وتعلو. قالت: "من المسلي، من المسلي جداً أن لا يتذكر إنسان متى أو أين التقى زوجه أو زوجته".

كان ممدداً يدلك عينيه وجبينه وخلف عنقه ببطء. وضع يديه فوق عينيه وضغط هناك بثبات كما لو أراد حشر الذاكرة في ذلك المكان. فجأةً أصبحت معرفة المكان الذي التقى فيه ميلدرد أهم من أي أمر في حياته.

- "لا أهمية للأمر"، قالت ميلدرد التي نهضت وتوجهت إلى الحمام. سمع الماء يجري وصوت ميلدرد وهي تبتلع.

قال: "كلا، لا أهمية للأمر كما أظن".

حاول أن يحسب عدد مرات ابتلاع زوجته وفكر في زيارة الرجلين صاحبَي وجهي أوكسيد الزنك وسيجارتيْهما المحشورتين داخل فيهيهما المستقيمين والأفعى ذات العين الإلكترونية وهي تكوّم نفسها في طبقة إثر طبقة من الليل والحجر وماء النبع الراكد. أراد أن يصيح ليسألها كم واحدة ابتلعت هذه الليلة؟ الكبسولات، كم واحدة ستأخذين لاحقاً بدون أن تعرفي؟ وهكذا دواليك كل ساعة! أو ربما ليس في هذه الليلة، في ليلة غد! وأنا لا أنام هذه الليلة أو ليلة غد أو

أي ليلة لفترة طويلة الآن بعد أن ظهرت هذه الحالة. فكر فيها وهي مستلقية فوق الفراش والتقنيان يقفان فوقها مباشرة، لا ينحنيان قلقاً عليها، بل يقفان مستقيمين فقط وأذرعُهما مطوية. تذكر أنه فكر آنذاك في كونه واثقاً من أنه لن يبكي إذا ماتت، لأن هذا سيكون موت شخص غير معروف، وجه من الشارع، صورة في جريدة. وبدا له فجأةً أن من الخطأ تماماً أن يكون قد بدأ في النحيب، لا على الموت بل على فكرة عدم البكاء في وجه الموت. رجل سخيف فارغ قرب امرأة سخيفة فارغة فيما كانت الأفعى الجائعة تزيدها فراغاً.

تساءل كيف تصبح فارغاً إلى هذا الحد؟ من الذي يفرِغ داخلك؟ وتلك الزهرة البغيضة في ذلك اليوم، زهرة الهندباء! لقد أوجزت كل شيء، أليس كذلك؟ "يا للعار، أنت لست مغرماً بأي شخص!" ولِمَ لا؟

حسناً، أليس هناك جدار بينه وبين ميلدرد عندما تفكر في الأمر جدياً؟ ليس جداراً واحداً فقط بالمعنى الحرفي، بل ثلاثة جدران حتى الآن! وبكلفة باهظة أيضاً! والأعمام والأخوال والعمات والخالات وأولاد الأعمام والأخوال والعمات والخالات وأولاد الإخوة والأخوات الذين يعيشون جميعاً في تلك الجدران، ذلك القطيع الثرثار من قرود الأشجار التي لا تقول شيئاً، لا تقول شيئاً، وتقول ذلك بصوت عالٍ، عالٍ، عالٍ. لقد اعتاد تسميتهم أقرباء منذ البداية. "كيف العم لويس اليوم؟". "من؟". "والخالة مود؟". كانت أهم ذكرى يمتلكها عن ميلدرد في الواقع صورة فتاة صغيرة في غابة لا

شجرَ فيها (يا للغرابة!)، أو الأرجح صورة فتاة صغيرة تائهة على رابية كانت عليها أشجار في ما مضى (تستطيع الإحساس بذكرى أشكالها في كل أرجاء المكان) وهي جالسة في وسط "غرفة الجلوس". غرفة الجلوس، يا للبراعة في تسميتها هكذا الآن. بدون اعتبار للوقت الذي يدخل فيه كانت الجدران تكلم ميلدرد دائماً.

- "لا بد من فعل شيء ما!".
- "نعم، لا بد من فعل شيء ما".
- "حسناً، دعنا لا نقف هنا ونتكلم!".
- "لنفعل!".
- "أنا غاضبة إلى درجة أنني أستطيع أن أبصق!".

ما هذه المسألة كلّها؟ لم يكن في استطاعة ميلدرد أن تشرح. من كان غاضباً على من؟ لم تعرف ميلدرد على وجه التحديد. ما الذي سيفعلانه؟ "حسناً"، قالت ميلدرد، "انتظر لترى".

انتظَرَ ليرى.

اخترقت الجدران أصوات زاعقة كعاصفة رعدية. انهالت عليه كقنبلة موسيقى صاخبة إلى درجة أن عظامه كادت تفلت من أربطتها، أحسّ بفكّه يرتعش وبعينيه تترجحان في رأسه. كان ضحية ارتجاج دماغي. وعندما انتهى كل شيء تماماً شعر بنفسه كرجل رُمي من أعلى جرف صخري ووضع في دوامة ثم طرح في شلال يهوي ويهوي إلى فراغ يليه فراغ ولا يصل أبداً إلى قاع، لا يصل أبداً أبداً إلى قاع، لا يصل أبداً إلى قاع، شلال تسقط معه بسرعة هائلة إلى

درجة أنك لا تلامس الجوانب أيضاً؛ لا تلامس أي شيء أبداً وعلى الإطلاق.

خبا الرعد وماتت الموسيقى.

- "ها نحن"، قالت ميلدرد.

كان الأمر لافتاً للانتباه بالفعل. لقد حدث شيء ما. وبالرغم من أن الأشخاص في الجدران لم يكادوا يتحركون ومن أن شيئاً لم يسوّ، فإنك تكتسب انطباعاً بأن شخصاً ما شغّل غسالة أو شفطك في مكنسة كهربائية ضخمة. لقد غرقت في الموسيقى وجلبة صافية من الأصوات المتنافرة. خرج من الغرفة متعرقاً وعلى حافة الانهيار. جلست ميلدرد خلفه في كرسيّها وانطلقت الأصوات من جديد:

- "حسناً، سيكون كل شيء على ما يرام الآن"، قالت عمّة.

- "آه، لا تكوني متأكدة إلى هذه الدرجة"، قالت ابنةُ خال.

- "لا تستائي الآن!".

- "من المساءة؟".

- "أنت".

- "أنا؟".

- "أنت غاضبة".

- "لماذا أكون غاضبة؟".

- "لأن!".

صرخ مونتاغ: "كل هذا جيد جداً. لكن لماذا هم غاضبون؟ من

هؤلاء الناس؟ من يكون هذا الرجل ومن تكون هذه المرأة؟ هل هما زوج وزوجة؟ هل هما مطلقان أو مخطوبان أو ماذا؟ يا إلهي، لا شيء يترابط هنا".

قالت ميلدرد: "حسناً، إنهما... حسناً، إنهما تشاجرا كما ترى. إنهما يتشاطران كثيراً بالتأكيد. عليكَ أن تصغي. أظن أنهما متزوجان، نعم، إنهما متزوجان. لماذا؟".

ولو لم تكن هناك الجدران الثلاثة التي ستصبح أربعة جدران قريباً، ولو لم يكتمل الحلم لكانت هناك السيارة المكشوفة وميلدرد تقودها بسرعة مائة ميل في الساعة عبر المدينة، وهو يصيح ردّاً عليها وكلاهما يحاول سماع ما يُقال بدون أن يسمع شيئاً إلا زئير السيارة. صاح: "على الأقل أبقيها في الحد الأدنى". صاحت: "ماذا؟". صاح: "أبقيها على سرعة خمسة وخمسين، الحد الأدنى!". صرخت: "الماذا؟" صرخ: "السرعة". زادت السرعة إلى مائة وخمسة أميال في الساعة وخطفت النَفَس من فمه.

عندما خرجا من السيارة كانت الصدفتان محشوتين في أذنيها.

سكون. لا شيء إلا هبوب ريح ناعمة.

تحرك في السرير وقال: "ميلدرد".

مد يده وأخرج الحشرة الموسيقية الصغيرة من أذنها وقال: "ميلدرد، ميلدرد".

- "نعم". كان صوتها باهتاً.

شعر بأنه أحد المخلوقات التي تُحشر إلكترونياً بين فتحات الجدران

الصوتية الملونة، يتكلم لكن كلامه لا يخترق الحاجز البلوري، لم يكن في وسعه إلا الايماء والإشارة على أمل أن تستدير نحوه وتراه. لم يكونا قادرين على التلامس عبر الزجاج.

– "ميلدرد، هل تعرفين الفتاة التي حدثتك عنها؟".

– "أية فتاة؟". كانت نائمة تقريباً.

– "الفتاة من المنزل المجاور".

– "أية فتاة من المنزل المجاور؟".

– "أنتِ تعرفين، إنها تلميذة المدرسة الثانوية، كلاريس، هذا اسمُها".

– "آه نعم"، قالت زوجته.

– "لم أشاهدها منذ أيام قليلة... أربعة أيام بالضبط. هل شاهدتها أنت؟".

– "كلا".

– "لقد أردت أن أكلمك بشأنها، عجيب".

– "آه، أنا أعرف الفتاة التي تقصدها".

– "هذا ما ظننته".

– "هي"، قالت ميلدرد في الغرفة المظلمة.

– "ماذا بشأنها؟"، سأل مونتاغ.

– "نويتُ أن أبلغك. نسيتُ. نسيت".

– "أبلغيني الآن. ما الأمر؟".

– "أظنّها رحلت".

- "رحلت؟".

- "لقد انتقلت العائلة كلّها إلى مكان ما. لكنها رحلت نهائياً. أظن أنها ماتت".

- "لا يمكن أن نكونَ نتحدث عن نفس الفتاة!".

- "لا. نفس الفتاة. ماكليلان. ماكليلان. لقد دهستها سيارة. قبل أربعة أيام. لستُ متأكدة. لكني أظن أنها ماتت. والعائلة انتقلت من هنا بأية حال. لا أعلم. لكنني أظن أنها ماتت".

- "أنت لست متأكدة من ذلك!".

- "كلا. لست متأكدة فقط. أنا متأكدة جداً".

- "لماذا لم تخبريني من قبل؟".

- "نسيت".

- "منذ أربعة أيام!".

- "نسيت الأمر تماماً".

- "منذ أربعة أيام"، قال بصوت خفيض وهو ممدد هناك.

ظلا راقدين هناك في الغرفة المظلمة دون أن يتحرك أيّ منهما. قالت: "ليلة سعيدة".

سمع حفيفاً خافتاً. تحركت يدها. تحرك الكشتبان الكهرباء على الوسادة كحشرة سرعوفة تصلي. لامسته يدُها. عاد الآن إلى أذنها وهو يدندن.

أصاخ السمع وكانت زوجته تغني تحت نفَسها.

تحرك طيفٌ خارج المنزل وهبّت ريح خريفية ثم تلاشت. لكن كان

هناك شيء آخر سمعه في الظلام، كان شبيهاً بنفَس يُزفَر على النافذة. كان مثل هبة واهية لدخان أخضر وضاء، مثل حراك ورقة خريفية ضخمة يطيّرها الهواء بعيداً عبر المرج.

"الكلب"، قال في فكره، "إنه هنا في الخارج هذه الليلة. إنه هنا في الخارج الآن. لو فتحتُ النافذة...".

لم يفتح النافذة.

أصيب بقشعريرة وحمّى في الصباح.

قالت ميلدرد: "لا يمكن أنْ تكون مريضاً".

أغمض عينيه فوق حرارته وقال: "نعم".

- "لكنك كنتَ بخير في الليلة الماضية".

- "كلا، لم أكن بخير". سمع الأقرباء يتصاعدون في الردهة.

وقفتْ ميلدرد منتصبة إلى جانب سريره وقد تملّكها الفضول. شعر بوجودها هناك. رآها بدون أن يفتح عينيه بشعرِها الذي أحرقته المواد الكيميائية فتحول إلى قشّ متكسّر، وبعينَيْها المغشيّتَيْن بنوع من الإعتام غير المرئي والمشتَبه بوجوده عميقاً خلف البؤبؤيْن، وبشفتَيْها المحمّرتَيْنِ النابضتَيْن، وبجسمها الهزيل كسرعوفة من كثرة الحمية، وببشرتها الشبيهة بلحم مقدّد أبيض. لم يكن في مقدوره أنْ يتذكّرها في هيئة مختلفة.

قال: "هل تجلبين لي بعض الأسبرين والماء؟".

قالت: "عليك أنْ تنهض. هذا وقتُ الظهر، لقد نمت خمس ساعات أكثر من المعتاد".

سألها: "هل تتكرّمين بإسكات الأصوات في الردهة؟".

- "هذه عائلتي".

- "هل تتكرمين بإسكاتها من أجل رجل مريض؟".

- "سأخفّض الأصوات".

خرجت من الغرفة ولم تفعل أي شيء في الردهة. ثم عادت وسألت: "هل هذا أفضل؟".

- "شكراً".

قالت: "هذا برنامجي المفضّل".

- "ماذا عن الأسبرين؟".

- "أنت لم تمرض أبداً من قبل". غادرت الغرفة من جديد.

- "حسناً، أنا مريض الآن. لن أذهب إلى العمل هذه الليلة. اتصلي ببيتي نيابةً عني".

عادت وهي تهمهم: "لقد تصرفت بشكل غريب في الليلة الماضية".

نظر إلى كوب الماء الذي قدمته إليه وسألها: "أين الأسبرين؟".

توجهت إلى الحمام مرة أخرى وهي تقول: "هل حدث شيء ما؟".

- "حريق. هذا كل شيء".

قالت وهي في الحمام: "لقد أمضيت أمسية ممتعة".

- "تفعلين ماذا؟".

- "الردهة".

- "ماذا تضمّن العرض؟".

- "برامج".
- "أية برامج؟".
- "بعض من الأفضل إطلاقاً".
- "مَن؟".
- "آه، أنت تعلم. المجموعة".
- "نعم، المجموعة، المجموعة، المجموعة". ضغط على الألم في عينيه، وفجأة جعلته رائحة الكيروسين يتقيأ.

دخلت ميلدرد إلى الغرفة مدندنة. فوجئت، سألت: "لماذا فعلت ذلك؟".

نظر باشمئزاز إلى الأرض. قال: "لقد أحرقنا امرأة عجوزاً مع كتبها".

قالت: "يمكن غسل السجادة لحسن الحظ".

أحضرت ممسحة وبدأت تنظف. أضافت: "لقد زرتُ هيلين ليلة أمس".

- "ألم تتمكني من مشاهدة العروض في ردهتك الخاصة؟".
- "بلى بالتأكيد، لكن زيارة الآخرين ممتعة".

خرجت إلى الردهة وسمعها تغني.

ناداها: "ميلدرد".

رجعت وهي تغني وتطرطق أصابعها بنعومة.

قال: "ألن تسأليني عما حدث في الليلة الماضية؟".

- "ماذا بشأنها؟".

- "لقد أحرقنا ألفَ كتاب؛ أحرقْنا امرأة".

- "إذاً؟".

كانت الردهة تتفجر بالأصوات.

- "أحرقنا نسخاً لدانتي وسويفت ومرقص أوريليوس".

- "ألم يكن أوروبياً؟".

- "كان شيئاً من هذا القبيل".

- "ألم يكن متطرفاً؟".

- "لم أقرأه أبداً".

- "لقد كان متطرفاً"، كانت تعبث بالهاتف. قالت: "أنت لا تتوقع مني أن أتصل بالكابتن بيتي. أليس كذلك؟".

- "يجب أن تفعلي".

- "لا تصرخ".

- "لم أكن أصرخ". جلس في سريره فجأةً وهو غاضب ومحتقن الوجه وجسمه يرتعش. كان الزعيق الآتي من الردهة يصم الآذان في الهواء الحار. قال: "لا أستطيع أن أتصل به. لا أستطيع أن أخبره أنني مريض".

- "لماذا؟".

فكّر: لأنك خائف. كطفل يتمارض ويخاف أن يتصل لأن النقاش سيتخذ بعد لحظة المنحى الثاني: "نعم يا كابتن، أشعر فعلاً بتحسن سأكون في المركز في الساعة العاشرة هذه الليلة".

قالت ميلدرد: "أنت لست مريضاً".

عاد مونتاغ إلى الاستلقاء في السرير. وضع يده تحت الوسادة. كان الكتاب لا يزال هناك.

- "ميلدرد، كيف ستكون الأمور، حسناً، إذا تركت وظيفتي لفترة من الزمن؟".

- "أتريد التخلي عن كل شيء؟ بعد كل هذه السنين من العمل بسبب ليلة واحدة، امرأة ما وكتبها...؟".

- "كان عليك أن تريها يا ميللي!".

- "إنها لا تعني أي شيء بالنسبة إلي. ما كان ينبغي أن تمتلك كتباً. كانت تلك مسؤوليتها. كان أولى بها أن تفكر في ذلك. أكرهها. لقد أفسدت أفكارك والأمر التالي الذي تعرفه هو أننا سنكون مجرّدَيْن من كل شيء، لا منزل لا وظيفة، لا شيء".

قال: "أنتِ لم تكوني هناك. أنتِ لم تريها. لا بد من وجود شيء ما في الكتب، لا بد من وجود أشياء لا نستطيع تصورها، أشياء تجعل امرأة تبقى في منزل يحترق. لا بد من وجود شيء ما هناك. أنتِ لا تبقين في منزل يحترق من أجل لا شيء".

- "كانت ساذجة".

- "كانت عاقلة مثلك ومثلي، وربما أعقل من ذلك. ونحن أحرقناها".

- "هذا كالماء الذي يسيل تحت الجسر".

- "لا، هذا ليس ماء. إنه نار. هل رأيت مرة منزلاً محترقاً؟ تظل ناره تعتمل غير منظوره تحت الأطلال والرماد عدة أيام. حسناً، سيكفيني

هذا الحريق لما بقي من عمري، يا إلهي! لقد حاولت إطفاءه في ذهني طول الليل. لقد أُصِبت بالجنون لكثرة ما حاولت".

- "كان ينبغي أن تفكر في ذلك قبل أن تصبح إطفائياً".

قال: "أفكر في ذلك! هل كان لي خيار؟ كان جدي ووالدي إطفائيين. لقد جريتُ خلفَهما حتى في نومي".

كان لحن راقص يأتي من الردهة.

قالت ميلدرد: "هذا هو اليوم الذي تنتقل فيه إلى المناوبة المبكرة". كان عليك أن تذهب إلى العمل قبل ساعتَيْن. لقد لاحظتُ ذلك للتو".

- "لا يقتصر الأمر على المرأة التي ماتت"، قال مونتاغ وأضاف: "فكّرتُ خلال الليلة الماضية في كل الكيروسين الذين استعملته في السنوات العشر الماضية. وفكرت في الكتب أيضاً. وأدركت لأول مرة أن رجلاً معيناً وقف خلف كل من هذه الكتب. كان لا بد من وجود رجل يصوغها بفكره. كان على رجل ما أن يخصص وقتاً طويلاً لكي يكتبها على ورق. ولم يسبقْ لي أبداً أنْ فكّرت في ذلك حتى". نهض من سريره.

- "ربما أمضى رجل ما عمره ليدوّن بعضاً من أفكاره، ليتأمل في العالم والحياة من حوله، ثم آتي أنا وأدمر كل شيء في دقيقتين! انتهى كلّ شيء!".

قالت ميلدرد: "دعني وشأني. أنا لم أفعل شيئاً".

- "أدعك وشأنك! هذا كله جيد جيداً، لكن كيف أستطيع أن

أدع نفسي وشأني؟ لسنا في حاجة إلى أن نُترك وشأننا. نحتاج في الحقيقة إلى أن نُزعَج بين حين وآخر، كم مضى من الوقت منذ أُزعجت حقاً؟ بخصوص أمر هام، بخصوص أمر حقيقي؟".

- سكت بعد ذلك لأنه تذكر الأسبوع الماضي والحجرَيْن الأبيضَيْن المحدقَيْن في السقف وأفعى المضخة ذات العين الفاحصة والرجلَيْن صاحبَيْ الوجهَيْن الزلقَيْن وسيجارتَيْهما المتحركتين في فيهيهما وهما يتكلمان. لكن تلك كانت ميلدرد أخرى، تلك كانت ميلدرد مدفونة عميقاً جداً داخل هذه الميلدرد ومنزعجة جداً، منزعجة حقاً إلى درجة أن المرأتين لم تلتقيا من قبل أبداً. استدار.

قالت ميلدرد: "حسناً، بما أنك نهضت الآن. اذهب وانظر من يوجد في الخارج أمام المنزل".

- "لست مهتماً".

- "لقد وصلت للتو سيارة فينيق ونزل منها رجل يرتدي قميصاً أسود طُرّزت على كمّه أفعى برتقالية، وهو آتٍ إلينا على الدرب الأمامي".

قال: "الكابتن بيتي؟".

- "الكابتن بيتي".

لم يتحرك مونتاغ من مكانه بل لبث يحدق في البياض البارد للجدار الماثل أمامه مباشرة.

- "أرجوك أن تذهبي وتُدخليه إلى المنزل. قولي له إنني مريض".

- "قل له ذلك بنفسك!". ركضت خطوات قليلة في هذا الاتجاه

وخطوات قليلة في ذلك الاتجاه ثم توقفت وعيناها جاحظتان عندما نادى مجهارُ الباب الأمامي اسمها بنعومة، بنعومة: "سيدة مونتاغ، سيدة مونتاغ، شخص ما هنا، شخص ما هنا، سيدة مونتاغ، سيدة مونتاغ، شخص ما هنا". خبا الصوت.

تأكد مونتاغ من أن الكتاب مخبّأ جيداً خلف الوسادة وعاد متمهلاً إلى سريره ورتّب الأغطية فوق ركبتيه وصدره وهو نصف جالس. وبعد هنيهة تحركت ميلدرد وخرجت من الغرفة ودخل الكابتن بيتي وهو يسير الهوينا ويداه في جيبيه.

- "أسْكِتي الأقرباء"، قال بيتي وهو ينظر حوله إلى كل شيء ما عدا مونتاغ وزوجته.

في هذه المرة ركضت ميلدرد. وتوقفت الأصوات المعولة في الردهة عن الصراخ.

جلس الكابتن بيتي على أوثر مقعد وعلى وجهه القرمزي نظرة مسالمة. تمهل في تحضير غليونه النحاسي وإشعاله ونفث غيمة دخان كبيرة، قال: "خطر لي أن آتي لأرى كيف حال الرجل المرِيض".

- "كيف حزرت؟".

افترت شفتا بيتي عن ابتسامته التي كشفت تورّد لثته بلون الحلوى وطيف البياض السكري لأسنانه. قال: "لقد سبق لي أنْ رأيتُ كل شيء. أنت كنت ستتصل لتبلغ عن غيابك هذه الليلة".

جلس مونتاغ في سريره.

- "حسناً"، قال بيتي، "تغيّبْ هذه الليلة".

تفحص علبة الثقاب السرمدية في يده التي كتب على غطائها ضمانة: مليون شعلة في هذه الولاعة. راح يشعل الثقاب الكيميائي وهو شارد، يطفئ اللهب ويشعله، يطفئه ويشعله، يتلفظ بكلمات قليلة، يطفئ اللهب. نظر إلى اللهب. أطفأه. نظر إلى الدخان. "متى ستكون معافى؟".

- "غداً. اليوم التالي. ربما مطلع الأسبوع".

نفخ بيتي دخان غليونه. قال: "كل إطفائي يُصاب بهذه الحالة عاجلاً أم آجلاً. كل ما يلزمهم هو أن يفهموا، أن يعرفوا كيف تدور العجلات. يلزمهم أن يعرفوا تاريخ مهنتنا. ما عادوا يلقنون المبتدئين هذا التاريخ كما اعتادوا أن يفعلوا في الماضي. هذا مؤسف جداً". نفخ دخاناً. قال: "لا يتذكر هذا التاريخ الآن إلا قادة فرق الإطفاء". نفخ دخاناً. "سأُطلعك على هذا التاريخ".

تململت ميلدرد.

أخذ بيتي دقيقة كاملة ليستقر في جلسته وليراجع أفكاره تحضيراً لما أراد أن يقوله.

- "أنت تسأل متى بدأ يحل هذه المسألة هذه الوظيفة التي نقوم بها. كيف ظهرت وأين ومتى؟ حسناً، أميل إلى القول إنها ابتدأت حقاً في فترة حدث يُدعى الحرب الأهلية، بالرغم من أن كتاب القواعد الخاص بنا يدّعي أنها تأسست قبل ذلك. والواقع هو أننا لم نكن نتفاهم في ما بيننا إلى أن ظهر فن التصوير الفوتوغرافي وأثبت وجوده. وأعقب ذلك في أوائل القرن العشرين ظهور السينما والراديو

والتلفزيون. وبدأت الأمور تأخذ شكلها الجماعي".

جلس مونتاغ في سريره بلا حراك.

- "وبما أنها كانت جماعية أصبحت أسهل"، أضاف بيتي: "في زمن ما كانت الكتب تلقى إعجاب أناس قلائل، هنا، هناك، في كل مكان. كان متاحاً لها أن تكون مختلفة. كان العالم رحباً. ثم امتلأ العالم بالعيون والمرافق والأفواه. تضاعف عدد السكان مرتين وثلاث مرات وأربع مرات، وتدنت قيمة الأفلام والإذاعات والمجلات والكتب إلى ما يساوي قيمة معجونها اللاصق. هل تفهمني؟".

- "أظن ذلك".

ثبت بيتي ناظرَيه على الشكل الدخاني الذي نفثه في الهواء. قال: "تصور. إنسان القرن التاسع عشر بخيوله وكلابه وعرباته الخشبية وحركته البطيئة. لننتقل بعد ذلك إلى القرن العشرين، سرّع آلة التصوير في يدك. أصبحت الكتب أقصر، صارت لها ملخصات، مقتطفات، موجزات مكثفة. أصبح كل شيء يتركز على المغزى، على النهاية السريعة".

- "نهاية سريعة"، قالت ميلدرد وهي تومئ برأسها.

- "أعمال كلاسيكية تختصر لحشرها في برامج إذاعية من خمس عشرة دقيقة، ثم تقصقص ثانيةً لتملأ ركن كتاب من دقيقتَين، ثم تنتهي في آخر الأمر كموجز معجمي من عشرة أسطر أو اثني عشر سطراً. أنا أبالغ طبعاً. المعاجم كانت تستعمل كمراجع، لكن كان هناك كثيرون ممن كانت معرفتهم الوحيدة بهَملت (أنت تعرف هذا العنوان بالتأكيد

يا مونتاغ، وهو على الأرجح مجرد إشاعة واهية عن عنوان بالنسبة إليك يا سيدة مونتاغ)، أقول ممن كانت معرفتهم الوحيدة بهَملت موجزاً من صفحة واحدة في كتاب تصدره هذا الادّعاء: في وسعكم الآن أخيراً أن تقرأوا جميع الأعمال الكلاسيكية. لا تدعوا جيرانكم يفوقونكم علماً. هل تريان؟ من دار الحضانة إلى الكلية ورجوعاً إلى دار الحضانة. هذا هو نمطك الفكري خلال القرون الخمسة الماضية أو أكثر".

نهضت ميلدرد وبدأت تتجول في الغرفة تلتقط حاجيات ثم تعيدها إلى مكانها. تجاهلها بيتي وواصل كلامه:

- "هيا سرّع الفيلم يا مونتاغ. عجل. كليك، صورة، نظرة، عين، الآن، نقرة، هنا، هناك، بسرعة، خطوة، تحت، في الداخل، في الخارج، لماذا، كيف، مَنْ، ماذا، أين، إيه؟ آه! بانغ! طاخ! اضرب، بينغ، بانغ، بوم! مختصر... مختصرات، مختصر... مختصرات. سياسة؟ عمود واحد، جملتان، عنوان رئيسي! ثم يختفي كل شيء في الهواء! ضعْ عقل الإنسان في دوامة تدور بسرعة هائلة في الأيدي النابضة للناشرين والمستغلين والمذيعين بحيث تنبذ آلة الطرد المركزي جميع الأفكار غير الضرورية والمبددة للوقت!".

ملّست ميلدرد أغطية السرير، أحس مونتاغ بقلبه يقفز ويقفز داخل صدره وهي تربت على وسادته. في هذه اللحظة كانت تجذبه من كتفه محاولة تحريكه لتتمكن من سحب الوسادة ونفضلها كما ينبغي ثم إرجاعها إلى مكانها. أو ربما لكي تصرخ وتحدّق أو لكي تمد يدها

وتقول ببراءة آسرة "ما هذا؟" وهي ترفع الكتاب المخبّأ.

- "لقد قُصِّرت مدة المدرسة وخُفّف الانضباط وأُلغيت مواد الفلسفة والتاريخ واللغات وأُهمِلت اللغة الإنكليزية والتهجئة تدريجياً إلى أن تمّ تجاهلهما كلياً في آخر الأمر. الحياة ممارسة فورية، للوظيفة أهمية، والبهجة كلها تأتي بعد العمل. لماذا يتعلم المرء أي شيء سوى الضغط على أزرار وسحب مفاتيح تحويل وشد براغي وعزقات؟".

- قالت ميلدرد: "دعني أرتّب وسادتك".

- "لا!"، قال مونتاغ هامساً.

- "لقد حل السحّاب مكان الأزرار ويفتقر الرجل إلى الوقت للتفكير وهو يرتدي ثيابه عند الفجر. إنها ساعة فلسفية، وهي بالتالي ساعة حزن".

قالت ميلدرد: "هيا".

أجابها مونتاغ: "ابتعدي".

- "الحياة تصبح زلّة كبيرة مثيرة للسخرية يا مونتاغ. يصبح كلّ شيء بانغ، بوف، واو!".

- "واو"، قالت ميلدرد وهي تجذب الوسادة.

صاح مونتاغ منفعلاً: "دعيني وشأني بحق السماء".

فتح بيتي عينيه واسعاً.

تجمّدت يد ميلدرد خلف الوسادة. كانت أصابعها تتبع معالم الكتاب وعندما أصبح ملمسه مألوفاً لديها ظهرت على وجهها

إمارات الدهشة ثم الذهول. فتحت فمها لتطرح سؤالاً...

- "أفرغوا المسارح إلا من المهرجين وافرشوا الغرف بجدران زجاجية وألوان جميلة صاعدة ونازلة على الجدران كقصاصات الورق الملون أو الدم أو شراب الشري أو النبيذ الحلو. أنت تحب لعبة البيسبول، أليس كذلك يا مونتاغ؟".

- "البيسبول لعبة جميلة".

في هذه الأثناء كاد بيتي يصبح مخفياً عن الأنظار، مجرد صوت في مكان ما خلف ستار من الدخان.

- "ما هذا؟" سألت ميلدرد بلهجة قاربت الابتهاج. مال مونتاغ بسرعة وقوة على ذراعيها. سألت من جديد: "ما هذا هنا؟".

- "اجلسي!" صاح فيها مونتاغ. قفزت مبتعدة ويداها فارغتان. أضاف: "نحن نتكلم!".

تابع بيتي حديثه كما لو لم يحدث أي شيء. قال: "أنت تحب لعبة البولنغ، أليس كذلك يا مونتاغ؟"

- "البولنغ، نعم".

- "ولعبة الغولف؟".

- "الغولف لعبة ممتازة".

- "كرة السلة؟".

- "لعبة رائعة".

- "البليارد، كرة القدم؟".

- "هذه كلها ألعاب جميلة".

- "مزيد من الرياضة لكل إنسان، روح الجماعة، المرح وليس عليك أن تفكر. إيه؟ تنظيم وتنظيم وتنظيم فائق، رياضات ورياضات فائقة... فائقة... مزيد من الرسوم المسلية في الكتب. مزيد من الصور. العقل يتشرب أقل وأقل. نفاد الصبر. طرق سريعة مملوءة بجموع ذاهبة إلى مكان ما، مكان ما، مكان ما، إلى لا مكان. عاشق البنزين. تتحول المدن إلى موتيلات والناس يتنقلون في موجات بدو رُحّل من مكان إلى مكان متتبعين موجات مدّ القمر ويعيشون هذه الليلة في الغرفة التي نمت أنت فيها ظهر اليوم ونمت أنا فيها ليلة أمس".

خرجت ميلدرد من الغرفة وصفقت الباب. بدأت قريبات الردهة من "عمات وخالات" يضحكن على أقرباء الردهة من "أعمام وأخوال".

- "لنأخذ الآن موضوع الأقليات في حضارتنا إن كنت لا تمانع. كلما زاد عدد السكان كلما زادت الأقليات. لا تغضب محبي الكلاب، محبي القطط، الأطباء، المحامين، التجار، الوجهاء، المورمون، المعمدانيين، التوحيديين، الجيل الثاني من الصينيين والسويديين والإيطاليين والألمان، التكاساسيين، البروكلينيين، الإيرلنديين، وأهالي أوريغون أو المكسيك. ليس من المفترض أن يمثل الناسُ في هذا الكتاب أو هذه المسرحية أو هذا المسلسل التلفزيوني أشخاصاً حقيقيين من رسامين أو مصممي خرائط أو ميكانيكيين في أي مكان، وكلما كبرت سوقك كلما قل تعاطيك

مع الخلافات. تذكّرْ ذلك. من الواجب المحافظة على نظافة سرّات الأقليات الأصغر والأصغر. أيها الكتّاب الذين تملأ الأفكار الشريرة رؤوسهم أغلِقوا على آلاتكم الكاتبة. لقد فعلوا ذلك. أصبحت المجلات مزيجاً لذيذاً من عجينة الحلوى المطيبة بالونيلية. وقال النقاد المتعجرفون اللعينون إن الكتب هي ماء غسل الصحون، ولا عجب أن الكتب لم تعد تباع على حد قول النقاد. لكن الجمهور العارف بما يريد والسعيد برواته ترك كتب الكوميكس تنجو من الفناء. وكذلك المجلات الجنسية ثلاثية الأبعاد بالطبع. ها هي القصة يا مونتاغ. القرار لم يأتِ نزولاً من الحكومة. لم يكن هناك إملاء ولا تصريح ولا رقابة في بادئ الأمر. كلا! أصبح الأمر ممكناً بفعل التكنولوجيا والاستغلال الجماعي وضغوط الأقليات والحمد لله. وبفضل هذه العوامل تستطيع اليوم أن تبقى سعيداً طوال الوقت ويسمح لك بقراءة الكوميكس أو الاعترافات الشهية المعهودة للمشاهير أو النشرات التجارية".

سأل مونتاغ: "نعم، لكنْ ماذا عن رجال الإطفاء إذاً؟".

مال بيتي إلى الأمام وسط الضباب الواهي لدخان غليونه وقال: "آه، ما هو الأمر الأسهل تفسيراً والأكثر طبيعية من ذلك؟ بعد أن أصبحت المدارس تخرج أعداداً متزايدة من العدائين والنطاطين والمتسابقين والسبّاكين والسرّاقين والخطّافين والطيارين والسباحين بدلاً من الفاحصين والنقاد والعارفين والمبدعين الخلاقين. أصبحت كلمة "مفكر" شتيمة بالطبع، وهو ما تستحقه بلا ريب. الإنسان

يخشى دائماً ما ليس مألوفاً لديه. وأنت تذكر بالتأكيد ذلك الصبي ذا الذكاء الاستثنائي في صفك في المدرسة الذي كان يؤدي معظم واجبات تسميع الدروس والإجابة عن الأسئلة فيما كان الآخرون يجلسون كأصنام مصبوبة من رصاص ويكرهونه. ألم يكن هذا الصبي الذكي من اخترته أنت كي تضربه وتعذبه بعد المدرسة؟ طبعاً كان هو. يجب أن نكون متماثلين. لا يولد كل إنسان حراً ومتساوياً كما يقول الدستور، بل يُجعل كل إنسان متساوياً. كل إنسان صورة طبق الأصل لكل إنسان آخر فيكون الجميع سعداء لأنه لا توجد جبال تجعلهم ينكمشون خوفاً من الحكم على أنفسهم مقارنةً بسواهم. إذاً الكتاب هو بمثابة مسدس محشو في المنزل المجاور. أحرقْه. أخرِج الرصاص من السلاح. اخترِقْ عقل الرجل. من يدري من قد يكون هدف الرجل الذي يُكثر القراءة. أنا؟ لن أحتمل أياً منهم ولو لدقيقة واحدة. وهكذا لم تعد هناك حاجة لرجال الإطفاء للمهمات القديمة بعد أن جُعلت كافة المنازل في جميع أنحاء العالم مضادة للحريق في آخر الأمر (لقد كنت محقاً في فرضيتك تلك الليلة). أُعطي الإطفائيون الوظيفة الجديدة كمسؤولين عن راحة بالنا وكنقطة ارتكاز لخوفنا المفهوم والمحق من أن نكون أقل شأناً كقيمين على الرقابة وقضاة ومنفذين. هذا أنت يا مونتاغ، وهذا أنا".

فتح باب الردهة ووقفت ميلدرد هناك تنظر إليهما، تنظر إلى بيتي ثم إلى مونتاغ. كانت جدران الغرفة خلفها متقدة بألعاب نارية خضراء

وصفراء وبرتقالية تلتمع وتفرقع على وقع موسيقى أُلِّفت بالكامل تقريباً لتعزَف على الطبول والصنوج وبإيقاع رتيب. تحرك فمها وكانت تقول شيئاً، لكن صخب الموسيقى طغى على صوتها.

نفض بيتي محتويات غليونه في راحة يده ذات اللون الزهري ودرس الرماد وكأنه رمز ينبغي تشخيصه وراح يبحث عن معنى.

– "يجب أن تفهم أن حضارتنا واسعة إلى درجة أننا لا نستطيع السماح بإزعاج أقلياتنا وإثارتها. اسأل نفسك ماذا نريد قبل كل شيء في هذه البلاد؟ الناس يريدون أن يكونوا سعداء، أليس كذلك؟ ألم تسمع هذه المقولة طول حياتك؟ يقول الناس: نريد أن نكون سعداء، حسناً، أليسوا سعداء؟ ألا نُبقيهم يتحركون، ألا نوفر لهم المرح؟ هذا كل ما نعيش من أجله، أليس كذلك؟ من أجل المتعة، من أجل الإثارة؟ وعليك أن تعترف بأن حضارتنا توفر الكثير من المتعة والإثارة".

– "نعم".

كان في وسعِ مونتاغ أن يقرأ على شفتي ميلدرد ما تقوله قرب الباب. حاول أن لا ينظر إلى فمها لأن بيتي قد يدير رأسه ويقرأ أيضاً ما كان هناك.

– "الملونون لا يحبون كتاب "اسامبو الأسود الصغير". أحرقه. البيض لا يرتاحون لكتاب "كوخ العم توم". أحرقه. هل ألّف شخص ما كتاباً عن التبغ وسرطان الرئة؟ ومحبّو السجائر هل ينتحبون؟ أحرق الكتاب. الهدوء يا مونتاغ. السلام يا مونتاغ. خذ شجارَك إلى الخارج. والأفضل من ذلك أن تأخذَه إلى المحرقة. أليست الجنازات

كئيبة ووثنية؟ فلنُلغِها أيضاً. بعد خمس دقائق من موتِ شخص يكون جسده على الطريق إلى المدخنة الكبرى، إلى المحارق التي تزودها طائرات الهليكوبتر بالأجساد في كافة أنحاء البلد. بعد عشر دقائق من موته يصبح الشخص بقعة من الغبار الأسود. دعنا لا نتجادل بشأن الأفراد الذين تُقام لهم مآتم. إنسَ أمرهم. أحرق الجميع. أحرق كل شيء. النار وضّاءة والنار نظيفة".

ماتت أصوات الألعاب النارية في الردهة خلف ميلدرد. وتوقفت هي عن الكلام في الوقت ذاته، ويا لها من مصادفة عجائبية. حبس مونتاغ نفَسه.

قال ببطء: "كانت توجد فتاة في المنزل المجاور. لقد اختفت الآن. أظنّها ماتت، لا أستطيع أن أتذكر وجهتها حتى. لكنها كانت مختلفة... كيف حدث أن وُجِدت؟".

ابتسم بيتي وقال: "من المحتم أن تحدث أمور هنا وهناك. كلاريس ماكليلان؟ لدينا سجل عن أسرتها. لقد راقبناهم بانتباه. الوراثة والبيئة أمران عجيبان.

إنك لا تستطيع التخلص من جميع البطات الشاذة في سنوات قليلة فقط. ويمكن للبيئة المنزلية أن تُفسر الكثير مما تحاول تحقيقه في المدرسة. لهذا السبب خفّضنا عمر الالتحاق بروضة الأطفال سنة بعد سنة إلى أن أصبحنا نسحبهم الآن من المهد تقريباً. لقد تلقينا عدة إنذارات خاطئة عن أفراد أسرة ماكليلان عندما كانوا يعيشون في شيكاغو.

لم نعثر على كتاب لديهم قط. كان للعم سجل مختلط، سلوك لا اجتماعي. الفتاة؟ كانت قنبلة موقوتة. وأنا متأكد من أن الأسرة دأبت على تغذية وعيها الباطني بناءً على ما شاهدته في سجلها المدرسي. لم ترغب في معرفة كيف يفعل أمر ما بل لماذا. ومن الممكن أن يكون ذلك محرجاً. إذا سألتَ لماذا بخصوص أمور كثيرة ستشعر بالتعاسة فعلاً في نهاية الأمر إذا واظبت على ذلك. والأفضل لهذه الفتاة المسكينة أن تكون ميتة".

- "أجل، ميتة".

- "لحسن الحظ لا يصدف كثيراً وجود أشخاص غريبي الأطوار مثلها. نعرف كيف نقضي على معظمهم في البداية، في وقت مبكر. لا تستطيع أن تبني منزلاً بدون مسامير وخشب، إذا كنت لا تريد لشخص أن يكون تعيساً سياسياً لا تعطِه جانبَيْن لسؤال واحد يقلق بشأنهما، بل جانباً واحداً. والأفضل من ذلك أن لا تعطيه شيئاً. دعه ينسى أن هناك شيئاً مثل الحرب. وإذا كانت الحكومة غير فعالة ومترهلة ومجنونة بجباية الضرائب، فالأفضل أن تكون الأمور هكذا من أن يقلق الناس بشأنها. السلام يا مونتاغ. أعطِ الناس مسابقات يكسبونها بتذكر كلمات الأغاني الأكثر شعبيةً أو أسماء عواصم الولايات أو كمية الذرة التي أنتجتها ولاية أيوا في السنة الماضية. أحشّ الناس بمعلومات غير قابلة للاحتراق واملأهم حتى الاختناق بـ"حقائق" إلى أن يشعروا بأنهم متخمون وفي الوقت ذاته فائقو الذكاء بمعلوماتهم. عند ذاك سيشعرون بأنهم يفكرون

وسيتولد لديهم إحساس بالحركة بدون أن يتحركوا. وسيكونون سعداء لأن الحقائق من ذلك النوع لا تتبدل. لا تُعطِهم أية مواد زلقة مثل الفلسفة وعلم الاجتماع ليربطوا ما بين الأمور. فهذا الدرب يؤدي إلى الكآبة. إن أي رجل قادر على تفكيك جدار تلفزيوني وإعادة تركيبه، ومعظم الرجال قادرون على ذلك، أسعد من رجل يحاول استعمال مسطرة حاسبة وقياس الأبعاد والمعادلات الخاصة بالكون الذي لا يمكن قياسه ومعادلته بدون جعل الإنسان يشعر بالبهيمية والوحدة. أعرف ذلك لأنني جربت. بئس هذه المسألة. إذاً هاتوا نواديكم وحفلاتكم وبهلوانيتكم وسَحَرتكم، مغامريكم وسياراتكم النفاثة ودراجاتكم النارية وطائراتكم الهليكوبتر، هاتوا شهوتكم الجنسية ومخدراتكم من الهروين والمزيد من كل شيء ذي علاقة برد الفعل اللاإرادي. إذا كانت الدراما سيئة، إذا كان الفيلم فارغاً من أي معنى، إذا كانت المسرحية تافهة، اِسْعَني بصوت عالٍ من آلة الترمين. عندئذٍ سأظنّ أنني أتفاعل مع المسرحية في حين أن الأمر هو مجرد رد فعل حسي على الذبذبات. لكني لا أبالي كل ما في الأمر أنني أحب التسلية الحقيقية".

نهض بيتي قائلاً: "يجب أن أذهب. انتهت المحاضرة. آمل أن أكون أوضحت الأمور. الشيء الهام الذي يجب أن تتذكره يا مونتاغ هو أننا فتيان السعادة، ثنائي ديكسي[1]، أنت وأنا والآخرون. إننا نقف في وجه موجة الحر الصغيرة المكونة من أولئك الذين يريدون إتعاس

[1] ديكسي لاند: اسم الولايات الجنوبية أثناء الحرب الأهلية الأميركية.

الجميع بنظريات وأفكار متناقضة. إننا نضع أصابعنا في ثقوب السد. اصمد بثبات. لا تسمحْ لطوفان الكآبة وفلسفة الحزن بإغراق عالمنا، إننا نعتمد عليك. ولا أعتقد أنك تدرك مدى أهميتك، مدى أهميتنا بالنسبة إلى عالمنا كما هو الآن".

صافح بيتي يد مونتاغ الكليلة. كان مونتاغ لا يزال جالساً وكأن المنزل ينهار من حوله بدون أن يتمكن من الحراك في سريره. واختفت ميلدرد من حيث كانت عند الباب.

قال بيتي: "ثمة أمر واحد أخير. كل رجل إطفاء يُصاب بأزمة فضول واحدة على الأقل خلال حياته المهنية. يتساءل عما تقوله الكتب. آه، كيف يشبع هذا الفضول؟ إيه! حسناً يا مونتاغ. ثِقْ في كلامي. لقد كان علي أن أقرأ كتباً قليلة في زمني لكي أعرف ماهية الأمور. الكتب لا تقول أي شيء. لا شيء تستطيع تعليمه أو الإيمان به. إنها عن أناس لا وجود لهم، عن شطحات خيال إذا كانت روايات. وإذا لم تكن روايات فهي أسوأ من ذلك. أستاذ يقول عن أستاذ آخر إنه معتوه. فيلسوف يملأ بصراخه بلعوم فيلسوف آخر. يتراكضون جميعاً هنا وهناك، يحجبون النجوم ويطفئون الشمس. ينتهي الأمر بك ضائعاً".

- "حسناً إذاً. ماذا يحدث إذا أخذ إطفائي عن طريق الصدفة حقاً وبدون أي قصد كتاباً معه إلى منزله؟".

ارتعش مونتاغ. كان الباب المفتوح يحدق فيه بعينه الخاوية الكبيرة.

قال بيتي: "خطأ طبيعي. الفضول فقط. إننا لا نبالغ في القلق أو

الغضب. نترك الإطفائي يحتفظ بالكتاب أربعاً وعشرين ساعة، وإذا لم يكن قد أحرقه مع انتهاء هذه المدة نأتي نحن ونحرق الكتاب نيابةً عنه".

- "بالطبع". كان فم مونتاغ جافاً.

- "حسناً يا مونتاغ. هل تتولى مناوبة أخرى، مناوبة متأخرة اليوم؟ هل نراك هذه الليلة ربما؟".

- "لا أعرف"، أجاب مونتاغ.

- "ماذا؟"، بدا بيتي متفاجئاً قليلاً.

أغمض مونتاغ عينيه وقال: "سأحضر في وقت لاحق. ربما".

- "سنفتقدك بالتأكيد إذا لم تحضر"، قال بيتي ودسّ غليونه في جيبه وهو مستغرق في التفكير.

فكّر مونتاغ: "لن أذهب إلى المركز بعد الآن أبداً".

قال بيتي: "استرجع صحتك وابقَ معافى".

استدار وخرج من الباب المفتوح.

راقب مونتاغ بيتي عبر النافذة وهو ينطلق بسيارته البيتل اللامعة بلون اللهب الأصفر وعجلاتها السوداء كالفحم.

على الجانب الآخر من الشارع وعلى امتداده هبوطاً انتصبت المنازل الأخرى بواجهاتها المسطحة. ما الذي قالته كلاريس بعد ظهر أحد الأيام؟ "لا توجد شرفات أمامية. يقول عمي إنه كانت للمنازل شرفات أمامية في ما مضى، وكان الناس يجلسون فيها ليلاً في بعض الأحيان على المقاعد الهزازة يتكلمون إذا أرادوا الكلام، أو

صامتين إذا لم يريدوا الكلام. وأحياناً كانوا يجلسون هناك فقط وهم يفكرون في أمور ويقلبونها في عقولهم. يقول عمي إن المعماريين تخلصوا من الشرفات الأمامية لأنها لم تبدُ جميلة. لكن عمي يقول أيضاً إن ذلك كان مجرد تبرير وإن السبب الحقيقي المخفي تحت هذا الكلام ربّما كان أنهم لم يريدوا أن يجلس الناس هكذا على مقاعدهم الهزازة لا يفعلون شيئاً ويتكلمون. فذلك كان النوع الخطأ من الحياة الاجتماعية. كان الناس يكثرون من الكلام بإفراط. وكان لديهم وقت للتفكير. لهذا السبب ألغوا الشرفات الأمامية. والحدائق أيضاً. لم تبقَ حدائق كثيرة يجلس الناس فيها. وانظر إلى المفروشات لم تعد هناك مقاعد هزازة. إنها مريحة أكثر مما ينبغي. أرادوا جعل الناس ينهضون ويجرون هنا وهناك. يقول عمي... و... عمي... و... عمي...".

خفت صوتها حتى اختفى.

* * *

استدار مونتاغ ونظر إلى زوجته الجالسة في وسط الردهة وتتكلم مع مذيع كان يتكلم معها بدوره، كان يقول: "سيدة مونتاغ، هذا وذاك وسواه".

"سيدة مونتاغ..". شيء آخر وآخر أيضاً، كانت وصلة المحوّل التي كلفتهما مائة دولار تعطي اسمها تلقائياً كلما خاطب المذيع جمهورَه المجهول وتترك فراغاً حيث أمكن ملءُ المقاطع الملائمة. كما كان جهازُ ترميز موضعي تموجي خاص يظهر المنطقة المحيطة

بشفتيه في صورته المتلفزة وهما تلفظان الحروف الصوتية والحروف الساكنة بشكل جميل. كان المذيع صديقاً، لا شك في ذلك. كان صديقاً جيداً. "سيدة مونتاغ... انظري الآن إلى هنا تماماً".

أدارت رأسها. بالرغم من أنها لم تكن تصغي كما بدا بوضوح.

قال مونتاغ: "إنها مجرد خطوة واحدة نحو عدم الذهاب إلى العمل اليوم وعدم العمل غداً وعدم العمل في مركز الإطفاء على الإطلاق بعد الآن".

قالت ميلدرد: "لكنك ستذهب إلى العمل هذه الليلة، أليس كذلك؟".

- "لم أقرّر بعد. في هذه اللحظة لديّ شعور رهيب بأنني أريد أن أحطم أشياء، أن أقتل أشياء".

- "اذهب وخذ السيارة البيتل".

- "كلا، شكراً".

- "مفاتيح البيتل موضوعة على طاولة السرير. أنا أحب دائماً أن أقودَ بسرعة عندما يخالجني مثل هذا الشعور. تطلق العنان للسيارة حتى سرعة خمسة وتسعين ميلاً فيملأك إحساس رائع. أحياناً أقود السيارة طول الليل وأرجع بدون أن تعرف أنت. الخروج إلى الريف ممتع. تدهس أرانب وتدهس كلاباً في بعض الأحيان. اذهبْ وخذ البيتل".

- "كلا لا أريد ذلك هذه المرة، أريد أنْ أتشبّث بهذا الأمر الغريب. يا إلهي، إنه يطغى علي. لا أعرف ما هو. يا للعنة كم أنا تعيس. أنا

غاضب جداً ولا أعلم لماذا. أشعر وكأن وزني يزداد. أشعر بأنني بدين. أشعر وكأنني دأبتُ على تخزين أشياء، ولا أعلم ما هي. وقد أبدأ حتى بقراءة كتب".

- "سيضعونك في السجن، أليس كذلك؟".

نظرت إليه وكأنه واقفٌ خلف الجدار الزجاجي.

بدأ يرتدي ثيابه وهو يتنقّل بعصبية في غرفة النوم. قال: "نعم، وقد تكون تلك فكرة جيدة. قبل أن أؤذي أحداً، هل سمعت ما قاله بيتي؟ هل أصغيت إليه؟ إنه يعرف جميع الإجابات، إنه محق. السعادة هامة. التسلية هي كل شيء. وبالرغم من ذلك ظللت جالساً هناك أقول لنفسي إنني لست سعيداً، إنني لست سعيداً".

أشرف فمُ ميلدرد بابتسامة عريضة وقالت: "أنا سعيدة وأنا فخورة بذلك".

قال مونتاغ: "سأفعل شيئاً ما. لا أعرف إلى هذه اللحظة ماذا سأفعل حتى. لكنني سأفعل أمراً كبيراً".

قالت ميلدرد: "لقد سئمتُ سماعَ هذه التفاهات"، أشاحت بوجهها عنه ونظرت إلى المذيع.

لمس مونتاغ زر التحكم بالصوت في الجدار وصمت المذيع.

- "ميللي". تمهل ثم أضاف: "هذا منزلك كما هو منزلي، وأشعر بأن من الإنصاف أن أبلغك أمراً الآن. كان ينبغي أن أبلغك إياه من قبل، لكنني لم أكن أعترف به حتى لنفسي. لديّ شيء أريدك أن تريه، شيء وصنعته جانباً وخبّأته خلال السنة الماضية، الآن وفي فترات

متكررة بين حين وآخر. لم أعرف لماذا لكنني فعلت ما فعلت و لم أخبرك".

أمسك مقعداً مستقيم الظهر ودفعه ببطء وثبات إلى رواق المدخل قرب الباب الأمامي. صعد على المقعد ولبث متسمراً برهة من الزمن وكأنه تمثال على قاعدة وزوجته واقفة تحته تنتظر ثم رفع يده عالياً وسحب شبك فتحة نظام تكييف الهواء. مد يده عميقاً في الجهة اليمنى من الفتحة وحرّك لوحاً معدنياً منزلقاً آخر وأخرج كتاباً. تركه يقع على الأرض بدون أن ينظر إليه، وضع يده في الفتحة من جديد وأخرج كتابَيْن، أنزل يده وترك الكتابين يهويان على الأرض. واصل تحريك يده وإلقاء كتب على الأرض. كتب صغيرة وأخرى أكبر إلى حد ما، كتب صفراء وحمراء وخضراء. وعندما انتهى نظر إلى أسفل محدقاً في حوالى عشرين كتاباً مبعثرة عند قدمي زوجته.

قال: "أنا أسف. لم أكن أفكّر في الواقع. لكن يبدو الآن أننا متورطان في هذه المسألة معاً".

تراجعت ميلدرد كما لو فوجئت بجيش من الفئران طلع عليها من الأرض. كان في استطاعته أن يسمعها تتنفّس بسرعة وقد شحب وجهها واتسعت حدقتاها. لفظت اسمَه مرّتَيْن، ثلاث مرات، ثم تقدمت بسرعة وهي تنوح وحملت كتاباً جرت به إلى محرقة المطبخ.

لحق بها صارخاً وأمسكها. جربت أن تقاتله لتدفعه بعيداً عنها وحاولت أن تخدشه.

– "كلا يا ميللي، كلا! توقفي ألا تتوقفين؟ أنت لا تعلمين...

توقفي!" صفعها على وجهها وأمسك بها من جديد وهزّها.

نادت اسمه وبدأت تبكي.

قال: "ميللي، اسمعي. أعطيني ثانية واحدة. أرجوك. لا نستطيع أن نفعل أي شيء. لا نستطيع أن نحرق هذه الكتب. أريد أن ألقي نظرة عليها، أريد أن ألقي نظرة عليها مرة على الأقل. ثم إذا تبيّن أن كلام الكابتن صحيح سنحرقها معاً. صدقيني، سنحرقها معاً. يجب أن تساعديني". ثبّت نظره على وجهها وأمسك ذقنَها وضمّها إليه بقوة، لم يكن ينظر إليها فقط، بل كان يستقرئ وجهها في ما يتعلق به هو وما ينبغي أن يفعل. قال: "سواء أعجبنا الأمر أم لا، نحن متورطان. أنا لم أطلب منك الكثير قط في كل هذه السنين، لكنني أفعل ذلك الآن. إنني أناشدك. علينا أن نبدأ في مكان ما هنا، علينا أن نتبين لماذا نحن في مأزق كهذا. أنتِ وليالي الدواء والسيارة وأنا وعملي، إننا نتجه إلى حافة الهاوية مباشرةً يا ميللي. رباه، لا أريد أن أقع في الهاوية. لن يكون الأمر سهلاً، ليس لدينا شيء نستعين به، لكن ربما نستطيع أن نستنبط طريقة وأن نجد حلاً وأن يساعد واحدُنا الآخر. أنا في أمس الحاجة إليكِ الآن، لا أستطيع أن أصف لك مدى هذه الحاجة. وإذا كنت تحبينني على الإطلاق ستتحملين معي مدة أربع وعشرين ساعة، ثمان وأربعين ساعة، هذا كل ما أطلبه منك، وبعد ذلك سينتهي الأمر. أعِدُك. أُقسم لك! وإذا وُجد هنا أمر ما، مجرد أمر صغير واحد في خضم هذه الفوضى يمكن إلصاقه بشخص آخر، فسوف نفعل".

لم تعد تقاومه فأخلى سبيلها. انسلت مبتعدةً عنه وانزلقت على الجدار وجلست على الأرض تنظر إلى الكتب. لامست قدمُها كتاباً ولاحظت هي ذلك فسحبت قدمها بعيداً.

– "هذه المرأة في تلك الليلة يا ميللي، أنت لم تكوني هناك. لم تشاهدي وجهها. وكلاريس، أنت لم تتكلمي معها ولا مرة. أنا تكلمت معها. والرجال من أمثال بيتي يخافون منها. لا أستطيع أن أفهم ذلك. لماذا يخافون من شخص مثلها؟ لكنني ظللت أقارنها بالإطفائيين في المركز ليلة أمس وأدركت فجأةً أنني لا أحبهم أجمعين ولم أعد أحب نفسي كذلك. وفكّرت أن الأفضل قد يكون إحراق الإطفائيين أنفسَهم".

– "غابي!".

كان صوت الباب الأمامي ينادي بنعومة:

"سيدة مونتاغ، سيدة مونتاغ، يوجد شخص هنا، يوجد شخص هنا، سيدة مونتاغ، سيدة مونتاغ، يوجد شخص هنا".

بنعومة.

استدارا ليحدقا في الباب والكتب المتناثرة في أكوام في كل مكان.

– "بيتي!" قالت ميلدرد.

– "لا يمكن أن يكون هو".

همستْ: "لقد عاد".

نادى صوتُ الباب الأمامي مرة جديدة بنعومة: "يوجد شخص هنا...".

– "لن نردّ". سند مونتاغ ظهره على الحائط ثم انزلق ببطء إلى أن ربض على الأرض وبدأ يلكز الكتب بإبهامه وسبابته وهو شارد تماماً. كان يرتجف، وقد أراد قبل كل شيء أن يعيد رفع الكتب إلى فتحة التهوية من جديد، لكنه كان يعلم أنه لن يتمكن من مواجهة بيتي مرة أخرى. جثم على الأرض ثم استوى جالساً. عاد صوت الباب الأمامي إلى الكلام بلهجة أكثر إلحاحاً. التقط مونتاغ كتاباً منفرداً صغير الحجم عن الأرض. "أين نبدأ؟". فتح الكتاب نصفَ فتحة ودقّق النظر فيه. "أظن أننا نبدأ بالبداية".

قالت ميلدرد: "سوف يدخل ويحرقنا نحن والكتب".

خفت صوت الباب الأمامي واختفى في آخر الأمر. ساد صمتٌ وأحس مونتاغ بوجود شخص ما خلف الباب ينتظر ويستمع. ثم سُمِع صوتُ خطوات تبتعد على الممشى وعبر المرج.

قال مونتاغ: "لنرَ ما هذا".

نطق الكلمات بتردّد وخجل شديد. قرأ حوالى اثنتي عشرة صفحة هنا وهناك ثم وصل في آخر الأمر إلى ما يلي:

– "لقد تم احتساب أن أحد عشر ألف شخص فضلوا في أوقات مختلفة التعرض للموت على القبول بأن تكسر بيضة فطورهم من الطرف الأصغر".

جلست ميلدرد مقابله في الرواق. قالت: "ماذا يعني ذلك؟ إنه لا يعني أي شيء. كان الكابتن محقاً".

قال مونتاغ: "ها نحن الآن. سنبدأ من جديد. سنبدأ بالبداية".

الفصل الثاني

الغربال والرمل

ظلاّ يقرآن خلال فترة بعد الظهر الطويلة فيما كان مطر تشرين الثاني البارد يتساقط على المنزل الساكن. جلسا في رواق المدخل لأن الردهة كانت شديدة الخواء والكآبة بدون إضاءة الجدار بالقصاقيص البرتقالية والصفراء والألعاب النارية والنساء ذوات أثواب الشباك الذهبية والرجال مرتدي المخمل الأسود الذين يسحبون من قبعاتهم الفضية أرانب يزن واحدها مائة باوند. كانت الردهة ميتة وظلت ميلدرد تنظر إليها بتعبير فارغ فيما كان مونتاغ يسير جيئةً وذهاباً قبل أن يعود ويجلس القرفصاء ويعيد قراءة صفحة حتى عشر مرات بصوت عال.

"لا نستطيع أن نعرف بدقة اللحظة التي تتكون فيها الصداقة. وكما عند ملء إناء قطرة إثر قطرة توجد قطرة أخيرة تجعله يفيض، توجد في سلسلة من بوادر الود بادرة واحدة على الأقل تجعل القلب يفيض".

لبث مونتاغ جالساً يستمع إلى المطر.

- "هل هذا ما كان من شأن الفتاة من المنزل المجاور؟ لقد حاولت جاهدة أن أحزر".

- "لقد ماتت. فلنتكلم عن إنسان حي بحق السماء".

لم يُرجِع مونتاغ ناظريه إلى زوجته وهو يسير مرتجفاً عبر الرواق إلى المطبخ حيث وقف فترة طويلة يراقب قطرات المطر وهي تضرب زجاج النوافذ قبل أن يعود إلى الرواق في الضوء الباهت وهو ينتظر توقف رعشته.

فتح كتاباً آخر.

"ذلك الموضوع المفضّل لدي. نفسي".

نظر إلى الجدار شزراً وقال: "ذلك الموضوع المفضل لدي. نفسي".

- "أنا أفهم هذا العنوان"، قالت ميلدرد.

- "لكن الموضوع الأحب إلى كلاريس لم يكن شخصها. كان جميع الآخرين، ومنهم أنا. كانت أول شخص يعجبني حقاً منذ سنوات طويلة. كانت حسب ذاكرتي أول شخص ينظر إلي باستقامة وكأنّ لي قيمة". حمل الكتابَيْن وقال: "هذان الرجلان ميتان منذ زمن طويل، لكنني أعلم أن كلماتها تشير إلى كلاريس بطريقة أو أخرى".

سُمِع صوتُ خربشة خافت تحت المطر خارج الباب الأمامي.

تجمد مونتاغ. رأى ميلدرد ترمي نفسَها خلفاً على الحائط وهي تلهث.

- "شخص ما... الباب... لماذا لا ينبهنا مجهار الباب...".

- "لقد أطفأته".

شمشمة بطيئة فاحصة تحت عتبة الباب. زفير بخار كهربائي.

ضحكت ميلدرد. "هذا مجرد كلب. كلب ليس إلا! هل تريدني أن أطردَه بعيداً؟".

- "اِبقي حيث أنت!".

سكوت. المطر البارد ينهمر ورائحة كهرباء زرقاء تنسلّ من تحت الباب المُقفَل.

قال مونتاغ بهدوء: "دعينا نرجع إلى العمل".

ركلتْ ميلدرد أحد الكتب. قالت: "الكتب ليست بشراً. أنتَ تقرأ وأنا أجول بنظري في كل مكان. لكن لا يوجد أحد!".

حدّق في الردهة التي كانت ميتة وكئيبة كمياه محيط قد تضجّ بالحياة لو أضاؤوا الشمس الإلكترونية.

قالت ميلدرد: "اسمعْ الآن. عائلتي بشر. إنهم يقولون لي أموراً فأضحك أنا ويضحكون هم! والألوان!".

- "أجل، أعلم".

- "علاوةً على ذلك، لو علم الكابتن بيتي بأمر هذه الكتب...".

فكّرت في الأمر. بدت الدهشة على وجهها، ثم غمره الهلع. قالت: "من المحتمل أن يأتي ويحرق المنزل و"العائلة". هذا مريع! فكّر في استثمارنا. لماذا يجب أن أقرأ؟ لأي غاية؟".

قال مونتاغ: "لأي غاية! لماذا! لقد شاهدت أسوأ أفعى في العالم في تلك الليلة، كانت ميتة لكنها كانت حية. كانت تستطيع الرؤية وكانت

عاجزة عن الرؤية. هل تريدين مشاهدة هذه الأفعى؟ إنها في مستشفى الطوارئ حيث قدّموا تقريراً بجميع القذارات التي استخرجوها من جسمك! هل تودّين الذهاب إلى هناك والتحقق من ملفهم؟ ربما تبحثين تحت مسمّى غاي مونتاغ أو ربما خوف أو حرب. هل تودين الذهاب إلى ذلك المنزل الذي احترق في الليلة الماضية؟ هل تودين التنقيب في الرماد بحثاً عن عظام المرأة التي أشعلت النار في منزلها؟ وماذا عن كلاريس ماكليلان، أين نبحث عنها؟ المشرحة! اسمعي!".

عبرت قاذفات القنابل السماء وكررت عبور السماء فوق السماء وهي تلهث وتهمهم وتصفر كمروحة عملاقة غير مرئية تدور في فراغ.

قال مونتاغ: "يا إلهي، في كل ساعة تظهر في السماء كل هذه الأشياء اللعينة! بحق الجحيم كيف صعدت تلك القاذفات إلى هناك في الأعالي في كل ثانية في حياتنا! لماذا لا يريد أي شخص التحدث عن هذا الموضوع؟ لقد بدأنا وربحنا حربَيْن ذريّتيْن منذ عام ٢٠٢٢! هل السبب أننا نمرح كثيراً في بلادنا إلى درجة أننا نسينا العالم؟ هل السبب أننا أغنياء جداً وباقي العالم فقير جداً ونحن لا نبالي إذا كانوا فقراء؟ لقد سمعت إشاعات مفادها أن العالم يتضور جوعاً لكننا نتغذى جيداً. هل صحيح أن العالم يعمل ونحن نلعب؟ ألهذا السبب نحن مكروهون إلى هذا الحد؟ لقد سمعتُ أيضاً الإشاعات عن الكراهية، سمعتُها مرة قبل فترة طويلة على مر السنين. أتعرفين لماذا؟ أنا لا أعرف، وهذا أكيد! ربما تستطيع الكتب إخراجنا نصف المسافة من الكهف، من

المحتمل أن يكون في وسعها منعُنا من ارتكاب نفس الأخطاء المجنونة اللعينة! أنا لا أسمع أولئك الأوغاد الأغبياء في ردهتك يتكلمون عن الموضوع. بحق السماء يا ميللي، ألا ترين؟ ساعة في اليوم، ساعتان مع هذه الكتب، وربما...".

رنّ الهاتف. تناولت ميلدرد السماعة خطفاً.

- "آن!". ضحكت وقالت: "بلى، المهرِّج الأبيض مُبرمج هذه الليلة!"

سار مونتاغ إلى المطبخ ورمى الكتاب من يده. قال: "يا مونتاغ، أنت غبي حقاً. إلى أين نذهب من مكاننا هذا؟ هل نسلّم الكتب، ننسى الموضوع؟ فتح الكتاب ليقرأ بالتزامُن مع ضحك ميلدرد.

فكّر: ميللي المسكينة. مونتاغ المسكين، هذا وحل بالنسبة إليك أيضاً. لكنْ من أين تجلب المساعدة، أين تجد معلّماً في هذا الوقت المتأخر؟

اصبرْ. أغمض عينيْه. نعم، بالطبع. وجد نفسه مرة أخرى يفكر في الحديقة الخضراء قبل سنة، لقد خطرت له هذه الفكرة مرات عديدة في الآونة الأخيرة، لكنه تذكّر الآن كيف كان الأمر في ذلك اليوم في حديقة المدينة عندما رأى الرجل العجوز في البزة السوداء يخبّئ شيئاً بسرعة في سترته.

... قفز الرجل العجوز وكأنه يريد أن يركض، وقال له مونتاغ "انتظر!".

صاح الرجل العجوز وهو يرتعش: "أنا لم أفعلْ شيئاً!".

- "لم يقلْ أحد إنك فعلتَ شيئاً".

جلسا آنذاك برهة في الضوء الأخضر الناعم بدون أن يقول أحدهما كلمة، ثم تحدث مونتاغ عن الطقس وبعد ذلك أجابه الرجل العجوز بصوت باهت. كان لقاءً غريباً هادئاً. اعترف الرجل العجوز بأنه أستاذ متقاعد للغة الإنكليزية وقد أصبح عالة على العالم قبل أربعين سنة عندما أُغلقت آخر كلية للآداب والعلوم الإنسانية أبوابها بسبب الافتقار إلى الطلاب والرعاية. كان اسمه فابر، وعندما زال خوفه من مونتاغ في آخر الأمر تكلم بصوت إيقاعي وهو ينظر إلى السماء والأشجار والحديقة الخضراء. وبعد مضي ساعة قال شيئاً لمونتاغ الذي أحس بأن هذا شعر بلا قافية. ثم أصبح الرجل العجوز أكثر جرأةً حتى من ذي قبل وقال شيئاً آخر، وكان هذا شعراً أيضاً. وضع فابر يده فوق الجيب الأيسر لمعطفه ونطق هذه الكلمات بلطف. وكان مونتاغ يعلم أنه لو مد يده لكان من المحتمل أن يُخرِج ديوان شعر من معطف الرجل. لكنّه لم يمد يده. ظلّت يداه على ركبتَيْه، ظلّتا خدرَتيْن لا فائدة منهما. قال فابر: "أنا لا أقول أشياء يا سيدي. أنا أقول معنى الأشياء. أنا أجلس هنا وأعرف أنني حي".

كان هذا كلّ ما في الأمر حقاً. ساعة من حديث أحادي الطرف، شعر، تعليق ثم كتب الرجل بيد مرتجفة عنوانه على قصاصة ورق بدون أن يقرّ بمعرفته أن مونتاغ إطفائي. قال: "هذه لملفك إذا قررت أن تستاء مني".

دُهش مونتاغ وقال: "أنا لست مستاءً".

قهقهت ميلدرد عالياً وهي تضحك في الرواق.

توجّه مونتاغ إلى خزانته في غرفة النوم وقلب محتويات ملفه متعدد المحافظ ليصل إلى عنوان **تحقيقات مستقبلية**. كان اسم فابر هناك. لم يسلِّم الاسم ولم يمحُه كذلك.

أجرى المكالمة على هاتف ثانوي. نادى آخرُ جهاز في صفّ الهواتف اسم فابر أكثر من عشر مرات قبل أن يجيب الأستاذ بصوت ضعيف. عرف مونتاغ عن نفسه وقوبل بصمت طويل.

- "نعم يا سيد مونتاغ؟".

- "أستاذ فابر، لديّ سؤال غريب إلى حد ما أود أن أطرحَه عليك. كم نسخة من الكتاب المقدّس ما زالت موجودة في هذا البلد؟".

- "لا أعرف عمّاذا تتكلّم!".

- "أريد أن أعرف ما إذا كانت أية نسخ قد بقيت على الإطلاق".

- "هذا شرك من نوع ما! لا يمكنني أن أتكلم على الهاتف مع أي شخص كائناً من يكون".

- "كم نسخة من شيكسبير وأفلاطون؟".

- "ولا نسخة واحدة، أنت تعلم ذلك مثلما أعلم أنا، ولا نسخة!".

أعاد فابر السماعة إلى مكانها.

أغلق مونتاغ الخط، ولا نسخة واحدة، هذا أمر كان يعرفه من لوائح مركز الإطفاء لكنه أراد بشكل ما أن يسمع ذلك من فابر نفسه.

كان وجه ميلدرد الماكثة في الرواق متوهجاً من شدة حماسها...

قالت: "حسناً، السيدات آتياتٌ إلى هنا!".

أراها مونتاغ كتاباً. قال: "هذا العهد القديم والعهد الجديد من الكتاب المقدس و...".

- "لا تبدأ ذلك من جديد!".

- "قد تكون هذه آخر نسخة في هذا الجزء من العالم".

- "عليك أنْ ترجعها هذه الليلة، أليس كذلك؟ بيتي يعلم أنها في حوزتك، أليس كذلك؟".

- "لا أخاله يعرف أي كتاب سرقت، لكن كيف أختارُ بديلاً؟ هل أعيدُ السيد جفرسون؟ السيد ثورد؟ أيهما الأدنى قيمةً؟ إذا اخترعت بديلاً وكان بيتي يعلم فعلاً أي كتاب سرقت سيحزر أن لدينا مكتبة كاملة هنا!".

ارتعش فم ميلدرد. "أترى ماذا تفعل؟ سوف تدمرنا! من أهم، أنا أم ذلك الكتاب المقدس؟".

بدأت تصرخ الآن وهي جالسة هناك كدمية من شمع تذوب في حرارتها الذاتية.

كان في وسعه سماع صوت بيتي وهو يقول: "اجلس يا مونتاغ. تفرج. برقة. كوريقات تاج زهرة. أشعل الصفحة الأولى. أشعلْ الصفحة الثانية. كل منهما تصبح فراشة سوداء. منظر جميل، إيه؟ أشعل الصفحة الثالثة من الصفحة الثانية وهكذا دواليك، تدخين بلا انقطاع، فصل بعد فصل، كل الأشياء السخيفة التي تعنيها الكلمات، كل الوعود الكاذبة، كل المفاهيم المستهلكة والفلسفات التي اهترأت

مع الزمان". جلس بيتي هناك متعرّقاً قليلاً والأرضية مغطاة بأسرابٍ من حشرات العثّ السوداء التي نفقت في عاصفة واحدة.

توقفت ميلدرد عن الصراخ بسرعة مثلما بدأت. لم يكن مونتاغ مصغياً. قال: "يوجد شيء، واحد فقط نفعله. يجب أن أستخرج نسخة في وقت ما قبل أن أعطي بيتي الكتاب هذه الليلة. يجب أن أستخرج نسخة".

قالت ميلدرد بصوت عالٍ: "هل ستكون هنا الليلة لمشاهدة المهرج الأبيض، والسيدات آتيات أيضاً؟".

توقّف مونتاغ عند الباب مديراً ظهره لها. قال: "ميللي؟".

سكون. "ماذا؟".

- "ميلي، هل يحبك المهرج الأبيض؟".

لا جواب.

- "ميللي، هل..."، لحس شفتيه، "... هل تحبك عائلتك، هل تحبك كثيراً، هل تحبك بكل قلبها وروحها يا ميللي؟".

شعر بعينيها تطرفان ببطء وهي ترمق الجهة الخلفية من عنقه. قالت: "لماذا تطرح سؤالاً سخيفاً كهذا؟".

أحس بأنه يريد أن يبكي، لكنْ لم يحدث أيّ شيء لعينيه أو فمه.

قالت ميلدرد: "إذا رأيت ذلك الكلب في الخارج اركله نيابةً عني".

تردّد وهو يصيخ السمع عند الباب. فتح الباب وخرج.

كان المطر قد توقّف والشمس تغرب في السماء الصافية. لم يكن

هناك أحد في الطريق وعلى المرج والشرفة. ترك نفَسَه يخرج في تنهيدة ارتياح كبيرة.

صفق الباب.

كان في قطار الأنفاق.

فكّر: أنا خَدِر. متى بدأ الخدر في وجهي فعلاً؟ وفي جسمي؟ في الليلة التي ركلتُ فيها قارورة الحبوب في الظلام، كركل لغم مدفون.

فكر أنّ الخدر سوف يزول. سيأخذ ذلك وقتاً، لكنني سأفعلها، أو سيفعلها فابر من أجلي. شخص ما في مكان ما سيعيد إلي الوجه القديم واليدين القديمتين كما في الماضي. وحتى البسمة، فكّر مونتاغ، البسمة القديمة الموسومة التي اختفت، أنا ضائع بدونها.

كان النفق يطير مارّاً أمامه. بلاط قشري، سواد قاتم، بلاط قشري، سواد قاتم، أرقام وظلمة، مزيد من الظلمة وكل شيء يكمل ذاته بذاته.

جلس مرة وهو طفل على كثيب رملي أصفر قرب البحر في منتصف يوم صيفي حار ثقيل الوطأة يحاول ملء غربال بالرمل لأنّ نسيباً قاسي القلب قال له: "اِملأ هذا الغربال وستحصل على عشرة سنتات!".

وكلما عجّل في صب الرمل كلما تسارع انسيابه إلى الخارج بهمس ساخن، تعبت يداه، وكان الرمل ساخناً يكاد يغلي وظل الغربال فارغاً. وفيما هو جالس هناك في منتصف شهر تموز بدون أن يصدر أي صوت شعر بالدموع تسيل على وجنتيه.

الآن وفيما كان القطار الفراغي يحمله بسرعة فائقة عبر الأقبية الميتة

للمدينة ويرجّه مع حركته تذكّر مونتاغ المنطق الرهيب لذلك الغربال. نظر إلى أسفل ورأى أنّه يحمل الكتاب المقدّس في يديه. كان هناك أناس داخل هذا القطار المتحرك بقوة الامتصاص الفراغي، غير أنه ظل ممسكاً بالكتاب في يديه، وجاءته فكرة سخيفة: إذا قرأت بسرعة وقرأت كل شيء فمن المحتمل أن يبقى بعض الرمل في الغربال.

قرأ لكنّ العوالم تساقطت. فكّر أن بيتي سيكون موجوداً بعد ساعات قليلة وأنا سأكون هناك لأسلّمه هذا الكتاب. لا يجوز أن تفوتني أية عبارة، لا بد من حفظ كل سطر عن ظهر قلب. سوف أرغم نفسي على فعل ذلك.

ضغط على الكتاب بشدة في قبضته.

صدحت أبواق.

"معجون أسنان دنهام".

اخرس، قال مونتاغ في ذهنه، فكر في زنابق الحقل.

"معجون أسنان دنهام".

إنهم لا يجهدون أنفسهم...

"... دنهام".

فَكِّرْ في الزنابق. اخرس. اخرس.

"معجون أسنان!".

فتح الكتاب على عجل وراح يقلب الصفحات ويستشعرها وكأنه أعمى. تحسس شكل الحروف، كل على حدة، بدون أن تطرف عيناه.

"دنهام، تُهجّى د... ن... هـ...".

إنهم لا يجهدون أنفسهم، ولا...

همسة عنيفة من الرمل الحار عبر غربال فارغ.

"معجون دنهام يفعلها!".

فَكِّرْ في الزنابق، الزنابق، الزنابق...

"منظف أسنان دنهام".

اخرس، اخرس، اخرس. كانت مناشدة؛ كانت صرخة رهيبة إلى درجة أن مونتاغ وجد نفسه واقفاً على قدميه والركاب المصدومون في العربة الصاخبة يحدقون فيه ويتراجعون بعيداً عن هذا الرجل ذي الوجه المنتفخ المجنون والفم الثرثار الجاف والكتاب المصفق في قبضته. والناس الذين كانوا جالسين قبل لحظة ينقرون بأقدامهم إيقاع دعاية معجون أسنان دنهام، دعاية منظف أسنان دنهام الراقي، معجون أسنان دنهام، معجون أسنان، معجون أسنان، واحد اثنان، واحد اثنان ثلاثة، واحد اثنان، واحد اثنان ثلاثة. الناس الذين كانت أفواههم ترتجّ قليلاً وهي تردد كلمات معجون الأسنان معجون الأسنان معجون الأسنان. وانتقاماً من مونتاغ دلق عليه راديو القطار حمولةً ثقيلة زنتُها طنّ من الموسيقى المكوَّنة من التنك والنحاس والفضة والكروم والنحاس الأصفر. كان الناس صاغرين لكثرة ما سُحقوا، لم يهربوا، لم يكن هناك مكان يهربون إليه، وانحدر القطار الهوائي العظيم نزولاً في نفقه في باطن الأرض.

"زنابق الحقل".

"معجون دنهام"

"زنابق، قلت أنا"

حملق الناس.

- "استدع الحارس".

- "الرجل في إجازة".

- "محطة نول فيو".

توقف القطار مهسهساً.

- "محطة نول فيو!". صرخة.

- "معجون دنهام". همسة.

بالكاد تحرك فم مونتاغ: "زنابق..."

انفتح باب القطار بعبوات صغيرة، وقف مونتاغ على قدميه. لهث الباب وبدأ ينغلق. في تلك الحظة فقط قفز مونتاغ متجاوزاً الركاب الآخرين وصارخاً في عقله ورمى نفسه عبر فتحة الباب المتضيقة في آخر لحظة.

جرى على البلاط الأبيض صعوداً في الأنفاق متجاهلاً السلالم المتحركة لأنه أراد الإحساس بقدميه وهما تتحركان وذراعيه وهما تلوحان ورئتيه وهما تنقبضان وتنفتحان وحنجرته وهي تجف بفعل الهواء.

تهادى إليه من الخلف صوت يردد "معجون دنهام، معجون دنهام، معجون دنهام". هسهس القطار كأفعى.

اختفى القطار في جحره.

- "من أنت؟".

- "أنا مونتاغ في الخارج".
- "ماذا تريد؟".
- "دعني أدخل".
- "لم أفعل أي شيء".
- "أنا وحدي بحق الجحيم".
- "هل تقسم أنك وحدك؟".
- "أقسم!".

انفتح الباب الأمامي ببطء. نظر فابر إلى الخارج وبدا هرماً جداً في ذلك الضوء وضعيفاً جداً وخائفاً جداً جداً. بدا الرجل العجوز وكأنه لم يخرج من المنزل منذ سنوات. كان لونه شبيهاً جداً بلون الجدران الداخلية المكسوة بالحصى الأبيض. كان هناك بياض في لثة فمه وجلد وجنتيه. كان شعره أبيض وقد ذبلت عيناه وتسلل البياض إلى زرقتهما الباهتة.

وما لبثت عيناه أن لمحتا الكتاب المدسوس تحت ذراع مونتاغ، فلم يعد يبدو هرماً جداً وضعيفاً جداً كما بدا من قبل. وببطء زال خوفه.

- "أنا آسف. على المرء أن يكون حذراً".

نظر إلى الكتاب تحت ذراع مونتاغ و لم يستطع التوقف عن النظر. قال: "هذا صحيح إذاً".

خطا مونتاغ إلى الداخل وانغلق الباب.

- "اجلس". تراجع فابر كما لو خاف أن يختفي الكتاب إذا أبعد ناظريه عنه. كان خلفه باب مفتوح يؤدي إلى غرفة نوم. كانت

مجموعة متنوعة من الآلات والأدوات الفولاذية مبعثرة فوق طاولة في تلك الغرفة. فلم يُلقِ مونتاغ إلا نظرة عابرة قبل أن يلاحظ فابر تحول انتباه مونتاغ فاستدار بسرعة وأغلق باب غرفة النوم ولبث قابضاً على مسكة الباب بيد مرتعشة عادت نظرته بتردد إلى مونتاغ الذي كان جالساً الآن والكتاقب في حضنه. "الكتاب... أين...؟".

- "لقد سرقته".

رفع فابر عينيه لأول مرة ونظر مباشرةً إلى وجه مونتاغ وقال: "أنت شجاع".

"كلا"، قال مونتاغ، "زوجتي تموت. ولقد مات أحد أصدقائي بالفعل. وثمة شخص يحتمل أنه كان صديقاً أُحرق قبل أقل من أربع وعشرين ساعة، وأنت الشخص الوحيد الذي عرفت أنه قد يساعدني لأرى. لأرى...".

أحس فابر بحكة في يديه الجاثمتين على ركبتيه. قال: "هل تسمح لي؟".

- "آسف". ناوله مونتاغ الكتاب.

- "لقد مضى زمن طويل. أنا لست رجل متديناً، لكنْ مضى زمن طويل". قلب فابر الصفحات متوقفاً هنا وهناك ليقرأ. "إنه بذات الجودة كما أتذكر. يا ربّ، كيف غيروه في ردهاتنا في هذه الأيام. لقد أصبح المسيح فرداً من العائلة الآن. وأتساءل أحياناً ما إذا كان الله يتعرف إلى ابنه كما غندرناه، أم هل الأصح أننا قبّحناه؟ إنه في هذه الأيام إصبع من حلوى النعناع العادية، كله سكر متبلور وسكرين

عندما لا يقدم إشارات مواربة إلى منتجات تجارية معينة يحتاج إليها كل متعبّد حاجة مطلقة". شمّ فابر الكتاب وقال: "هل تعلم أن للكتب رائحة جوزة الطيب أو أحد التوابل الآتية من بلد أجنبي؟ كنت أحب أن أشم الكتب عندما كنت صبياً يا إلهي، كانت هناك كتب كثيرة رائعة في ما مضى قبل أن نتخلى عنها. قلب فابر الصفحات وقال: "سيد مونتاغ، أنت تنظر إلى رجل جبان. لقد أدركت كيف كانت الأمور تسير قبل زمن طويل. لم أقل شيئاً، أنا أحد الأبرياء الذين كان في وسعهم أن يجاهروا برأيهم، ويحتجوا عندما لم يكن أحد يستمع إلى المذنبين، لكنني لم أتكلم وأصبحت أنا نفسي مذنباً نتيجة لذلك. وعندما حضروا الموضع المخصص لإحراق الكتاب في آخر الأمر تنحنحت مرات قليلة ثم هدأت لأن ما من شخص آخر تنحنح أو صرخ معي. في ذلك الوقت، والآن تأخر الوقت كثيراً". أغلق فابر الكتاب المقدس وقال: "حسناً، هل أفترض أنك ستخبرني لماذا حضرت إلى هنا؟".

– "ما عاد أحد يصغي. لا أستطيع التكلم مع الجدران لأنها تصرخ في وجهي. لا أستطيع التكلم مع زوجتي، هي تستمع إلى الجدران، أريد فقط شخصاً يستمع إلى ما لدي قوله. وربما سيكون لكلامي معنى إذا أطلت التحدث فترة كافية. وأريدك أن تعلمني فهم ما أقرأه".

تفحص فابر وجه مونتاغ الناحل وفكه الأزرق. سأله: "كيف اضطربت؟ ما الذي أسقط المشعل من يديك؟".

– "لا أدري. لدينا كل ما يلزمنا لنكون سعداء. لكننا لسنا سعداء.

ثمة شيء ناقص. لقد نظرت حولي. الشيء الوحيد الذي علمت قطعاً أنه اختفى كان الكتب التي أحرقتها خلال عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة... لهذا السبب فكرت أن الكتب قد تساعد".

قال فابر: "أنت رومانسي لا أمل في شفائه. سيكون الأمر مضحكاً لو لم يكن جدياً. ليست الكتب ما تحتاج إليه بل بعض الأشياء التي كانت موجودة في الكتب في وقت ما. ومن المحتمل أن تكون نفس الأشياء موجودة اليوم في عوائل الردهات، ومن الممكن تظهير ذات التفاصيل اللامتناهية ونفس الوعي عبر الاذاعات ومحطات التلفزيون، لكن ذلك لا يحصل، لا، لا، الكتب ليست كل ما تبحث عنه أنت! خذ مجهودك إلى حيث تستطيع العثور على ما تبحث عنه، في أسطوانات الفونوغراف القديمة، أفلام السينما القديمة، ولدى الأصدقاء القدماء. ابحث عن مبتغاك في الطبيعة وابحث عنه في نفسك. كانت الكتب نوعاً واحداً فقط من الأوعية التي حزنا فيها أشياء كثيرة خوفاً من احتمال أن ننساها. لا يوجد فيها أي شيء سحري على الإطلاق. السحر موجود فقط في ما تقوله الكتب وكيف خاطت رُقع الكون معاً في رداء واحد لنا. بالطبع لم يكن في وسعك أن تعرف ذلك، بالطبع ما زلت غير قادر على فهم ما أعنيه عندما أقول كل هذا الكلام. أنت محق بالحدس، وهذا هو المهم. هناك ثلاثة أشياء ناقصة".

"أولاً: هل تعلم لماذا تحظى كتب كهذا بكل هذه الأهمية؟ لأنها ذات نوعية. وماذا تعني كلمة نوعية؟ إنها تعني الجوهر بالنسبة إلي. لهذا الكتاب مسام. له معالم. يمكن لهذا الكتاب أن يوضع تحت

المجهر. ستجد تحت الزجاج حياة تتدفق بغزارة لامتناهية. وكلما زاد عدد المسام كلما زادت قدرتك على تدوين تفاصيل حياتية أكثر صدقاً على كل إنش مربع من الورق وكلما أصبحت إغزر علماً. هذا هو تعريفي بأية حال. الكشف عن التفاصيل. تفاصيل جديدة. الكتّاب الجيدون كثيراً ما يلمسون الحياة. والكتّاب السيئون يمرون سريعاً فوقها، الكتّاب السيئون يغتصبونها ويتركونها للذباب".

"إذا هل ترى الآن لماذا يكرهون الكتب ويخافون منها؟ الكتب تكشف المسام في وجه الحياة. الناس المرتاحون لا يريدون إلا وجوه قمر شمعية بلا مسام وبلا شعر وبلا تعابير. إننا نعيش في زمن تحاول فيه الزهور أن تعيش على الزهور بدلاً من النمو على المطر المفيد والتربة المحسنة السوداء.

وحتى الألعاب النارية، مع كل جمالها، تأتي من كيمياء الأرض، ومع ذلك نظن أننا نستطيع أن ننمو بالتغذي على الزهور والألعاب النارية بدون أن نكمل الدورة رجوعاً إلى الواقع. هل تعرف أسطورة هرقل وأنيتوس المصارع العملاق الذي كان يتمتع بقوة لا تصدّق ما دام واقفاً بثبات على الأرض؟ لكن عندما رفعه هرقل في الهواء بدون جذور في الأرض هلك بسهولة. وإن لم يكن في هذه الأسطورة ما نتعلمه اليوم في هذه المدينة، وفي زمننا هذا، أكون أنا مجنوناً تماماً. حسناً، ها هو الشيء الأول الذي قلت إننا نحتاج إليه. النوعية، جوهر المعلومات".

– "والشيء الثاني؟".

- "أوقات الفراغ".

- "آه، لكن لدينا ساعات فراغ كثيرة".

- "ساعات عدم العمل، نعم. لكن الوقت لتفكير؟ إذا كنت لا تقود بسرعة مائة ميل في الساعة عند منعطف، حيث لا تستطيع التفكير في أي شيء إلا الخطر، تكون عندئذٍ لاهياً بلعبة ما أو جالساً في غرفة ما لا تستطيع فيها مجادلة تلفزيون الجدران الأربعة. لماذا؟ لأن التلفزيون حقيقي، إنه فوري وله بعد. يملي عليك ما تفكر ويقحم ذلك في ذهنك عنوةً. لا بد وأن يكون محقاً. يبدو محقاً جداً. إنه يدفعك إلى قبول استنتاجاته بسرعة فائقة لا تترك لعقلك وقتاً للاحتجاج. يا لهذا الهراء!".

- "العائلة وحدها هي بشر".

- "عفواً، هل تكرر ما قلته؟".

- "تقول زوجتي إن الكتب ليست حقيقية".

- "شكراً لله على ذلك. تستطيع إغلاقها، تستطيع أن تقول لها تمهلي لحظة، تلعب دور إله معها. لكن من الذي خلص نفسه مرة من المخلب الذي يقبض عليك عندما تلقي بذرة في ردهة تلفزيون؟ إنها تنميك في أي شكل تريد هي! إنها بيئة لا تقل حقيقةً عن العالم. تصبح الحقيقة وتكون الحقيقة. يمكن قهر الكتب بالعقل. لكن بالرغم من كل ما لدي من معرفة ونزوع إلى الشك لم أتمكن قط من مجادلة فرقة موسيقية سيمفونية من مائة عازف عامرة بالألوان وثلاثية الأبعاد وموجودة داخل تلك الردهات العصية على التصديق وهي جزء منها. كما ترى، ليست ردهتي إلا أربعة جدران مكسوة بالجص. وانظر

هنا. – مد يده وفيها سدادتان صغيرتان من المطاط. – من أجل أذني عندما أركب في قطار الأنفاق النفّاث".

قال مونتاغ وعيناه مغمضتان: "معجون أسنان دنهام، إنهم لا يجهدون أنفسهم، ولا يغزلون أيضاً. إلى أين نذهب من هنا؟ هل ستساعدنا الكتب؟".

– "فقط إذا أمكن إعطاؤنا الشيء الضروري الثالث. الشيء الأول كما قلت، هو نوعية المعلومات. الشيء الثاني هو وقت الفراغ اللازم لهضم المعلومات، والشيء الثالث هو الحق في القيام بأعمال على أساس ما نتعلمه من التفاعل بين الاثنين الأولين. وأستبعد أن يتمكن رجل طاعن في السن وإطفائي مستاء من فعل الكثير في هذه المرحلة المتأخرة من اللعبة...".

– "أستطيع جلب كتب".

– "أنت تخاطر".

– "هذا هو الجزء الجيد من الموت، عندما لا يكون لديك ما تخسره تستطيع تعريض نفسك للمخاطر التي تريدها".

ضحك فابر وقال: "ها أنت قد قلت شيئاً مثيراً للاهتمام بدون أن تكون قد قرأته!".

– "هل توجد أشياء من هذا النوع في الكتب؟ لقد قلت ذلك بدون تفكير!".

– "وهذا أفضل. أنت لم تبتكر هذا الكلام من أجلي أو من أجل أي شخص آخر، أو حتى من أجلك أنت".

مال مونتاغ إلى الأمام وقال: "فكرت بعد ظهر هذا اليوم أنه إذا تبين أن للكتب قيمة مستحقة فقد نجلب مطبعة ونطبع بعض النسخ الإضافية...".

- "نجلب نحن؟".

- "أنت وأنا".

عدّل فابر جلسته وقال: "آه، كلا".

- "لكن دعني أخبرك بخطتي".

- "إذا أصررت على إخباري علي أن أطلب منك أن ترحل".

- "لكن، ألست مهتماً؟".

- "ليس إذا بدأت تقول ذلك النوع من الكلام الذي قد يؤدي إلى إحراقي بسبب مجهودي. السبيل الوحيد الذي يحتمل أن يجعلني أستمع إليك هو أن يمكن بطريقة ما إحراق بناء الإطفائيين نفسه. وإذا كنت تقترح الآن أن نطبع كتباً إضافية وأن نجد ترتيباً لإخفائها في منازل الإطفائيين في جميع أنحاء البلاد بحيث تزرع بذور الشرك بين هؤلاء الحراقين، فإني أقول لك: أحسنت!".

- "ازرعْ الكتب، شغّل الإنذار وشاهد منازل الإطفائيين تحترق. هل هذا ما تقصده؟".

رفع فابر حاجبيه ونظر إلى مونتاغ وكأنه يرى رجلاً جديداً أمامه: "كنت أمزح".

- "لو ظننت أنها ستكون خطة جديرة بأن تجرب فلا بد لي من قبول رأيك بأنها ستساعد".

– "لا تستطيع أن تضمن أموراً من هذا النوع! فعندما كانت لدينا جميع الكتب التي نحتاج إليها ظللنا نصر بالرغم من ذلك على إيجاد أعلى جرف صخري لنقفز من فوقه. لكننا نحتاج بالفعل إلى متنفس، نحتاج بالفعل إلى المعرفة. وربما سنختار بعد ألف سنة جروفاً صخرية أصغر لنقفز من فوقها. والكتب موجودة لتذكرنا بمدى غبائنا وحماقتنا. إنها الحرس البريتورياني لقيصر. وفيما يتوالى الاستعراض على امتداد الجادة تهمس الكتب: تذكر يا قيصر أنك فانٍ. لا يقدر معظمنا على الجري هنا وهناك والتكلم مع كل شخص ومعرفة كل مدينة في العالم. ليس لدينا الوقت ولا المال أو هذا العدد الكبير من الأصدقاء. والأشياء التي تبحث عنها يا مونتاغ موجودة في العالم، لكن الطريقة الوحيدة التي تتيح لإنسان عادي أن يشاهد نسبة تسع وتسعين في المئة منها هي الكتاب. لا تطلب ضمانات، ولا تتطلع إلى الخلاص في أي شيء بمفرده، في شخص أو آلة أو مكتبة. قم بقسطك أنت من أجل الخلاص، وإذا غرقت فستموت وأنت مدرك على الأقل أنك كنت متجهاً نحو الشاطئ".

نهض فابر وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

– "إذاً؟"، سأل مونتاغ.

– "هل أنت جاد تماماً؟".

– "تماماً".

– "إنها خطة ماكرة، إذا كنت أنا نفسي أقول ذلك". نظر فابر بقلق إلى باب غرفة نومه. قال: "أن نرى مراكز الإطفاء تحترق في

جميع أنحاء البلاد، أن نراها تدمَّر كأوكار للخيانة، السمندل يلتهم ذيله! يا إلهي!".

- "لديّ قائمة بمساكن الإطفائيين في كل مكان بنوع معين من العمل السري...".

- "لا يمكنك أن تثق بالناس، وهذا هو الجزء القذر. أنت وأنا ومَنْ سوانا سيُشعل الحرائق؟".

- "ألا يوجد أساتذة مثلك، كتاب سابقون، مؤرخون، لغويون...؟"

- "أموات أو طاعنون في السن؟".

- "كلما كانوا أكبر سناً كلما كان ذلك أفضل لنا. هكذا لن يلاحظهم أحد. أنت تعرف عشرات منهم، اعترف بذلك!".

- "آه، يوجد ممثلون كثيرون لم يؤدّوا أدواراً في مسرحيات بيراندلو أو شو أو شكسبير منذ سنوات لأن مسرحيات هؤلاء مدركة جداً لأحوال العالم، في وسعنا استخدام غضبهم، كما يمكننا استخدام الاستياء الصادق الذي يشعر به المؤرخون الذين لم يكتبوا سطراً واحداً منذ أربعين سنة. صحيح، قد نشكل صفوفاً دراسية في التفكير والقراءة".

- "نعم!".

- "لكن ذلك لن يكون أكثر من إحداث وخزات صغيرة على الأطراف. الثقافة كلها منخورة. الهيكل بكامله يحتاج إلى صهر وإعادة تشكيل. يا إلهي، الأمر ليس ببساطة العودة إلى تناول

كتاب كنت قد ركنته قبل نصف قرن. تذكّر أن الإطفائيين نادراً ما يكونون ضروريين. لقد توقف عامة الناس أنفسهم عن القراءة بملء إرادتهم، وأنتم الإطفائيون تقدمون مشهداً كالسيرك بين حين وآخر فتحرقون أبنية وتحضر الجموع لتتفرج على ألسنة النار الجميلة، لكن هذا استعراض جانبي بالفعل ولا حاجة حقيقية إليه لإبقاء الأمور تحت السيطرة. لذا لم يعد إلا قليلون يريدون أن يكونوا متمردين. وكثيرون من هذه القلة، مثلي أنا، يجبنون بسهولة. هل تستطيع أن ترقص أسرع من المهرج الأبيض وأن تصرخ بصوت أعلى من صخب برنامج السيد غيميك وعائلات الردهات؟ إذا استطعت ذلك ستربح على طريقتك يا مونتاغ. وبأية حال، أنت أحمق. فالناس يتسلون بالفعل".

- "ينتحرون، يقتلون!".

كان سربٌ من قاذفات القنابل يحلق شرقاً طوال فترة حديثهما، لكن الرجلين لم يتوقفا ويصيخا إلا الآن وهما يشعران بالصوت العظيم للنفاثات يرتجف داخلهما.

- "اصبرْ يا مونتاغ. دع الحرب تنفّر العوائل. حضارتنا تمزق نفسها إلى قطع متناثرة. ابتعد عن آلة الطرد المركزي".

"يجب أن يكون أحد مستعداً عندما تنفجر".

"ماذا؟ رجال يقتبسون من ميلتون؟ يقولون: أنا أتذكر سوفوكليس؟ يذكّرون الناجين بأن للإنسان جانبه الخير أيضاً؟ لن يفعلوا أكثر من تجميع حجارتهم ليتراشقوا بها. مونتاغ، اذهب إلى دارك. اذهب إلى

سريرك. لماذا تضيع ساعاتك الأخيرة وأنت تجري داخل قفصك وتنكر أنك سنجاب؟".

- "إذاً أنت لم تعد تهتم؟".

- "أنا أهتم كثيراً جداً إلى درجة أني مرضت".

- "ولن تساعدني؟".

- "تصبح على خير، تصبح على خير".

رفعت يدا مونتاغ الكتاب المقدس. رأى ما فعلت يداه وبدا متفاجئاً.

- "هل تود امتلاك هذا؟".

قال فابر: "سأعطي ذراعي اليمنى لامتلاكه".

لبث مونتاغ هناك منتظراً حدوث الأمر التالي. تحركت يداه تلقائياً كرجُلين يعملان معاً وبدأتا في تمزيق صفحات من الكتاب. انتزعت اليدان الصفحة البيضاء في أول الكتاب ثم الصفحة الأولى وبعدها الثانية.

- "غبي. ماذا تفعل!" قفز فابر كما لو صُفِع. انقضّ على مونتاغ. صده مونتاغ وترك يديه تتابعان عملهما. سقطت على الأرض ست صفحات أخرى. التقط الأوراق وجعدها تحت نظر فابر.

قال الرجل العجوز: "لا تفعل، آه، لا تفعل!".

- "من يستطيع أن يمنعني؟ أنا إطفائي. أستطيع أن أحرقك".

وقف الرجل العجوز وهو ينظر إليه. قال: "لن تفعل".

- "أستطيع!".

- "الكتاب. لا تمزقه أكثر مما فعلت". أسقط فابر جسمه على مقعد ووجهه فاقع البياض وفمه يرتعش. قال: "لا تجعلني أشعر بمزيد من التعب. ماذا تريد؟".

- "أريدك أن تعلمني".

- "حسناً، حسناً".

وضع مونتاغ الكتاب من يده وبدأ يفرد الأوراق المجعدة ويملّسها فيما كان الرجل العجوز يراقبه متعباً.

هزّ فابر رأسه وكأنه يهمّ بالاستيقاظ.

- "مونتاغ، هل لديك أيّ مال؟".

- "القليل. أربعمائة خمسمائة دولار. لماذا؟".

- "اجلب المال. أعرف رجلاً كان يطبع نشرة كليتنا قبل نصف قرن. كانت تلك السنة التي أتيت فيها إلى الصف في بداية الفصل الدراسي ولم أجد إلا طالباً واحداً سجّل نفسه لدرس الدراما من اسكيلوس إلى أونيل. أترى؟ كم كان ذلك شبيهاً بتمثال جميل من الجليد يذوب تحت أشعة الشمس. أتذكّر الصحف وهي تموت كحشرات عثّ عملاقة. لم يرد أحد عودتها. لم يفتقدها أحد، وعندما رأت الحكومة كم هو مؤاتٍ لها أن لا يقرأ الناس إلا عن الشفاه الشهوانية وقبضة اليد الضاربة في المعدة بادرت إلى الإحاطة بالوضع عبر أكلة النار التابعين لكم. إذاً يا مونتاغ، لدينا هنا هذا الطبّاع العاطل عن العمل ويمكننا أن نبدأ بطباعة كتب قليلة وأن ننتظر حتى تكسر الحرب السياق الراهن وتعطينا الدفعة التي نحتاج إليها. قنابل قليلة وستخرس "العوائل"

في جدران جميع المنازل كجرذان المهرج! عندئذٍ قد تسمع في هذا الصمت وشوشة مسرحنا".

وقف الاثنان ينظران إلى الكتاب الموضوع على الطاولة.

قال مونتاغ: "اللعنة، حاولت أن أتذكر، لكن الفكرة تختفي عندما أدير رأسي. يا إلهي، كم أريد أن يكون لدي شيء أقوله للكابتن. لقد قرأ ما يكفي ليمتلك جميع الأجوبة أو ليبدو وكأنه يمتلكها، صوته شبيه بالزبدة. وأخشى أن يقنعني بالعودة إلى ما كنت عليه من قبل. قبل أسبوع واحد فقط كنت أفكر وأنا أضخّ خرطوماً من الكيروسين: يا إلهي، كم هذا ممتع!".

أومأ الرجل العجوز برأسه وقال: "أولئك الذين لا يبنون يجب أن يُحرَقوا. هذا واقع قديم قدم التاريخ والأحداث الجانحين".

- "إذاً هذا ما أكون أنا".

- "يوجد قدر من ذلك فينا جميعاً".

سار مونتاغ نحو الباب الأمامي. قال: "هل تستطيع مساعدتي بأي طريقة هذه الليلة للتعامل مع كابتن الإطفائيين؟ أحتاج إلى مظلة لأتفادى المطر. أنا خائف جداً من أن أغرق إذا تمكن مني مرة أخرى".

لم يقل الرجل العجوز شيئاً لكنه نظر ثانيةً بعصبية إلى غرفة نومه. لاحظ مونتاغ النظرة وسأله: "إذاً".

أخذ الرجل العجوز نفساً عميقاً وحبسه في صدره ثم زفره، أخذ نفساً ثانياً وعيناه مغمضتان وفمه مغلق بإحكام، ثم زفره في آخر الأمر. قال: "مونتاغ".

استدار الرجل العجوز بعد لأي وقال: "تعال معي. كان ينبغي في الواقع أن أتركك تخرج مباشرةً من منزلي. أنا عجوز أحمق جبان".

فتح فابر باب غرفة النوم وسار أمام مونتاغ إلى حجرة صغيرة فيها طاولة عليها عدد من الأدوات المعدنية بين خليط مشوش من الأسلاك المجهرية الدقيقة كالشعيرات ولفات الأشرطة الصغيرة والبكرات والبلورات.

– "ما هذا؟" سأل مونتاغ.

– "هذا إثبات جبني الرهيب. لقد عشت وحدي سنوات كثيرة جداً وأنا أرمي بمخيلتي صوراً على الجدران. كانت هوايتي التلهي بالإلكترونيات والبث الإذاعي. وقد اضطررت إلى تصميم هذا الذي تراه نظراً إلى مدى استحواذ جبني على عاطفتي وتكامله مع الروح الثورية المقيمة في ظله".

التقط غرضاً أخضر صغيراً لا يزيد طوله على طول رصاصة من عيار ٢٢ ملم.

– "لقد دفعت ثمن كل هذه الأشياء... كيف؟ بالمتاجرة في سوق الأوراق المالية بالطبع، وهذه السوق هي الملاذ الأخير للمثقف الخطر العاطل عن العمل. حسناً، لقد تاجرت في السوق وبنيت كل ما تراه وانتظرت. لقد انتظرت أن يتكلم معي شخص ما على مدى نصف عمري وأنا أرتعش. لم أجد الجرأة للتكلم مع أحد. وفي ذلك اليوم عندما جلسنا معاً في الحديقة علمت أنك قد تزورني يوماً ما حاملاً معك صداقة أو ناراً. كان من الصعب أن أحزر. وهذا الغرض الصغير

جاهز عندي منذ أشهر. لكنني كنت على وشك أن أتركك ترحل. أنا خائف إلى هذه الدرجة".

- "يبدو لي كراديو صدفة بحر".

- "وأكثر بعض الشيء! إنه يصغي! إذا وضعته في أذنك يا مونتاغ أستطيع أن أجلس مرتاحاً في منزلي وأن أُدفئ عظامي المذعورة وأن أسمع وأحلل عالم الإطفائيين وأن أكتشف نقاط ضعفه بدون أن أتعرض لخطر. أنا ملكة النحل الآمنة في قفيرها، ستكون أنت اليعسوب، ستكون الأذن المتنقلة. ومن الممكن أن أضع في نهاية المطاف آذاناً في مختلف أنحاء المدينة مع رجال مختلفين يستمعون ويقيمون. وإذا ماتت اليعاسيب أظل أنا آمناً في المنزل أعالج ذعري بأكبر قدر ممكن من الراحة وأقل قدر من المخاطرة. أترى إلى أي حدّ أراعي شروط الأمان وكم أنا جدير بالازدراء؟".

وضع مونتاغ الرصاصة الخضراء في أذنه، ودسّ الرجل العجوز غرضاً مشابهاً في أذنه وحرك شفتيه.

- "مونتاغ!".

أصبح الصوت داخل رأس مونتاغ.

- "أنا أسمعك!".

ضحك الرجل العجوز. قال: "وصوتك يصلني بصورة جيدة أيضاً!". همس فابر لكنّ الصوت كان واضحاً في رأس مونتاغ. "اذهب إلى مركز الإطفاء عندما يحين الوقت. سأكون أنا معك. لنستمع معاً إلى هذا الكابتن بيتي. من المحتمل أن يكون واحداً منا،

الرب يعلم. سأبلغك أموراً تقولها. سنقدم إليه عرضاً جيداً. هل تكرهني على جبني الإلكتروني هذا؟ هأنذا أرسلك إلى الخارج في الليل بينما أمكث خلف الخطوط وأذناي اللعينتان تستمعان توقعاً لأن يقطع رأسك".

قال مونتاغ: "نفعل جميعاً ما نفعله". وضع الكتاب المقدس في يد الرجل العجوز وقال: "خذ، سأخاطر بأن أسلم نسخة بديلة. غداً...".

– "سأرى الطبّاع العاطل عن العمل. أجل أستطيع أن أفعل ذلك".

– "ليلة سعيدة يا بروفسور".

– "لا ليلة سعيدة، سأكون معك بقية هذه الليلة كبعوضة خلّ صغيرة تدغدغ أذنك عندما تحتاج إلي. بأية حال، أتمنى لك ليلة طيبة وحظاً سعيداً".

فتح الباب وأُغلق. عاد مونتاغ إلى الشارع المظلم من جديد يتفرج على الدنيا.

كان في وسعك الإحساس بالتحضير للحرب في سماء تلك الليلة من طريقة تحرك الغيوم جانباً ثم عودتها، ومن الشكل الذي بدت عليه النجوم، مليون نجمة سابحة بين الغيوم كأقراص معادية، ومن الشعور بأن السماء قد تسقط على المدينة وتحولها إلى غبار طبشوري وبأن القمر سيشتعل في لهيب أحمر. هذا هو الشعور الذي كان الليل يوحي به.

سار مونتاغ مبتعداً عن قطار الأنفاق والمال في جيبه (كان قد زار المصرفَ المفتوحَ طول الليل كلَّ ليلة، وكان ويسيّره أمناء صندوق من الروبوطات). كان يستمع وهو ماشٍ إلى راديو صدفة البحر في

إحدى أذنيه... "لقد استنفرنا مليون رجل. سيكون النصر السريع لنا إذا وقعت الحرب..."، طغت الموسيقى سريعاً على الصوت الذي خبا.

همس صوت فابر في أذنه الأخرى: "استنفر عشرة ملايين رجل، لكن قُلْ مليوناً واحداً. هذا أكثر إبهاجاً".

- "فابر؟".

- "نعم؟".

- "أنا لا أفكر. أنا أفعل ما يُقال لي فقط، كعادتي دائماً. طلبت مني أن أحضر المال وقد فعلت. لم أفكر في ذلك بنفسي في الواقع، متى أبدأ في استقراء الأمور بمفردي؟".

- "لقد بدأت ذلك فعلاً بقولك ما قلته للتو. وسيتعين عليك أن تثق بصدق كلامي".

- "لقد وثقت بصدق كلام الآخرين!".

- "نعم، وانظر إلى أين نتجه. سيكون عليك أن تتنقل كأعمى لفترة من الزمن. ها هي ذراعي لتمسك بها".

- "لا أريد أن أغيّر الجهة وأن أؤمر فقط بما أفعله. لا داعي للتغيير إن كنت سأفعل ذلك".

- "ها أنت قد أصبحت حكيماً بالفعل".

شعر مونتاغ بقدميه تحركانه على الرصيف نحو منزله: "واصِلْ الكلام".

- "هل تريدني أن أقرأ؟ سأقرأ لكي تستطيع أن تتذكر. أن أبقى في سريري خمس ساعات فقط في الليلة الواحدة. لا شيء أفعله. لذا

سأقرأ لك لكي تنام في الليل إذا شئت. يقولون إنك تحتفظ بالمعرفة حتى عندما تكون نائماً إذا همسها شخص في أذنك".

- "نعم".

- "انتبه". في مكان بعيد على الطرف الآخر من البلدة في الليل تسمع أضعف همسة لصفحة تقلب. "كتاب أيوب".

ارتفع القمر في السماء بينما كان مونتاغ يمشي وشفتاه تتحركان قليلاً.

كان يتناول عشاء خفيفاً في الساعة التاسعة مساءً عندما صدرت جلبة عالية من الباب الأمامي في الرواق فجرت ميلدرد من الردهة كأنها ابنة محلية هاربة من انفجار بركان فيزوف. دخلت السيدة فيلبس والسيدة بولز من الباب الأمامي واختفتا في فوهة البركان وفي يد كل منهما كأس مارتيني. توقف مونتاغ عن الأكل. كانتا مثل ثريا بلورية هائلة الحجم تطنّ بألف رنة، رأى ابتسامتيهما المستعارتين من قطة تشيشير[1] والخارقتين لجدران المنزل بلظاهما. وراحت المرأتان الآن تصرخان إحداهما على الأخرى فوق الضجيج.

وجد مونتاغ نفسه عند باب الردهة وطعامه لا يزال في فمه.

- "ألا تبدو كل منا جميلة!".

- "جميلة".

- "أنت تبدين رائعة يا ميللي!".

---

١ قطة تشيشير: قطة عريضة الابتسامة من كتاب **مغامرات أليس في بلاد العجائب** من تأليف لويس كارول ١٨٦٦.

- "رائعة".

- "كل منا تبدو جميلة".

- "جيد".

وقف مونتاغ يراقبهن.

- "اصبرْ"، همس فابر.

- "لا ينبغي أن أكون هنا"، همس مونتاغ وكأنه يكلم نفسه. "ينبغي أن أكون في طريق العودة إليك ومعي النقود!".

- "لدينا متسع من الوقت غداً. كنْ حذراً".

صاحت ميلدرد: "أليس هذا البرنامج رائعاً؟".

- "رائع!".

ابتسمت امرأة على أحد الجدران وشربت عصير برتقال في الوقت ذاته. فكر مونتاغ بجنون: كيف تفعل المرأة الأمرين معاً. على جدار آخر كشفت صورة أشعة سينية للمرأة نفسها الرحلة الانقباضية للشراب المنعش وهو في طريقه إلى معدتها المبتهجة! على حين غرة أقلعت الغرفة في رحلة صاروخ إلى الغيوم ما لبث أن هوى في بحر أخضر كليمونٍ فجّ تلتهم فيه أسماك زرقاء أسماكاً حمراء وصفراء، وما هي إلا دقيقة حتى ظهر ثلاثة مهرجين بيض من شخصيات الصور المتحركة وراحوا يبترون أطراف بعضهم بعضاً على وقع موجات صاخبة من الضحك. وبعد دقيقتين أخريين خرجت الغرفة بسرعة البرق من المدينة وحطت عند السيارات النفاثة المتسابقة بوحشية في الحلبة الدائرية وهي تتصادم وتتراجع ثم تعود ليصدم بعضها بعضاً.

شاهد مونتاغ عدداً من الأجسام المتطايرة في الهواء.

- "ميللي، هل رأيت هذا المشهد؟".

- "رأيته، أجل رأيته".

مدّ مونتاغ يده إلى الداخل بمحاذاة جدار الردهة وسحب المحوِّل الرئيسي. ذوَتْ الصور واختفت وكأن الماء أُفرغ من إناء بلوري عملاق يحتوي على أسماك هيستيرية.

استدارت النساء الثلاث ببطء ونظرن إلى مونتاغ باستياء واضح ثم بكراهية.

قال: "متى تفترض أن الحرب ستبدأ؟ ألاحظ أن زوجيكما ليسا هنا الليلة".

- "آه، إنهما يأتيان ويذهبان يأتيان ويذهبان"، قالت السيدة فيلبس. "فينغان يدخل مجدداً ويخرج مجدداً. لقد استدعى الجيش بيت أمس. سيعود في الأسبوع القادم. هذا ما قاله الجيش. حرب سريعة. مدة ثمان وأربعين ساعة كما قالوا ويعود الجميع إلى منازلهم. هذا ما قاله الجيش حرب سريعة. بيت استُدعي أمس وقالوا إنه سيعود في الأسبوع القادم، حرب...".

تململت النساء الثلاث ونظرن بعصبية إلى الجدران الفارغة ذات اللون الطيني.

قالت السيدة فيلبس: "أنا لست قلقة. سأترك بيت يعاني القلق كله. ليس أنا. إنني غير قلقة".

- "يقولون إن من يموت هو دائماً زوج امرأة أخرى".

- "لقد سمعت هذه المقولة أيضاً. لم أعرف قط رجلاً ميتاً قُتل في حرب. قُتل لأنه قفز من بناية، نعم، مثل زوج غلوريا في الأسبوع الماضي. لكن من الحروب؟ كلا".

- "ليس من الحروب"، قالت السيدة فيلبس. "بأية حال، دأبنا، بيت وأنا، على القول دائماً لا دموع ولا شيء من هذا القبيل. هذا هو الزواج الثالث لكل منا ونحن مستقلان. قلنا دائماً: كونا مستقلين. قال بيت إذا قُتلت أنا واصلي حياتك كما أنت تماماً ولا تبكي، لكن تزوجي من جديد ولا تفكري فيّ".

قالت ميلدرد: "هذا يذكرني، هل شاهدتما قصة الدقائق الخمس الرومانسية لكلارا دوف على جداريكما في الليلة الماضية؟ حسناً، كانت القصة كلها عن هذه المرأة التي...".

لم يقل مونتاغ شيئاً بل لبث واقفاً ينظر إلى وجوه النساء مثلما نظر مرة إلى وجوه قديسين في كنيسة غريبة دخل إليها وهو طفل. لم تعنِ الوجوه الملمعة لأولئك الخلائق أي شيء بالنسبة إليه بالرغم من أنه خاطبها ولبث في تلك الكنيسة وقتاً طويلاً محاولاً أن يكون من أتباع تلك الديانة، محاولاً أن يعرف ماهية تلك الديانة، محاولاً أن يستنشق قدراً كافياً من البخور الصرف والغبار الفريد لهذا المكان إلى داخل رئتيه ومن ثم دمه لكي تلامسه وتثير اهتمامه دلالة الرجال والنساء النابضين بالألوان ذوي الأعين المصنوعة من الصيني والشفاه الحمراء كالياقوت... لكن لم يحدث أي شيء، لم يحدث أي شيء على الإطلاق كما لو كان يتمشى في متجر آخر وعملته غريبة وغير

صالحة هناك، وعاطفته باردة حتى عندما لامس الخشب والجص والصلصال، إذاً ها هي الآن في ردهة منزله وهؤلاء النساء يتلوين على مقاعدهن تحت نظراته، يشعلن سجائر وينفخن دخاناً ويلمسن شعورهن التي أحرقتها الشمس ويتفحصن أظفارهن المتوهجة كما لو أنها اشتعلت بفعل نظراته. ازدادت وجوههن انقباضاً مع الصمت. ملنَ إلى الأمام عند سماعهن صوت ابتلاع مونتاغ اللقمة الأخيرة من طعامه. استمعن إلى تنفسه المحموم. وكانت الجدران الفارغة الثلاثة للغرفة شبيهة بالجبهات الباهتة لعمالقة نائمين بعد أن فرغت منها الأحلام. شعر مونتاغ بأنك لو لمست هذه الجبهات المحملقة الثلاث لأحسست بطبقة رقيقة من العرق المالح تغطي رؤوس أصابعك، تجمع العرق وسط الصمت والارتجاج دون المسموع في المحيط والداخل وفي النساء اللواتي كن يحترقن من فرط التوتر. وقد تصدر عنهن في أية لحظة هسهسة طويلة لاهثة قبل أن ينفجرن.

حرك مونتاغ شفتيه.

- "لنتكلمْ".

تحركت النساء بعصبية وحدقن.

سأل: "كيف حال أطفالك يا سيدة فيلبس؟".

- "أنت تعلم أن ليس لي أطفال! والرب الكريم يعلم أن ما من إنسان في كامل قواه العقلية يرغب في إنجاب أطفال!" قالت السيدة فيلبس وهي غير متأكدة من سبب استيائها من هذا الرجل.

- "ليس من شأني أن أقول ذلك"، عقّبت السيدة بولز وأضافت:

"لقد أنجبت طفلين بعملية قيصرية. لا جدوى من معاناة كل ذلك العذاب من أجل طفل. على العالم أن يتناسل كما نعلم، ويجب أن يستمر الجنس البشري. علاوةً على ذلك، يشبهونك في بعض الأحيان، وهذا جميل. حققت عمليتان قيصريتان مبتغاي، نعم يا سيدي. مع أن طبيبي قال لي إن العملية القيصرية ليست ضرورية لأن لديك الوركين المناسبين وكل شيء طبيعي. لكنني أصررت".

قالت السيدة فيلبس: "بعمليات قيصرية أو بدونها الأطفال هدّامون، وأنت مجنونة".

- "أنا أترك الطفلين في المدرسة تسعة أيام من عشرة. أتحمّلهما ثلاثة أيام في الشهر عندما يأتيان إلى المنزل، وهذا ليس شيئاً على الإطلاق. تركنينهما في الردهة وتشغلين المحول. المسألة شبيهة بغسل الثياب. احشي الثياب في الغسالة وأغلقي بابها بإحكام". ضحكت السيدة بولز في داخلها وأضافت: "احتمال أن يركلاني لا يقل عن احتمال أن يقبّلاني. لكنني أجيد رد الركلات والحمد لله!".

أظهرت النساء ألسنتهن وهن يضحكن.

لبثت ميلدرد جالسة لحظة من الزمن ثم صفقت بيديها عندما رأت أن مونتاغ ما زال واقفاً عند الباب وقالت: "لنتكلم في السياسة لإرضاء غاي!".

- "لا بأس في ذلك"، قالت السيدة بولز. "لقد أدليت بصوتي كالجميع في الانتخابات الأخيرة ووضعت رهاني على الرئيس نوبل. أظن أنه من أوسم الرجال الذين أصبحوا رؤساء في أي وقت".

- "آه، لكن الرجل الذي رشّحوه ضده!".

- " لم يكن ذا شأن يُذكر، أليس كذلك؟ كان ضئيل الحجم إلى حد ما وعادي الشكل و لم يكن حليقاً كما ينبغي و لم يمشط شعره جيداً".

- "ما الذي استحوذ على "المعارضين" حتى رشحوه؟ لا يصح إطلاقاً ترشيح رجل ضئيل قصير مثله ضد رجل طويل. إضافة إلى ذلك... كان يهمهم. لم أسمعْ كلمة مما قاله خلال نصف الوقت. والكلمات التي سمعتها لم أفهمها".

- "هو بدين أيضاً و لم يرتدِ ثياباً مناسبة لإخفاء بدانته، ولا عجب بالتالي أن يكون ونستون نوبل قد حقق هذا الانتصار الساحق. حتى اسما الرجلين ساعدا على تقرير النتيجة. قارني ونستون نوبل[1] مع هيوبرت هوغ[2] لعشر ثوان وتستطيعين تقريباً أن تحزري النتائج".

صاح مونتاغ: "اللعنة! ماذا تعرفن عن هوغ ونوبل؟".

- "تحسناً، كانا على جدار الردهة هناك قبل أقل من ستة أشهر، أحدهما كان ينكش أنفه طوال الوقت، ما جعلني أتقزز كثيراً".

قالت السيدة فيلبس: "حسناً يا سيد مونتاغ، هل تريدنا أن نصوت لصالح رجل كهذا؟".

أشرق وجه ميلدرد وقالت: "ما عليك إلا الهروب من الباب يا غاي ولا تثر أعصابنا".

لكنّ مونتاغ غاب لحظة واحدة ورجع حاملاً كتاباً في يده.

---

١ نوبل: نبيل، شريف.

٢ هوغ (Hoag) تُلفظ مثل (Hog): خنزير.

- "غاي!".

- "اللعنة على كل شيء، اللعنة على كل شيء، اللعنة!".

- "ماذا لديك هناك، أليس هذا كتاباً؟ ظننت أن كل التدريب الخاص يتم بالأفلام في هذه الأيام". طرفت السيدة فيلبس بعينها وأضافت: "هل توسع معارفك عن نظرية الإطفائي؟".

أجاب مونتاغ: "نظرية بحق الجحيم؟ هذا شعر".

- "مونتاغ"، سمع الهمسة.

- "دعني وشأني!" شعر مونتاغ بنفسه يدور في دوامة هائلة من الهدير والطنين والهمهمة.

- "مونتاغ، اثبت، لا...".

- "هل سمعتهن، هل سمعت أولئك النساء المسوخ يتحدثن عن مسوخ؟ آه يا إلهي، ما هذه الطريقة التي يثرثرن بها عن الناس وأطفالهن، والطريقة التي يتكلمن بها عن أزواجهن والطريقة التي يتكلمن بها عن الحرب. اللعنة. أنا أقف هنا ولا أستطيع أن أصدق ما أسمع!".

قالت السيدة فيلبس: "لم أقل كلمة واحدة عن أي حرب، أريدك أن تعلم ذلك".

قالت السيدة بولز: "أما بالنسبة إلى الشعر، فإنني أكرهه".

- "هل سبق لك مرة أن سمعت شعراً؟".

- "مونتاغ"، خدش صوت فابر مسمعه، "ستخرّب كل شيء، اخرس يا أحمق!".

هبّت النساء الثلاث واقفات على أقدامهن.

- "اجلسن".

جلسنَ.

- "أنا ذاهبة إلى منزلي"، قالت السيدة بولز بصوت متهدج.

جاء صوت فابر مناشداً: "مونتاغ، مونتاغ، أرجوك، كُرمى للرب، ما الذي تنوي فعله؟".

- "لماذا لا تقرأ علينا إحدى تلك القصائد في كتابك الصغير".

أومأت السيدة فيلبس برأسها وقالت: "أظن أن ذلك سيكون مثيراً جداً للاهتمام".

قالت السيدة بولز منتحبةً: "هذا ليس صحيحاً. لا نستطيع أن نفعل ذلك!".

- "حسناً، انظري إلى السيد مونتاغ، إنه يريد أن يفعل ذلك، أنا أعلم أنه يريد ذلك. وإذا استمعنا بصورة لائقة سيسعد السيد مونتاغ وربما نتمكن بعدئذٍ من المتابعة والقيام بشيء آخر".

نظرت بعصبية إلى الفراغ الطويل للجدران المحيطة بهنّ.

جاء صوت الحشرة الإلكترونية كوخزة في أذنه: "مونتاغ، افعل ما تخطط له وسأقطع الاتصال. سأتركك. ما الفائدة من هذا الأمر، وماذا ستثبت!".

- "سأزرع الرعب في قلوبهن. هذا ما سأفعله. سأروعهن حتى يعجزن عن رؤية ضوء النهار!".

نظرت ميلدرد إلى الهواء الفارغ وقالت: "غاي، قل لي فقط مع من تتكلم؟".

اخترقت إبرة فضية دماغه: "مونتاغ، اسمعْ، لا يوجد إلا مخرج واحد، ادَّعِ أن هذه مزحة، مثل، تظاهر بأنك لست غاضباً على الإطلاق. ثم اذهب إلى محرقتك الجدارية وارمِ الكتاب فيها!".

توقعت ميلدرد ذلك بالفعل وقالت بصوت متهدج: "يا سيدتي، يسمح لكل إطفائي مرة واحدة في السنة بأن يجلب إلى منزله كتاباً واحداً من كتب الأيام القديمة لكي يري عائلته كم كان الأمر سخيفاً برمته وإلى أي حد يمكن لشيء من هذا النوع أن يجعلك عصبية، أن يصيبك بالجنون. ومفاجأة غاي هذه الليلة هي أن يقرأ عليكما نموذجاً لتريا كم كانت الأمور ملتبسة بحيث لا تحتاج أي منا أبداً إلى إزعاج رأسها الصغير العتيق بهذه التفاهة من جديد. أليس هذا صحيحاً يا عزيزي؟".

عصر الكتاب في قبضتيه.

- "قلْ نعم".

خطفت ميلدرد الكتاب من يديه وهي تضحك.

قالت: "هاك، اقرأ هذه. لا، أسحب كلامي، ها هي تلك الأخرى المضحكة حقاً التي قرأتها بصوت عالٍ اليوم. يا سيدتي، لن تفهما أي كلمة. ستسمعان آمبتي... تامبتي... أومب. هيا يا غاي، هذه الصفحة يا عزيزي".

نظر إلى الصفحة المفتوحة.

طنّت ذبابة بجناحيْها طنّة ناعمة في أذنه: "اقرأ".

- "ما هو العنوان يا عزيزي؟".

- "شاطئ دوفر". كان فمه خدراً.

- "والآن اقرأ بصوت جميل واضح والتزم البطء".

كانت الغرفة لاهبة الحرارة، وكان يشعر بالنار في جسمه، كان بارداً تماماً. جلسن وسط صحراء خاوية فيها ثلاثة مقاعد. هو واقف يتمايل، هو ينتظر أن تنتهي السيدة فيلبس من تمليس حاشية ثوبها وأن تسحب السيدة بولز أصابعها من شعرها. بعد ذلك بدأ يقرأ بصوت منخفض متعثر كان يزداد تماسكاً مع قدمه من سطر إلى سطر. تجاوز صوته امتداد الصحراء ووصل إلى منطقة البياض والنساء الثلاث الجالسات هناك في الخواء اللاهب العظيم.

بحر الإيمان

كنت مرة أيضاً عند شاطئ الأرض المليء المستدير

وكان جاثماً كثنيات طوق ملتف مستنير

لكني لا أسمع في هذا الأوان

إلا هديره المديد المتراجع المجلّل بالأحزان

ينسحب على وقع أنفاس ريح الليل الجارية

إلى أطراف الحزن العظيم

ولويحات الدنيا العارية.

أنّت المقاعد تحت وزن النساء الثلاث وأكمل مونتاغ قراءته إلى النهاية:

آه يا حبّ، فلنكن مخلصين
بعضنا لبعض وللعالم البادي
ممتداً أمامنا كأرض للحالمين
عالم متنوع جميل وجديد
لكنه خاوٍ من الحب والنور وما هو سعيد
لا ثقة فيه ولا سلام ولا نجدة من وجع
ونحن هنا كما على سهل بالظلمة امتقع
يضج بإنذارات مشوشة عن صراع وهروب
حيث تشتبك جيوش جاهلة في ليل ما بعد الغروب.

كانت السيدة فيلبس تبكي.

راقبها الآخرون في وسط الصحراء فيما كان صوت نحيبها يصبح عالياً جداً ووجهها ينضغط حتى فقد شكله. جلست المرأتان الأخريان دون أن تلمساها وهما مدهوشتان من سلوكها. بكت بحرقة عاجزة عن السيطرة على نفسها. ذُهل مونتاغ نفسه وصُدِم.

قالت ميلدرد: "اهدأي اهدأي. لا بأس عليك يا كلارا. هيا يا كلارا، أخرجي الآن من هذه النوبة! كلارا، ما خطبك؟".

قالت السيدة فيلبس وهي تجهش بالبكاء: "لا أعرف، لا أعرف. ببساطة لا أعرف، أوه، أوه...".

نهضت السيدة بولز وحدقت في مونتاغ: "أترى؟ أنا كنت أعلم ذلك. هذا ما أردت أن أثبته! كنت أعلم أن هذا سيحدث! لقد قلت

دائماً: الشعر والدموع، الشعر والانتحار والبكاء والمشاعر الفظيعة، الشعر والمرض، كل هذه العواطف الواهية الآن أثبت ذلك لنفسي. أنت مُقرف يا سيد مونتاغ، أنت مقرف!".

قال فابر: "الآن...".

شعر مونتاغ بنفسه يستدير ويمشي إلى فتحة الجدار ويسقط الكتاب فيها عبر المنصب النحاسي لتتلقاه ألسنة اللهب المنتظرة.

- "كلمات سخيفة، كلمات سخيفة، كلمات سخيفة بشعة وسيئة"، قالت السيدة بولز، "لماذا يريد الناس إيلام الناس؟ ألا يوجد ما يكفي من الألم في العالم حتى تعمد إلى إغاظتهم بكلام من هذا النوع؟".

- "كلارا، اهدأي الآن، كلارا"، قالت ميلدرد مترجية وهي تشد ذراعها. "تعالي، دعينا نبتهج. هذا دورك الآن لتنعشي العائلة. هيا، دعينا نضحك ونسعد. توقفي عن البكاء. سنقيم حفلة!".

- "كلا"، قالت السيدة بولز، "أنا سأهرول عائدةً إلى البيت. إذا أردت زيارة منزلي وعائلتي فعلى الرحب والسعة. لكنني لن آتي مرة أخرى في حياتي إلى هذا المنزل المجنون لرجل الإطفاء".

ثبّت مونتاغ عينيه عليها وقال لها بهدوء: "اذهبي إلى منزلك وفكري في زوجك الأول الذي طلق منك وزوجك الثاني الذي قُتل في نفاثة وزوجك الثالث الذي أطلق النار على رأسه وساح دماغه. اذهبي إلى منزلك وفكري في دزينة الإجهاضات التي أجريتها. اذهبي إلى منزلك وفكري في ذلك وفي عملياتك القيصرية اللعينة وفي طفليك

اللذين يكرهانك أيّما كراهية! اذهبي إلى منزلك وفكري كيف حدث كل ذلك واسألي نفسك ماذا فعلت لمنع حدوثه؟"، وأضاف صارخاً: "اذهبي إلى منزلك، اذهبي إلى منزلك قبل أن أطرحك أرضاً وأخرجك من الباب ركلاً!".

صفقت أبواب وفرغ المنزل. وقف مونتاغ وحيداً في الطقس الشتوي ولون جدران الردهة كلون ثلج متسخ.

سال ماء في الحمام. سمع ميلدرد ترج قارورة الحبوب المنومة لإسقاط بعض منها في يدها.

- "أحمق يا مونتاغ، أحمق، أحمق، بحق الرب كم أنت أحمق وسخيف...".

- "اخرس". سحب الرصاصة الخضراء من أذنه ودسها في جيبه.

أزّت بصوت خافت: "... أحمق... أحمق...".

فتّش في البيت وعثر على الكتب حيث كانت ميلدرد قد وضعتها خلف البراد. كان بعضها مفقوداً وأدرك أن ميلدرد بدأت من تلقاء نفسها العملية البطيئة لتفريق الديناميت الموجود في منزلها، إصبعاً إثر إصبع. لكنه لم يكن غاضباً الآن، كان خائر القوى فقط ومرتبكاً حيال نفسه، حمل الكتب إلى الفناء الخلفي وخبأها بين الشجيرات المحاذية لسياج الطريق. فكر أن هذا الترتيب هو لهذه الليلة فقط في حال قررت إحراق المزيد منها.

عاد عبر المنزل، "ميلدرد"، صاح عند باب غرفة النوم المعتمة. لم يسمع أي صوت. وعندما كان في الخارج يعبر المرج في طريقه إلى

العمل حاول أن لا يرى كم بدا منزل كلاريس ماكليلان مظلماً ومقفراً إلى أبعد حد.

في طريقه إلى وسط المدينة كان وحيداً تماماً في إحساسه بالخطأ الفظيع الذي ارتكبه فشعر بالحاجة إلى الدفء والطيبة العجيبين اللذين يأتيان من صوت مألوف ولطيف يتحدث في الليل. وبدا له في غضون ساعات قصيرة قليلة أنه عرف فابر طول عمره بالفعل. وأدرك الآن أنه شخصان، أنه في المكان الأول مونتاغ الذي لم يعرف شيئاً، الذي لم يعرف حتى عن نفسه أنه أحمق بل ارتاب في ذلك فقط، عرف كذلك أنه الرجل العجوز الذي حادثه وحادثه فيما كان القطار يُشفَط من طرف المدينة الليلية إلى الطرف الآخر في اندفاعة طويلة لاهثة مسببة للدوار. وفي الأيام التالية، وفي الليالي التي يجافيها القمر وفي الليالي التي يشع فيها قمر ساطع جداً على الأرض سيواصل الرجل العجوز هذا الكلام وهذا الكلام، قطرةً فقطرة، حجراً فحجر ورقاقة فرقاقة. سيفيض دماغه في آخر الأمر ولن يكون مونتاغ بعد ذلك. هذا ما قاله له الرجل العجوز وأكّده له ووعده به، سيكون مونتاغ زائد فابر، ناراً زائد ماء. ثم في أحد الأيام بعد أن يكون كل شيء قد اختلط ونضج ببطء وتفاعل بصمت لن يكون هناك نار ولا ماء، بل نبيذ. من شيئين منفصلين ومتضادين سيخرج شيء ثالث. وسينظر يوماً ما وراءه إلى الأحمق وسيعرف الأحمق. كان في وسعه حتى في هذه اللحظة أن يشعر ببداية الرحلة الطويلة، بأخذ إجازة، بالرحيل عن النفس التي كانها هو.

كان من المريح سماع همهمة الخنفساء وأزيز البعوضة الناعسة والدمدمة المتقطعة لصوت الرجل العجوز وهو يؤنبه في بداية الأمر ثم يسترضيه في هذه الساعة المتأخرة من الليل عند خروجه من محطة قطار الأنفاق المشبعة بالبخار في طريقه إلى عالم مركز الإطفاء.

– "الشفقة يا مونتاغ، الشفقة. لا تجادلهم ولا تتذمر منهم. لقد كنت أنت نفسك واحداً منهم حتى الماضي القريب، وهم واثقون تماماً من أنهم سيستمرون هكذا إلى الأبد، لكنهم لن يستمروا. إنهم لا يعلمون أن هذا كله نيزك عملاق ملتهب واحد ذو نار جميلة في الفضاء لكنه لا بد وأن يرتطم في يوم ما. إنهم لا يرون إلا اللهب، النار الجميلة، كما رأيتها أنت".

– "مونتاغ، الرجال الهرمون الذين يبقون في منازلهم مذعورين ويعتنون بعظامهم الهشة في أجسامهم الواهنة لا يحق لهم أن ينتقدوا. لكنك كدت أن تفسد الأمور منذ البداية. انتبه! أنا معك، تذكر ذلك. أنا أفهم كيف حصل ما حصل. وعلي أن أعترف بأن غضبتك العمياء أنعشتني. يا إلهي، كم شعرت بأنني شاب! لكنني أريدك الآن أن تشعر بأنك عجوز، أريد أن يتكشف قليل من جبني فيك هذه الليلة. وفي الساعات القليلة القادمة عندما تشاهد الكابتن بيتي امشِ بحذر حوله، دعني أسمعه نيابةً عنك، دعني أستشعر الوضع. البقاء على قيد الحياة هو رهاننا. انسَ النساء المسكينات السخيفات...".

– "لقد جعلتهن أتعس مما كنّ منذ سنوات كما أظن". مضى مونتاغ يقول: "لقد صدمت لرؤية السيدة فيلبس تبكي. ربما كنّ على

حق. ربما كان من الأفضل عدم مواجهة الأمور، ربما كان من الأفضل الفرار والاستمتاع باللهو، لا أدري، أنا أشعر بأنني مذنب...".

- "كلا، لا يجوز لك ذلك! لو لم تكن هناك حرب، لو كان هناك سلام في العالم لقلت لك لا بأس استمتع باللهو! لكن لا يجوز لك يا مونتاغ أن ترجع إلى الخلف لتكون مجرد إطفائي. ليس كل شيء بخير في العالم".

كان مونتاغ يتصبب عرقاً.

- "مونتاغ، هل أنت مصغ؟"

قال مونتاغ: "قدماي. لا أستطيع تحريكهما. أشعر بأنني سخيف إلى أبعد حد. قدماي ترفضان أن تتحركا!".

قال الرجل العجوز بصوت لطيف: "اسمع، تمهّل الآن. أنا أعرف، أنا أعرف أنك خائف من ارتكاب أخطاء. لا تخف. من الممكن الاستفادة من الأخطاء، عندما كنت أصغر عمراً يا رجل دأبت على مجابهة الناس بإشهار جهلي في وجوههم. كانوا يضربونني بالعصي. وببلوغي سن الأربعين كانت أداتي الكليلة قد شحذت وأصبح لها نصل ناعم بتار في خدمتي. إذا واريت جهلك لن يضربك أحد ولن تتعلم أبداً. والآن ارفع قدميك واذهب بهما إلى مركز الإطفاء! نحن توأمان و لم نعد وحيدين، لسنا منفصلين من ردهتين مختلفتين. وإذا احتجت إلى مساعدة عندما يتهجم بيتي عليك سأكون جالساً في هذا المكان عينه داخل طبلية أذنك مسجّلاً ملاحظاتي!".

أحسّ مونتاغ بقدمه اليمنى تتحرك، ثم بقدمه اليسرى أيضاً.

قال: "أيها الشيخ، ابقَ معي".

كان الطلب الآلي غائباً ووجاره فارغاً. غلف صمت ثقيل مركز الإطفاء بكامله، وكان السمندل البرتقالي نائماً والكيروسين يملأ جوفه وقاذفتا اللهب متصالبتان على جانبيه. دخل مونتاغ مخترقاً السكون ولمس العمود النحاسي وانزلق صعوداً في الهواء الداكن وهو ينظر خلفه إلى الوجار المهجور وقلبه ينبض، يرتاح، ينبض. كان فابر عثة رمادية نائمة داخل أذنه في الوقت الحاضر.

وقف بيتي منتظراً قرب فتحة النزول، لكنه كان يدير ظهره وكأنه لا ينتظر.

- "حسناً"، قال مخاطباً الرجال لاعبي الورق، "والآن يصل حيوان اسمه الأحمق في جميع اللغات".

بسط يده إلى أحد جانبيه وراحتها مفتوحة إلى أعلى وكأنه ينتظر هدية. وضع مونتاغ الكتاب فيها.

رمى بيتي الكتاب في سلة القمامة حتى بدون أن ينظر إلى العنوان ثم أشعل سيجارة.

- "أفضل الحمقى مَن يكتسبون قليلاً من الحكمة"، قال بيتي وأضاف: "أرحب بعودتك يا مونتاغ، وكلي أمل بأنك ستبقى معنا الآن بعد أن زالت الحمى عنك وشفيت من مرضك. ألا تجلس لنلعب دورة بوكر؟".

جلسا ووزعت أوراق اللعب. شعر مونتاغ تحت أنظار بيتي بالذنب الذي ارتكبته يداه. كانت أصابعه مثل مجسات سبق لها القيام بعمل

ذميم وما عادت تهدأ أبداً فتظل تجوب وتفتش وتختبئ في الجيوب، وها هي تتحرك بعيداً عن نظرة بيتي الساخنة كلهيب الكحول. أحس مونتاغ بأن يديه لو تنفس عليهما بيتي فقط قد تذويان وتنقلبان على جانبهما وتعجز أي صدمة عن رد الحياة إليهما مدى الدهر فتبقيان مدفونتين ومنسيتين في كمّي معطفه بقية عمره. لأن هاتين كانتا اليدين اللتين تصرفتا من تلقاء نفسيهما بدون أن تكونا جزءاً منه، هنا في المكان الذي تجلى فيه الضمير لأول مرة عبر خطف كتب والهروب مع أيوب وروث ووليم شيكسبير. وبدت هاتان اليدان مغلفتين بالدم الآن في مركز الإطفاء.

اضطر مونتاغ لمغادرة طاولة اللعب مرتين في غضون نصف ساعة للذهاب إلى المرحاض وغسل يديه. وعندما رجع خبأ يديه تحت الطاولة.

ضحك بيتي وقال: "ضع يديك حيث نراهما يا مونتاغ. الأمر ليس أننا لا نثق بك، افهمْ، لكن...".

ضحك الجميع.

قال بيتي: "حسناً، لقد انقضت الأزمة وكل شيء بخير الآن، وعاد الحمل الضال إلى قطيعه. نحن كلنا حملان ضلت سواء السبيل أحياناً، الحقيقة هي الحقيقة ولقد صرخنا حتى نهاية الحساب وصحنا لأنفسنا أن الذين ترافقهم أفكار نبيلة لا يكونون وحيدين أبداً. لقد قال السير فيليب سيدني: الطعام الحلو للمعرفة المنطوقة بحلاوة، لكن ألكسندر بوب قال من ناحية أخرى: الكلمات هي كأوراق الشجر، وحيث توجد بكثرة نادراً ما توجد الثمار بوفرة تحتها. ما رأيك في ذلك يا مونتاغ؟".

- "لا أعلم".

- "كن حذراً"، همس فابر المقيم في عالم مختلف بعيد.

- "أو في هذا القول: التعلم قليلاً أمر خطر. اشرب عميقاً أو لا تذق ينبوع بييريا[1] لأن الجرعات الضحلة تسكر الدماغ، والشرب الكثير يصحينا من جديد. بوب، نفس المقالة. أين يضعك ذلك؟".

عضّ مونتاغ على شفته.

قال بيتي وهو ينظر إلى أوراقه ويبتسم: "سأقول لك، جعلك ذلك سكيراً لفترة قصيرة. اقرأ سطوراً قليلة وتسقط في الهاوية. بانغ، أنت مستعد لتفجير العالم ولقطع رؤوس وإسقاط نساء وأطفال وتدمير السلطة. أنا أعلم لأنني مررت بكل هذه الأمور".

قال مونتاغ بعصبية: "أنا بخير".

- "كفاك خجلاً. أنا لا أسخر منك. حقاً لا أسخر منك. هل تعلم، لقد رأيت مناماً قبل ساعة عندما استلقيت لأخذ قيلولة قصيرة. في هذا المنام دخلنا أنا وأنت يا مونتاغ في جدال غاضب عن الكتب. أنت بلغت ذروة الغضب وصرخت اقتباسات في وجهي. صددت أنا كل هجمة بهدوء. قلتُ أنا "قوة". وقلت أنت نقلاً عن الدكتور جونسون "إن المعرفة أكثر من مساوية للقوة!" وقلت أنا "حسناً، لقد قال الدكتور جونسون أيضاً يا فتاي العزيز: ليس حكيماً الرجل الذي يتخلى عن الأكيد من أجل المريب". ابقَ مع الإطفائيين يا مونتاغ. وكل شيء آخر فوضى كئيبة!".

---

١ بييريا: منطقة في اليونان القديمة ذات دلالة أسطورية.

همس فابر: "لا تصغِ إليه. إنه يحاول إرباكك. إنه ماكر. كن حذراً".

ضحك بيتي ضحكة خافية وأضاف: "وقلت أنت في اقتباس: إن الحقيقة ستنكشف ولن تخفى الجريمة طويلاً! وأنا هتفت مداعباً: آه يا إلهي، إنه يتكلم عن حصانه فقط! وأن الشيطان يستطيع اقتباس كلام من الكتاب المقدس لخدمة غايته. ثم صحت أنت أن نظرة هذا العصر إلى أحمق مبهرج أفضل من نظرته إلى قديس متواضع في مدرسة الحكمة! وهمست أنا بلطف أن وقار الحقيقة يضيع مع كثرة الاحتجاج. وصرخت أنت: الجثث تنزف دماً لرؤيتها القاتل! وقلت أنا فيما كنت أربّت على يدك: ماذا، هل أسبب لك اختناقاً في حلقك؟ فصحت أنت: المعرفة قوة! وأن القزم الجالس على كتفي عملاق هو الذي يرى مسافة أبعد! ولخصت أنا موقفي بهدوء نادر فقلت إن الخلط الخطأ بين المجاز والبرهان، وبين سيل الحشو الفارغ وينبوع الحقيقة الكبرى، وبين الإنسان نفسه ومصدر الوحي، هو حماقة مولودة فينا مثلما قال مرة السيد فاليري".

كان رأس مونتاغ يدور كدوامة بشكل يسبب الغثيان. شعر وكأنه ضرب بلا رحمة على جبينه وعينيه وأنفه وشفتيه وذقنه وكتفيه وذراعيه المرفرفتين، أراد أن يصيح "كلا، اخرس، أنت تخلط بين الأمور. توقف".

امتدت أصابع بيتي الرشيقة لتمسك برسغه.

- "رباه، ما هذا النبض! لقد جعلت الحياة تدب فيك، أليس كذلك يا مونتاغ؟ بحق الرب يسوع، صوت نبضك شبيه بما كان عليه في اليوم التالي لانتهاء الحرب... كل شيء ما عدا صفارات الإنذار

والأجراس! هل أقول المزيد؟ تعجبني نظرتك المذعورة. السواحلية، الهندية، الإنكليزية الأدبية، أنا أتكلم كل هذه اللغات، نوع من الخطاب المتميز الغبي يا شكسبير".

دغدغت العثة أذن مونتاغ: "اصمد يا مونتاغ، إنه يعكر المياه!".

قال بيتي: "لقد تملكك الرعب تماماً لأنني لجأت إلى أسلوب فظيع باستعمالي نفس الكتب التي تتعلق بها أنت لكي أدحضك في كل التفافة، في كل نقطة. كم يمكن للكتب أن تكون خائنة!

تظن أنها تدعمك لكنها تنقلب عليك. وفي وسع الآخرين أن يستعملوها أيضاً، وتكون أنت هناك تائهاً في وسط الأرض الموحلة محاطاً بخليط مشوش من الأسماء والأفعال والنعوت، وفي نهاية منامي جئت أنا ومعي السمندل وقلت: هل أنت ذاهب في طريقي؟ فركبت أنت وقدنا عائدين إلى مركز الإطفاء في صمت ملائكي وتضاءل كل شيء ليتحول إلى سلام". أفلت بيتي رسغ مونتاغ وترك اليد تسقط خدرة على الطاولة. "كل شيء يكون بخير إذا انتهى على خير".

سكون. جلس مونتاغ كصخرة بيضاء منحوتة. ومات صدى آخر ضربة مطرقة على الجمجمة موتاً بطيئاً وهو ينسلّ إلى الكهف الأسود حيث كان فابر ينتظر خفوت الأصداء. وعندما ترسب الغبار الملتبس حول عقل مونتاغ بدأ فابر حديثاً خافتاً: "حسناً، لقد كان له قوله وعليك أنت أن تستوعبه. وسأدلي بقولي أنا أيضاً في الساعات القليلة القادمة، وسوف تستوعب ذلك وستحاول أن تحكم عليهم وأن تقرر إلى أي جهة ستقفز، أو ستقع، غير أنني أريد أن يكون هذا قرارك أنت،

لا قراري أنا ولا قرار الكابتن. لكن تذكر أن الكابتن ينتمي إلى أخطر أعداء الحقيقة والحرية، أي إلى قطعان الأغلبية المتماسكة المتعصبة. آه يا إلهي ما أقسى استبداد الأغلبية، لدى كل منا قيثارته التي يجب أن يعزف عليها، ويترك لك الآن أن تعرف بأي أذن سوف تستمع".

فتح مونتاغ فمه ليرد على فابر لكنه نجا من ارتكاب هذا الخطأ في حضور الآخرين عندما رنّ جرس المحطة. صدح صوت الإنذار الطالع من السقف وتردد في أرجاء الغرفة صوت تاك - تاك - تاك فيما كان هاتف تقرير الإنذار يطبع العنوان. قام الكابتن بيتي وفي يده المتوردة أوراق لعبة البوكر وسار ببطء مبالغ فيه إلى الهاتف وقص ورقة العنوان عندما اكتمل التقرير. نظر إلى الورقة نظرة عابرة ودسّها في جيبه. رجع إلى مكانه وجلس. نظر الآخرون إليه.

قال بيتي بحبور: "يمكن للمسألة أن تنتظر أربعين ثانية بالضبط بينما آخذ منكم كل نقودكم".

وضع مونتاغ أوراقه على الطاولة.

- "هل أنت متعب يا مونتاغ؟ هل تنسحب من اللعب؟".

- "نعم".

- "انتظر. حسناً، بعد التفكير في الأمر، نستطيع إنهاء هذه الدورة في وقت لاحق. اترك أوراقك مستورة على الطاولة واذهب بسرعة الآن لأخذ المعدات". نهض بيتي من جديد وقال: "مونتاغ، لست في حال جيدة كما يبدو؟" سأكره أن أظنّ أنك تُصاب بحمى جديدة...".

- "سأكون بخير".

- "ستكون في أحسن حال، هذه حالة خاصة. هيا اقفز ولنذهب".

قفزوا في الهواء وتشبثوا بالعمود النحاسي وكأنه الموقع المرتفع الوحيد فوق موجة المد المندفعة تحتهم. وبالرغم من خوفهم ما لبث هذا العمود أن جعلهم ينزلقون نزولاً إلى العتمة، إلى التنين الغازي وهو يعصف ويسعل ويهدر فيما الحياة تدب فيه!

- "هاي!".

التفوا حول زاوية بصوت كالرعد وبزئير صفارة الإنذار وارتجاج العجلات وزعيق المطاط، وبحمولة مترجرجة من الكيروسين المحبوس في الخزان النحاسي اللامع كوجبة جاثمة في بطن عملاق. كانت أصابع مونتاغ تفلت الدرابزون الفضي فتنجر إلى الفضاء البارد فيما الريح تجذب شعره إلى خلف رأسه وتصفر بين أسنانه وهو يفكر طول الوقت في النساء الموجودات في ردهته هذه الليلة، النساء الشبيهات بتبن السنابل بعد أن طارت حباتها من تحتهن بفعل ريح من نيون، كما في قراءته السخيفة اللعينة من كتاب أمامهن. كم يشبه ذلك محاولة إطفاء حريق بألعاب مسدسات الماء. يا لهذا السخف، يا لهذا الجنون. موجة حنق تستبدل بأخرى، موجة غضب تحل مكان أخرى. متى سيتوقف عن التصرف بجنون مطلق ويصبح هادئاً، هادئاً جداً بالفعل؟

- "ها نحن ننطلق".

نظر مونتاغ إلى أعلى. لم يألفْ بيتي أن يقود أبداً، لكنه كان يقود في هذه الليلة دافعاً السمندل بسرعات كبيرة للدوران حول الزوايا

ومائلاً إلى الأمام بجسده وهو جالس على عرش السائق فيما كان معطفه المشمع الأسود الثقيل يرفرف في الهواء خلفه فبدا كخفاش ضخم أسود يطير فوق سيارة الإطفاء، فوق الأرقام النحاسية، في مواجهة الريح بكل قوتها.

- "ها نحن نذهب لإبقاء العالم سعيداً يا مونتاغ!".

كانت وجنتا بيتي المتوردتان الفوسفوريتان تلمعان في الظلام الدامس وفمه مفترّ عن ابتسامة غاضبة.

- "لقد وصلنا!".

توقف السمندل فجأة بصخب كبير دافعاً الرجال في زلّات ووثبات متعثرة. وقف بيتي مركزاً عينيه القاسيتين على الدرابزون البارد اللامع تحت أصابعه المطبقة بإحكام.

فكّر: لا أستطيع أن أفعل ذلك، كيف أستطيع القيام بهذه المهمة الجديدة، كيف أستطيع أن أستمر في إحراق الأشياء؟ لا أستطيع الدخول إلى هذا المكان.

- "حسناً يا مونتاغ"، قال بيتي الواقف عند مرفق مونتاغ وتفوح منه رائحة الهواء الذي كان منطلقاً عبره.

ركض الرجال بهدوء العناكب وكمعاقين بجزماتهم الغليظة.

رفع مونتاغ عينيه في آخر الأمر واستدار.

كان بيتي يراقب وجهه.

- "هل هناك خطب ما يا مونتاغ؟".

- "لماذا توقفنا أمام منزلي أنا؟"، قال مونتاغ ببطء.

الفصل الثالث

الاحتراق بنار متوهجة

أُضيئت الأنوار وانفتحت الأبواب على امتداد الشارع ليتفرج الناس على الكرنفال الذي يحضّر. حدق مونتاغ وبيتي في المنزل الماثل أمامهم، أحدهما باكتفاء متيبس والآخر بعدم تصديق، هذا المنزل الذي سيكون الحلبة الرئيسية التي سيتم فيها تقاذف المشاعل وابتلاع النار على طريقة البهلوانيين.

قال بيتي: "حسناً، لقد فعلتها الآن، أراد مونتاغ العتيق أن يطير قرب الشمس، وبعد أن أحرق جناحيه يتساءل الآن عن السبب. ألم أُعطك تلميحات كافية عندما أرسلت الكلب إلى محيط منزلك؟".

كان وجه مونتاغ خدراً تماماً وخالياً من التعابير، وشعر برأسه يدور في اتجاه مكان مظلم في المنزل المجاور كنقش حجري مثبت في مسكبته المشرقة المزروعة بالزهور.

قال بيتي بصوت أقرب إلى الشخير: "أوه، كلا، أنت لم تُخدَع

بالكلام المعسول لتلك الغبية الصغيرة، أليس كذلك؟ زهور، فراشات، أوراق شجر، أمسيات الغروب. كل شيء موجود في ملفها وحق الجحيم. علي اللعنة إذا لم أكن محقاً بالتمام. لاحظ النظرة المريضة على وجهك. أوراق عشب قليلة وأرباع القمر. يا لهذا الهراء. ما الخير الذي فعلته بكل ذلك؟".

جلس مونتاغ على الرفرف البارد للتنين وهو يحرك رأسه نصف بوصة إلى اليسار، نصف بوصة إلى اليمين، يسار، يمين، يسار، يمين، يسار...

- "لقد شاهدت كل شيء. لم تفعل أي شيء لأي شخص. تركت الناس وحدهم".

- "تركتهم وحدهم؟ اللعنة! لقد أثرت عليك، ألم تفعل؟ إنها من أولئك اللعينين المتظاهرين بالطيبة الذين يلوذون بفترات صمت من يدّعون القداسة والذين لا يمتلكون إلا موهبة واحدة هي جعل الآخرين يشعرون بالذنب. عليهم لعنة الله، إنهم يطلعون كشمس منتصف الليل لجعلك تتصبب عرقاً في سريرك".

فتح الباب الأمامي وهبطت ميلدرد الدرج ركضاً وقبضة يدها مطبقة بشدة على حقيبة وكأنها تحلم فيما كانت سيارة أجرة بيتل تتوقف زافرة بمحاذاة الرصيف.

- "ميلدرد!".

تجاوزته ركضاً وجسمها متصلب ووجهها مزرور بالبودرة وفمها مخفي بدون أحمر الشفاه.

- "ميلدرد، أنتِ لم تشغلي جهاز الإنذار!".

أقحمت حقيبتها في سيارة البيتل المنتظرة ثم صعدت إليها وجلست تهمهم "عائلة مسكينة، عائلة مسكينة، آه ضاع كل شيء، كل شيء، كل شيء ضاع الآن...".

أمسك بيتي كتف مونتاغ عندما انطلقت السيارة البيتل كالبراق مبتعدة بسرعة سبعين ميلاً في الساعة حتى اختفت في آخر الطريق.

سمعَ صوتُ تحطم شبيه بصوت الأجزاء المتساقطة لحلم مصنوع من زجاج مشغول ومرايا وموشورات بلورية. وكان مونتاغ يسير على غير هدى كما لو أن عاصفة غير مفهومة أخرى أدارته ليرى ستونمان وبلاك يحطمان بفأسيهما زجاج النوافذ لتأمين تهوية من طرف إلى آخر.

خربشة عثة موت كبيرة على شاشة سوداء باردة.

- "مونتاغ، هذا فابر. هل تسمعني؟ ماذا يحدث؟".

- "هذا ما يحدث لي"، قال مونتاغ.

قال بيتي: "يا لهذه المفاجأة المريعة، لأن كل شخص يعرف في هذه الأيام يوقن يقيناً تاماً أن لا شيء سيحدث لي أبداً. الآخرون يموتون وأنا أبقى. لا توجد عواقب ولا مسؤوليات. باستثناء أنها موجودة، لكن دعنا لا نتكلم عنها، إيه؟ وعندما تلحق بك العواقب يكون الوقت قد تأخر كثيراً، أليس هذا صحيحاً يا مونتاغ؟".

سأل فابر: "مونتاغ، هل تستطيع الابتعاد، الفرار؟".

سار مونتاغ لكنه لم يشعر بقدميه تلامسان الإسمنت ومن ثم

أعشاب الليل. أشعل بيتي ولاعته بالقرب منه فجذب لهيبها البرتقالي نظرته المفتونة.

- "ما الجميل إلى هذه الدرجة في النار؟ ما الذي يجذبنا إليها مهما تكن أعمارنا؟". أطفأ بيتي ولاعته ثم أشعلها من جديد. "إنها الحركة الأبدية، الشيء الذي أراد الإنسان اختراعة لكنه لم يفعل قط. أو ما يكاد يكون حركة أبدية. وإذا تركتها مشتعلة فستحرق أعمارنا. ما هي النار؟ إنها لغز. يسمعنا العلماء هراءً كثيراً عن الاحتكاك والجزيئات. لكنهم لا يعلمون في الواقع. جمال النار الحقيقي هو أنها تدمر المسؤولية والعواقب. إذا أصبحت مشكلة مرهقة جداً تُرمى في المحرقة. والآن أنت عبء يا مونتاغ وسترفعك النار عن كتفي بصورة نظيفة وسريعة وأكيدة؟ لن يبقى ما يتعفن في ما بعد. طريقة قاتلة للجراثيم، أنيقة وعملية".

وقف مونتاغ الآن يحدق إلى داخل هذا المنزل الغريب الذي أصبح لا مألوفاً بفعل الساعة المتأخرة من الليل والأصوات المهمهمة للجيران والزجاج المتناثر وأغطيته هو وزوجته التي نُزعت عن السريرين وبعثرت حشوتها كريش طائر التم، والكتب العصية على التصديق التي بدت سخيفة إلى أبعد حد ولا تستحق أن يكترث إنسان لها لأنها لم تكن إلا حروفاً سوداء وأوراقاً مصفرة وتجليداً محبوكاً.

ميلدرد، بالطبع. لا بد وأن تكون راقبته عندما خبّأ الكتب في الحديقة فأعادتها إلى الداخل. ميلدرد، ميلدرد.

- "أريدك أن تنفذ هذه المهمة بنفسك ووحدك يا مونتاغ. ليس بالكيروسين والكبريت، بل قطعة قطعة بقاذف اللهب. هذا منزلك وعليك تقع مهمة التطهير".

- "مونتاغ، ألا تستطيع الفرار، الابتعاد من هناك؟".

- "كلا"، صاح مونتاغ والعجز يتملكه. "الكلب، بسبب الكلب!".

سمع فابر، كما سمع بيتي الذي ظنّ أن الكلام موجّه إليه. قال: "نعم، الكلب موجود في مكان ما في الجوار، لذا لا تحمل أي شيء. هل أنت مستعد؟".

- "مستعد". أرخى مونتاغ صمام الأمان على قاذف اللهب.

- "نار!".

قفز لسان لهب كبير بسرعة وقوة فطال الكتب ودفعها إلى الحائط. دخل مونتاغ إلى غرفة النوم وأطلق لسان النار مرتين فاتقد السريران المزدوجان بهسهسة حريق عالية وبحرارة وانفعال وضوء أكثر مما افترض وجوده فيهما. أحرق جدران غرفة النوم وصندوق مواد التجميل لأنه أراد تبديل كل شيء: المقاعد، الطاولات، وغرفة الطعام والفضيات والأطباق البلاستيكية، كل شيء يشير إلى أنه عاش هنا في هذا المنزل الفارغ مع امرأة غريبة ستنساه غداً، امرأة غادرت وكادت تنساه بالفعل، تستمع إلى راديو صدفتها البحرية وهو يصبّ ثرثرات عليها وفي داخلها فيما تنتقل عبر المدينة راكبة وحدها. كان إضرام النار ممتعاً كما في السابق. شعر بنفسه تزهو بين ألسنة النار وهو يقتلع ويخلع ويشطر بواسطة اللهب

ويضع جانباً المشكلة التي لا معنى لها. وإن لم يكن هناك حل لا توجد بالتالي مشكلة أيضاً. النار هي الأفضل لكل شيء.

- "الكتب يا مونتاغ!".

كانت الكتب تقفز وترقص كطيور تشوى وأجنحتها ملتهبة بريشها الأحمر والأصفر.

بعد ذلك جاء إلى الردهة حيث كانت المسوخ الكبيرة الغبية نائمة بأفكارها البيضاء وأحلامها الثلجية. أطلق صاعقة نارية على كل من الجدران العارية الثلاثة وفحّ الخواء في وجهه ردّاً عليه. وزاد الخواء الصغير الفارغ فراغاً، جعله صرخة بلا معنى. حاول التفكير في الخواء الذي كان اللاشيء يعمل عليه، لكنه لم يستطع حبس نفسه كي لا يتمكن الخواء من الدخول إلى رئتيه.

قطع فراغه الرهيب وتراجع وقدم للغرفة كلها هدية كناية عن وردة عملاقة من النار الحارقة بصفار ساطع. مزّق الغلاف البلاستيكي المضاد للحريق الذي كان ملفوفاً على كل شيء وبدأ المنزل يرتجّ وهو يلتهب.

قال بيتي الواقف خلفه: "عندما تنتهي تماماً من عملك ستوضع رهن الاعتقال".

انهار المنزل بعد أن تحول إلى جمر أحمر ورماد أسود. تكوّم المنزل في كتل هامدة من الفحم الوردي الرمادي وانتشر فوقه عمود من الدخان المتصاعد والملوّح يمنةً ويسرة ببطء في السماء. كانت الساعة الثالثة وثلاثين دقيقة صباحاً. انسحبت الجموع عائدةً إلى منازلها بعد أن تهاوت خيام السيرك العظيمة وأصبحت فحماً وركاماً فانتهت الفرجة.

وقف مونتاغ حاملاً قاذف اللهب بيديه الكليلتين وقد بللت إبطيه جزيرتان كبيرتان من العرق وانصبغ وجهه بالسخام. كان الإطفائيون الآخرون ينتظرون خلفه في الظلام ووجوههم مضاءة قليلاً بوهج بقايا الأساس المحترق.

بدأ مونتاغ يتكلم مرتين وتمكن في آخر الأمر من تركيب فكرته.

- "هل كانت زوجتي من شغّل الإنذار؟".

أومأ بيتي برأسه وقال: "لكن صديقتيها شغّلتا إنذاراً قبل ذلك، لكنني لم أُعره اهتماماً. كنت ستنال ما أصابك بطريقة أو أخرى. كان سخفاً منك أن تقتبس أشعاراً بحرية وسهولة هنا وهناك. كان هذا تصرف شخص متكبر سخيف لعين. أعطِ رجلاً أبياتاً قليلة من الشعر فيظن أنه سيد الخلائق كلها. تظن أنك تستطيع المشي على الماء بفضل كتبك. حسناً، في وسع العالم أن يتدبر أمره على أحسن وجه بدون الكتب. انظر أين أوصلتك الكتب، أنت غارق في القذارة حتى شفتك. وإذا حركت هذه القذارة بإصبعي الصغيرة ستغرق!".

لم يستطع مونتاغ أن يتحرك. لقد جاء زلزال ناري كبير وسوّى المنزل بالأرض، وكانت ميلدرد تحته في مكان ما، كما كانت حياته كلها مطمورة تحته، وعجز هو عن الحراك. كان الزلزال لا يزال يرتج ويسقط وينفعل في داخله، ووقف هو هناك وركبتاه نصف مثنيتين تحت الحمل الثقيل للتعب والذهول والغضب تاركاً بيتي يسدّد إليه الضربات بدون أن يرفع يداً.

- "مونتاغ، أيها الغبي، مونتاغ أيها الأحمق اللعين، لماذا فعلت ما فعلت حقاً؟".

لم يسمع مونتاغ. كان بعيداً، كان يجري مع عقله، لقد راح وترك جسده الميت المغطى بالسخام يتأرجح أمام أحمقٍ هاذٍ آخر.

قال فابر: "مونتاغ، اخرج من هناك!".

أصغى مونتاغ.

وجّه بيتي إليه ضربة على الرأس جعلته يتراجع مترنحاً. سقطت على الرصيف الرصاصة الخضراء التي كان صوت فابر يوشوش ويصرخ عبرها، التقطها بيتي بسرعة وعلى فمه ابتسامة عريضة. أمسك بها ونصفها داخل أذنه ونصفها الآخر خارجها.

سمع مونتاغ الصوت البعيد ينادي: "مونتاغ، هل أنت بخير؟".

أطفأ بيتي الرصاصة الخضراء ودسّها في جيبه. قال: "حسناً... ما لدينا هنا يفوق ما ظننته. لقد رأيتك تميل رأسك وتصغي. اعتقدت في بادئ الأمر أن لديك صدفة بحر، لكنني تعجبت عندما أصبحت أكثر براعةً بعد ذلك. سوف نتقصى مصدر هذا الشيء وسنزور صديقك".

- "كلا"، قال مونتاغ.

انتزع صمام أمان قاذف اللهب. نظر بيتي فوراً إلى أصابع مونتاغ وتوسعت عيناه قليلاً. لاحظ مونتاغ دهشة مونتاغ ونظر هو نفسه إلى يديه ليرى ما هي الفعلة الجديدة التي فعلتاها، وعندما كان يعود بتفكيره إلى الماضي في ما بعد لم يكن في مقدوره أبداً أن يقرر ما إذا كان قد حصل على الدافع الأخير للقتل من هاتين اليدين أو من رد

فعل بيتي على اليدين. وسقطت ضربة الرعد الهادر الأخيرة للانهيار الجبلي حول أذنيه بدون أن تمسه.

ابتسم بيتي ابتسامته الأعظم سحراً وقال: "حسناً، هذه إحدى الوسائل للحصول على جمهور. هدّد رجلاً بمسدس وأرغمه على الإصغاء لخطابك. هيا ألقِ خطابك. ماذا سيكون موضوعه في هذه المرة؟ لماذا لا تتجشأ شكسبير علي أيها المدّعي الأخرق؟ لا يوجد ما يرعب في تهديداتك يا كاسيوس لأنني قوي التسلح بالأمانة إلى درجة أن تهديداتك تمر على جانبي كريح كليلة لا أكنّ لها أي احترام! ما قولك في ذلك؟ هيا افعل ما تريد فعله الآن أيها المتأدّب الزائف، هيا شدّ الزناد". تقدّم بيتي خطوة نحو مونتاغ.

قال وابتسامته مسمّرة على وجهه: "أعطنيه يا غاي".

وما هي إلا ثانية حتى تحوّل بيتي إلى شعلة صاخبة، إلى دمية عرض قافزة متمايلة مثرثرة، لم يعد آدمياً أو معروف المعالم، كله لهب يلتف في دوامة فيما كان مونتاغ يطلق عليه سيلاً متواصلاً من النار السائلة.

كانت هناك هسهسة تشبه صوت سقوط ملء فم من اللعاب على موقد محمّر من شدة حرارته فراح يبقبق ويفور كما لو أن ملحاً رشّ فوق حلزون عملاق أسود لتمييعه بشكل مريع ولتفور منه رغوة صفراء. أغمض مونتاغ عينيه وراح يصرخ، يصرخ، وجاهد لإيصال يديه إلى أذنيه لسدّهما ومنع الصوت من اختراقهما. تخبّط بيتي مراراً وتكراراً ثم انطوى على نفسه كدمية شمع محترقة وهمدت حركته في آخر الأمر.

لم يتحرك الإطفائيان الآخران.

تحكم مونتاغ بغثيانه مدة كافية لتسديد قاذف اللهب وقال: "استديرا".

استدارا ووجهاهما كلحم مسلوق يتصببان عرقاً. ضربهما على رأسيهما فأوقع خوذتَيهما وأسقطهما على الأرض. سقطا بدون حراك.

طارت ورقة خريفية واحدة.

استدار وكان الكلب الآلي هناك.

كان في منتصف الفناء آتياً من الظلال ويتحرك منساباً بسهولة وكأنه كتلة سحاب متماسكة واحدة من الدخان الأسود – الرمادي تنفث عليه بصمت.

قام الكلب بقفزة واحدة أخيرة في الهواء منقضاً على مونتاغ من ارتفاع يربو على ثلاثة أقدام فوق رأسه وقوائمه العنكبوتية محدودة وإبرة البروكايين تبرز نابها القبيح الوحيد. لاقاه مونتاغ بنافورة لهب، بوردة نارية عجائبية واحدة التفّت بشكل وريقات صفراء وزرقاء وبرتقالية حول الكلب المعدني فألبسته غطاءً جديداً عندما ارتطم بمونتاغ ورماه إلى الخلف مسافة عشرة أقدام على جذع شجرة ومعه قاذف اللهب. شعر مونتاغ بالكلب يخدش ويقبض على رجله ويغرز الإبرة للحظة قبل أن ترميه النار عالياً في الهواء وتصدع عظامه المعدنية عند المفاصل وتفجّر داخله في هبّة لاهبة واحدة من اللون الأحمر كسهم ناري مثبت على الطريق. ظل مونتاغ جالساً على الأرض

يراقب هذا الشيء الميت - الحي يحرك قوائمه في الهواء ويموت.

وبدا الكلب حتى في هذه اللحظة وكأنه يريد الانقضاض عليه من جديد لإكمال حقن محتوى الإبرة الذي كان ينسلّ الآن عبر لحم رجله، أحس بكامل مزيج الارتياح والرعب لكونه تراجع في اللحظة الأخيرة تماماً كي لا تصاب إلا ركبته يرفرف سيارة منطلقة بسرعة تسعين ميلاً في الساعة. خاف من النهوض، خاف من احتمال أن يعجز تماماً عن الوقوف على قدميه برجله التي خدرت. خدر داخل خدر مخبأ في خدر...

والآن...؟

الشارع خاوٍ، المنزل محترق مثل كومة من الزخارف المسرحية القديمة، المنازل الأخرى معتمة، الكلب هنا، بيتي هناك، ثلاثة إطفائيين آخرين في مكان آخر، والسمندل...؟ نظر ملياً إلى المركبة الضخمة، لا بد من القضاء على هذه أيضاً.

فكّر: حسناً، لنتحقق من مدى سوء حالتك. انهض على قدميك الآن. بتمهل، بتمهل... هكذا.

وقف وكانت له رجل واحدة فقط. كانت الرجل الأخرى كقطعة من حطب الصنوبر المحروق يحملها كعقاب له على خطيئة غامضة ما. وعندما وضع ثقله عليها تدفق وابل من الإبر الفضية على امتداد ربلة ساقه وانغرزت في ركبته. بكى. هيا يا أنت. هيا يا أنت! هيا، لا يمكنك أن تبقى هنا!

أضيئت من جديد أنوار في منازل قليلة في الشارع لم يعرف مونتاغ

ما إذا كان ذلك ناجماً عن الأحداث التي وقعت قبل قليل أو عن الصمت غير المعهود الذي ساد بعد العراك.

تنقل بين الأنقاض وهو يعرج ويمسك رجله المعطوبة عندما كانت تخذله، فيكلمها ويشكو لها ويصرخ أوامر عليها ويلعنها ويناشدها أن تعمل من أجله الآن عندما أصبح ذلك ضرورة حيوية له. سمع عدداً من الأشخاص يتنادون ويصرخون في الظلام. وصل إلى الفناء الخلفي والطريق الضيق.

فكر: يا بيتي، أنت لم تعد مشكلة الآن. لقد كنت تقول دائماً: لا تواجه مشكلة، بل أحرقها. حسناً، لقد فعلت الأمرين الآن. الوداع أيها الكابتن.

واصل سيره المتعثر على الطريق الضيق في الظلام.

كان يشعر وكأنّ خرطوشةَ بندقية صيد تنفجر داخل رجله كلما وضعها على الأرض، وفكر: أنت أحمق، أحمق لعين، أحمق كريه، أنت غبي، غبي كريه، غبي لعين، وأحمق، أحمق لعين، انظر إلى القذارة، وأين هي الممسحة؟ انظر إلى القذارة، وماذا تفعل؟ الكبرياء، عليها اللعنة، وكذلك رباطة الجأش. لقد خربت كل شيء ومنذ البداية تقيأت على الجميع وعلى نفسك، لكن كل شيء حدث في نفس الوقت، لكن كل شيء حدث بالتتابع: بيتي، النساء، ميلدرد، كلاريس، كل شيء.

ومع ذلك بدون عذر، بدون عذر، أحمق، أحمق لعين، اذهب وسلم نفسك!

كلا. سننقذ ما يمكننا إنقاذه. سنفعل ما تبقى مما يجب فعله، وإذا كان علينا أن نحترق، فلنأخذ معنا قليلين آخرين منهم. هنا!

تذكّر الكتب واستدار عائداً. على أمل ما فقط.

وجد كتباً قليلة حيث كان قد تركها قرب سياج الحديقة. لقد سهت ميلدرد، باركها الرب، عن بعض منها. كانت أربعة كتب لا تزال مخبأة حيث وضعها. كانت أصوات ناحبة تسمع في الليل وأشعة أنوار كاشفة تحوم فوق المنطقة. كانت مركبات سمندل أخرى تزأر بمحركاتها من بعيد وصفارات إنذار الشرطة تزعق عبر المدينة.

أخذ مونتاغ الكتب الأربعة المتبقية ومشى في الطريق الضيق وهو يقفز على قدم واحدة، يريح جسمه، يقفز على قدم واحدة. وفجأةً وقع وكأن رأسه قطعت وبقي جسمه فقط ممدداً هناك. شيء ما في داخله دفعه إلى التوقف ومن ثم إلى السقوط. ظل ممدداً على الأرض حيث وقع وهو ينتحب ورجلاه مطويتان ووجهه ملتصق التصاقاً أعمى بحصى الطريق.

بيتي أراد أن يموت.

عرف مونتاغ وسط بكائه أن هذه هي الحقيقة. لقد كان بيتي يريد أن يموت. لقد وقف هناك بلا حراك و لم يحاول حقاً أن ينقذ نفسه. فكر مونتاغ أن بيتي وقف هناك ببساطة وهو يُنكِّت ويستفزّ، وكانت هذه الفكرة كافية لإيقاف نحيبه وجعله يتوقف لاستنشاق الهواء. ما أغرب، ما أغرب أن تريد الموت بشدة إلى درجة أن تترك رجلاً مسلحاً يجول على هواه وأن تواصل الصراخ على الناس والاستهزاء

بهم إلى أن تغضبهم تماماً ومن ثم...، وذلك بدلاً من أن تبقي فمك مغلقاً وتظل على قيد الحياة.

أقدام تركض على مسافة معينة.

استوى مونتاغ في جلسته. لنغادر هذا المكان. هيا، انهض، لا يمكنك أن تظل جالساً! لكنه كان لا يزال يبكي، ومن الضروري وضع حد لذلك. بدأت الرغبة في البكاء تتبدد الآن. إنه لم يرد أن يقتل أحداً، ولا حتى بيتي. انقبض لحمه وتقلص كما لو أُسقط في حمض. أصيب بغصة، رأى بيتي في هيئة مشعل مرفرف لابث بلا حراك فوق العشب. عضّ على براجم يده. أنا آسف. أنا آسف. آه يا ربي، أنا آسف.

حاول أن يحلّل ما حدث بالتفصيل، أن يعود إلى النمط العادي للحياة قبل أيام قليلة، قبل الغربال والرمل، قبل معجون أسنان دنهام وأصوات العث واليراعات وأجراس الإنذار والرحلات. أمور كثيرة جداً لأيام قصيرة قليلة، بل هي في الواقع كثيرة جداً لعمر بأكمله.

أقدام تركض في الطرف البعيد من الطريق الضيق.

قال لنفسه: "انهض!". قال لرجله: "انهضي. عليك اللعنة!" ثم نهض. كانت الآلام أسياخاً تقحم في عظم ركبته وتتحول بعد ذلك إلى إبر رتقٍ ثم إلى دبابيس عادية. وبعد أن تقدم مسافة خمسين عرجةً وقفزةً أخرى وقد امتلأت يده بشظايا من السياج العَريض. كان الوخز شبيهاً بتصويب رشاش من الماء الغالي على تلك الساق. لقد عادت تلك الساق في هذه الأثناء لتكون ساقه من جديد. كان

خائفاً من احتمال أن يؤدي الركض إلى كسر الكاحل الملتوي. راح الآن يستنشق الليل بكامله عبر فمه المفتوح ويزفره شاحباً، مبقياً كل السواد الثقيل في داخله. انطلق بسرعة هرولة ثابتة حاملاً الكتب في يديه.

فكّر في فابر.

كان فابر قد عاد إلى تلك البقعة الحارة من القطران التي لم يعد لها الآن اسم أو هوية، لقد أحرق فابر أيضاً. صدم بغتةً بذلك إلى درجة أنه شعر بأن فابر مات حقاً، بأنه شوي كسمكة في تلك الكبسولة الخضراء الصغيرة المدسوسة والضائعة في جيب رجل لم يعد الآن أكثر من هيكل مؤطر تشدّه أربطة من أسفلت.

فكّر: عليك أن تتذكّر أن تحرقهم وإلا سيحرقونك. الأمر بهذه البساطة الآن.

بحث في جيوبه كان المال هناك، وعثر في جيب آخر على الصدفة البحرية المألوفة التي تخاطب المدينة نفسها عبرها في الصباح البارد الأسود.

"تحذير من الشرطة. مطلوب القبض على هارب في المدينة، ارتكب جناية قتل وجرائم ضد الدولة. الاسم: غاي مونتاغ. المهنة: إطفائي. شوهد آخر مرة في...".

جرى بلا توقف مسافة ستة مربعات شارعية في الطريق الضيق، ثم انفتح الطريق على جادة عريضة خاوية تضم عشرة مسارب. بدت الجادة كنهرٍ خالٍ من القوارب تجمّد في مكانه تحت الضوء الفجّ

للمصابيح البيضاء المعلقة عالياً بحيث قد تغرق إذا حاولت عبوره. شعر مونتاغ بأن الجادة مفرطة الاتساع ومفرطة الانفتاح. كانت مسرحاً هائل الحجم بدون مناظر يدعوه لعبوره ركضاً حيث تسهل رؤيته تحت الإنارة الساطعة حيث يسهل الإمساك به، حيث يسهل قتله بالرصاص.

طنّت الصدفة البحرية في أذنه.

- "... انتبهوا لرجل يركض... انتبهوا للرجل الذي يركض... انتبهوا لرجل وحيد على قدميه... انتبهوا...".

تراجع مونتاغ إلى الظلال. كانت أمامه مباشرةً محطة محروقات، مبنى خزفي ضخم لامع كالثلج، دخلت إلى المحطة سيارتا بيتل فضيتان للتزود بالوقود. أصبح من الضروري الآن أن يكون نظيفاً ولائق المظهر إذا أراد أن يمشي لا أن يجري، إذا أراد أن يسير الهوينا وبهدوء عبر الجادة العريضة. سيزداد هامش الأمان لديه إذا اغتسل ومشّط شعره قبل أن يتابع طريقه إلى أين...؟

فكّر: نعم، إلى أين أجري؟

إلى لا مكان. لم يكن هناك مكان يذهب إليه، لم يكن لديه في الواقع صديق يلجأ إليه. باستثناء فابر. ثم أدرك أنه كان يجري بالفعل في اتجاه منزل فابر بدافع غريزي. لكن فابر لم يكن قادراً على تخبئته، وستكون حتى محاولة ذلك عملاً انتحارياً. لكنه كان يعلم أنه سيذهب بأية حال لرؤية فابر لدقائق قصيرة قليلة. وسيكون منزل فابر المكان الذي قد يستطيع فيه إعادة شحن إيمانه الناضب بسرعة في قدرته الذاتية على

البقاء. أراد أن يعرف فقط أن في العالم رجلاً مثل فابر. أراد أن يرى هذا الرجل حياً وليس محروقاً في ذلك المكان الخلفي كجثة مغلفة بجثة أخرى. ولا بد بالطبع من ترك بعض المال مع فابر لإنفاقه بعد أن يكون مونتاغ قد انطلق في حال سبيله، ربما يستطيع الوصول إلى البرية المفتوحة وأن يعيش على الأنهار أو قربها وغير بعيد عن الطرق السريعة في الحقول والتلال.

حفزه أزيزٌ دوّار على النظر إلى السماء.

كانت مروحيات الشرطة ترتفع عالياً على مسافة بعيدة جداً بحيث بدا وكأنّ أحداً ما نسف الرأس الرمادي لزهرة هندباء برية يابسة. أربع وعشرون مروحية حلّقت هائمةً وبدون اتجاه محدد على مسافة ثلاثة أميال منه وكأنها فراشات فاجأها الخريف. ثم ما لبثت المروحيات أن اتجهت نزولاً لتهبط على الأرض، واحدة إثر الأخرى، هنا وهناك، وتلامس الشوارع بنعومة حيث يستعيد بعضها شكل سيارات بيتل لتنطلق زاعقةً في الجادات العريضة أو ليقفز بعضها الآخر بالسرعة ذاتها عائدةً إلى الطيران لمواصلة بحثها.

وهنا كانت محطة المحروقات التي انشغل عمالها الآن بخدمة الزبائن. اقترب مونتاغ من الخلف ودخل إلى حمام الرجال. سمع عبر الجدار المصنوع من الألومنيوم صوت جهاز راديو يقول: "لقد أُعلنت الحرب" كان البنزين يضخّ في الخارج فيما انشغل الرجال في سيارات البيتل بالحديث وعمال المحطة بالكلام عن المحركات والبنزين والأموال التي يدينون بها. وقف مونتاغ محاولاً جعل نفسه

يشعر بصدمة التصريح الهادئ الذي سمعه من المذياع، لكن لم يحدث أي شيء. بالنسبة إليه سيتعين على الحرب أن تنتظر قدومه إليها بملفه الشخصي، بعد ساعة أو ساعتين.

غسل يديه ووجهه واستعمل منشفة لتجفيف نفسه محدثاً القليل من الصوت. خرج من الحمّام وأغلق الباب بخدر وسار إلى الظلمة ووقف من جديد عند طرف الجادة الخاوية في آخر الأمر.

كانت ماثلة هناك، لعبة جاهزة ليربحها، مجازة بولنغ هائلة في الصباح البارد. كانت الجادة نظيفة كسطح حلبة صراع قبل دقيقتين من ظهور ضحايا معينين لا أسماء لهم وقتلة معينين غير معروفين، ارتجّ الهواء فوق النهر الإسمنتي الواسع وحوله بفعل حرارة جسم مونتاغ وحدها، عجز عن تصديق كيف استطاعت حرارة جسمه أن تجعل كل العالم المحيط به مباشرةً يرتجّ. كان هدفاً فوسفورياً واضحاً، كان يعلم ذلك ويشعر به. وعليه الآن أن يبدأ مشواره القصير.

شعّت الأنوار الأمامية لسيارات قليلة على مسافة مربعات شارعية قليلة. أخذ مونتاغ نفساً عميقاً، وكانت رئتاه كمكنتين محترقتين داخل صدره، وكان فمه جافاً تماماً من الركض. امتلأت حنجرته بطعم حديدٍ دامٍ وقدماه بفولاذٍ صدئ.

ما شأن تلك الأنوار هناك؟ ما إن تبدأ السير حتى يتعين عليك أن تحسب سرعة وصول تلك السيارات البيتل إلى حيث أنت. حسناً، ما هي المسافة إلى الرصيف المقابل؟ بدت كمائة ياردة، الأرجح أنها ليست مائة ياردة، لكن افترض ذلك بأية حال. افترض ذلك على

أساس أنه سيحتاج إلى ثلاثين ثانية، أربعين ثانية، ليقطع تلك المسافة وهو يسير ببطء شديد، يسير الهوينا. سيارات البيتل؟ عندما تنطلق تستطيع أن تقطع ثلاثة مربعات شارعية في حوالى خمس عشرة ثانية. إذاً هل يبدأ في الركض حتى من نصف المسافة...؟

مدّ قدمه اليمنى إلى الأمام ثم قدمه اليسرى وأتبعها باليمنى. سار على الجادّة الخاوية.

أنت لا تستطيع طبعاً أن تثق في عبور آمنٍ حتى لو كانت الجادة خاوية تماماً، فمن الممكن أن تظهر سيارة فجأةً من خلف الطلعة على مسافة أربعة مربعات شارعية وأن تدهسك أو تجتازك قبل أن تأخذ عشرة أنفاس.

قرّر أن لا يعدّ خطواته، لم ينظر يساراً أو يميناً، بدت مصابيح الشارع المعلّقة ساطعة وكاشفة وحارة كشمس الظهيرة.

سمع صوت السيارة وهي تزيد سرعتها على مسافة مربعين شارعيين إلى يمينه. بدأت أنوارها الأمامية المتحركة ترتج فجأةً في هذا الاتجاه وذاك إلى أن صبّت وهجها على مونتاغ.

واصِلْ السير.

تعثّر مونتاغ. شدّد قبضته على الكتب وأرغم نفسه على عدم التجمّد في مكانه. جرى غريزياً عدة خطوات ثم حدّث نفسه بصوتٍ عالٍ. هدّأ نفسه ليعاود المشي بتمهل. كان قد عبر نصف الشارع الآن، لكن هدير آلات السيارة البيتل أصبح أكثر صخباً وهي تزيد سرعتها. إنهم رجال الشرطة بالطبع. إنهم يرونني. لكن أبطئ الآن، أبطئ،

اهدأ، لا تركض، لا تنظر، لا تبدُ مهتماً، امشِ، هذا هو المطلوب. امشِ، امشِ.

كانت السيارة البيتل آتية بسرعة. كانت السيارة البيتل تزأر. زادت السيارة البيتل سرعتها. كانت السيارة البيتل تئز. كانت السيارة البيتل تقصف كالرعد. جاءت السيارة البيتل مكتسحةً. جاءت السيارة البيتل وهي تصفر في مسار منفرد لقذيفة كأنها أطلقت من بندقية غير مرئية. بلغت سرعتها ١٢٠ ميلاً في الساعة، بلغت سرعتها ١٣٠ ميلاً في الساعة على الأقل. أطبق مونتاغ فكيه. بدا أن حرارة الأنوار الأمامية الهاجمة عليه أحرقت وجنتيه ورجّت أجفانه وغطّت كل جسمه بعرقٍ نتن.

بدأ يجرجر قدميه ويحدّث نفسه بغباء ثم انطلق من مكانه وركض. كان يمدّ رجليه إلى أبعد ما تصلان قبل أن ينزلهما إلى الأرض، يمدّهما إلى أبعد ما تصلان وينزلهما إلى الأرض مراراً وتكراراً. يا إلهي! يا إلهي!

أسقط كتاباً، خفف سرعته، كاد يعود أدراجه، غيّر رأيه، واصل عدوه وهو يصرخ في الخواء الإسمنتي وسيارة البيتل تندفع وراء وجبتها الهاربة على مسافة مائتي قدم، مائة قدم، تسعين قدماً، ثمانين، سبعين، كان مونتاغ يلهث ويرفرف بيديه ورجلاه ترتفعان وتمتدان وتنزلان. اقتربت السيارة أكثر فأكثر وهي تزفر وتناديه. أصبحت عيناه لاهبتين إلى درجة البياض الآن فيما كان يحرك رأسه عشوائياً لمواجهة الوهج الساطع بعد أن اختفت السيارة البيتل في نورها هي ولم تعد إلا شعلة

منقضّة عليه بصخب وزئير. والآن... أصبحت فوقه تقريباً.

تعثر وسقط.

انتهى أمري. انتهى كل شيء.

لكنّ السقطة أحدثت فارقاً. وقبل لحظة من الوصول إليه غيّرت السيارة البيتل اتجاهها وانحرفت بعيداً عنه، اختفت. كان مونتاغ ممدداً ورأسه على الأرض. بلغت مسمعه أصداء ضحكات حملتها إليه الأدخنة الزرقاء لعادم السيارة البيتل.

كانت يده اليمنى ممدودة فوقه بشكل منبسط. وعندما رفع هذه اليد رأى على أقصى طرف إصبعه الوسطى أثراً باهتاً أسود لا يتجاوز جزءاً واحداً من ستة عشر جزءاً من الإنش خلّفه سطح عجلة السيارة حيث لامست وهي عابرة. نظر إلى ذلك الخط الأسود غير مصدق وهو ينهض واقفاً على قدميه.

فكّر أن هؤلاء لم يكونوا من الشرطة.

نظر إلى امتداد الجادة. كانت خاوية الآن.

لعلها كانت سيارة مليئة بأطفال من أعمار مختلفة لا يعلمها إلا الله، من اثني عشر عاماً إلى ستة عشر عاماً، يصفرون ويصرخون ويهتفون ثم شاهدوا رجلاً يسير الهوينا، وهو منظر نادراً جداً، فقالوا: "دعونا ننال منه"، بدون أن يعلموا أنه السيد مونتاغ الهارب. كانوا ببساطة عدداً من الأطفال الذين خرجوا لتمضية ليلة طويلة من القيادة المتهورة الصاخبة مسافة خمسمائة أو ستمائة ميل خلال ساعات قليلة من ضوء القمر ووجوههم متجلدة من لفح الهواء لا يعلمون ما إذا كانوا

سيعودون إلى منازلهم عند الفجر أم لا، أحياء أم غير أحياء، هذا هو جوهر المغامرة.

فكّر مونتاغ وهو يترنّح أنه كان في وسعهم أن يقتلوني. كان الهواء حوله لا يزال ممزقاً وعابقاً بالغبار. لامس وجنته المسحوجة وفكّر أنهم أوشكوا على قتلي بدون أي سبب على الإطلاق.

سار في اتجاه الرصيف المقابل وهو يوعز إلى كل قدم بالسير ومتابعة التحرك. تمكّن بالشكل ما من لملمة الكتب التي تبعثرت، ولم يتذكر أنه انحنى أو لمسها. ظل ينقلها من يد إلى أخرى كما لو كانت أوراق لعبة بوكر تعذّر عليه تقدير جدواها.

تُرى هل هم الذين قتلوا كلاريس؟

تسمّر في مكانه وكرّر عقله السؤال بصوت عال.

تُرى هل هم الذين قتلوا كلاريس!

أراد أن يجري خلفهم وهو يصرخ.

تبللت عيناه.

كان سقوطه محدداً على الأرض ما أنقذ حياته.

فكّر سائق السيارة غريزياً عندما شاهد مونتاغ ممدداً على الأرض أنّ دهس جسم بمثل هذه السرعة العالية يمكن أن يتسبب في انقلاب السيارة ورمي ركابها إلى الخارج. لو ظلّ مونتاغ هدفاً واقفاً على رجليه...؟

لهث مونتاغ.

بعيداً في الجادة وعلى مسافة أربعة مربعات شارعية أبطأت السيارة

البيتل سرعتها واستدارت على عجلتين وانطلقت عائدةً بسرعة متزايدة وهي تجنح إلى الجانب الخطأ من الشارع.

لكنّ مونتاغ كان قد اختفى، اختبأ في أمان الدرب الضيق الذي كان قد انطلق إليه أصلاً في رحلته الطويلة قبل ساعة. أم هل كان ذلك قبل دقيقة واحدة؟ وقف مرتعشاً في ظلمة الليل وهو يختلس النظر إلى الخارج عندما مرت السيارة البيتل وانزلقت عائدةً إلى وسط الجادة وتُسمَع منها ضحكات متوالية تملأ الهواء إلى أن اختفت.

وعندما تحرك مونتاغ في الظلام استطاع أن يرى على مسافة منه الطائرات المروحية وهي تسقط، تسقط كأولى ندف ثلج الشتاء الطويل القادم...

كان البيت ساكناً.

اقترب مونتاغ من الجهة الخلفية زاحفاً عبر رائحة قوية تفوح من النرجس الذي ندّاه الليل والزهور والعشب المبتل. لمس الباب الشبكي في الخلف ووجده مفتوحاً فانسلّ إلى الداخل وتقدم عبر الرواق وهو يصيخ السمع.

فكّر: يا سيدة بلاك، هل أنت نائمة في الداخل؟ هذا ليس جيداً، لكن زوجك فعل فعلته مع آخرين و لم يسأل قط و لم يتساءل مرة و لم يقلق أبداً. والآن، بما أنّك زوجة إطفائي، جاء دور منزلك ودورك أنت من أجل جميع المنازل التي أحرقها وجميع الناس الذين أذاهم بدون أن يفكر.

لم يجاوبه المنزل.

خبّأ الكتب في المطبخ وغادر المنزل إلى الدرب من جديد ورجع بنظره إلى الوراء وكان المنزل لا يزال معتماً وهادئاً ونائماً.

في طريق عودته عبر المدينة وفيما كانت المروحيات تحوم في السماء، كقصاصات أوراق ممزقة، أطلق الإنذار تليفونياً بإجراء مخابرة من غرفة هاتف مهجورة خارج متجر مغلق في الليل. وقف بعد ذلك منتظراً في هواء الليل البارد. سمع صفارات إنذار الحريق من بعيد وهي تنطلق وتتوالى وسمع سيارات السمندل وهي آتية، آتية لإحراق منزل السيد بلاك وهو غائب عنه في العمل، ولجعل زوجته تقف مرتجفةً في هواء الصباح وسقف المنزل يتداعى ويسقط بين ألسنة اللهب. لكنها كانت لا تزال نائمة الآن.

فكر: ليلة سعيدة يا سيدة بلاك.

"فابر".

دقة أخرى على الباب، همسة، انتظار طويل. بعد ذلك بدقيقة ارتجف ضوء صغير داخل منزل فابر الصغير. وبعد مهلة قصيرة أخرى انفتح الباب الخلفي.

وقفا متقابلين ينظر أحدهما إلى الآخر في الضوء الخافت. فابر ومونتاغ كما لو لم يصدِّق أيٌّ منهما أن الآخر موجود. ثم تحرك فابر ومدّ يده وأمسك مونتاغ وجرّه إلى الداخل وأجلسه، وعاد إلى الباب حيث وقف يستمع. كانت صفارات الإنذار تزعق بعيداً في الصباح. دخل إلى المنزل وأقفل الباب.

قال مونتاغ: "لقد كنت أحمق طول الوقت، لا أستطيع البقاء

طويلاً. أنا في طريقي إلى مكان لا يعلمه إلا الله".

قال فابر: "كنت على الأقل أحمق في ما يتعلق بالأمور الصحيحة. ظننت أنك مت. الكبسولة الصوتية التي أعطيتك إياها".

- "احترقت".

- "سمعت الكابتن يكلمك ثم لم يعد هناك أي شيء. كدت أخرج لأبحث عنك".

- "مات الكابتن. لقد عثر على الكبسولة الصوتية وسمع صوتك وكان ينوي تقصّي مصدره، وقتلته أنا بقاذف اللهب".

جلس فابر ولزم الصمت فترة من الوقت.

قال مونتاغ: "يا إلهي! كيف حدث ذلك؟ كان كل شيء على ما يرام قبل ليالي قليلة فقط، وفجأةً اكتشفت أنني أغرق. كم مرة يستطيع الإنسان أن يهوي ويظل حياً بعد ذلك؟ لا أستطيع أن أتنفس. هناك بيتي الذي مات، وكان صديقي في ما مضى، وهناك ميللي التي ذهبت، وكنت أظن أنها زوجتي لكنني لا أعرف الآن. والمنزل احترق بالكامل. وظيفتي انتهت وأنا نفسي هارب. وقد دسست كتاباً في منزل إطفائي وأنا في طريقي إلى هنا. يا يسوع الطيب، ما هذه الأمور التي فعلتها في أسبوع واحد!".

- "لقد فعلت ما انبغى أن تفعله. كان حدوث هذه الأمور مقدّراً منذ زمن طويل".

- "نعم، أنا أصدّق ذلك. حتى لو لم يوجد شيء آخر أصدّقه، لقد تراكمت الأمور تمهيداً لحدوثها. كان في وسعي الشعور بها منذ فترة

طويلة. كنت أتستر على شيء ما، كنت أجول هنا وهناك وأفعل شيئاً معيناً وأشعر بشيء أخر. يا إلهي، كان كل شيء هناك. إنها معجزة أن ذلك لم يظهر علي كما تظهر السمنة على الجسم. والآن هأنذا في هذا المكان أشوّش حياتك أيضاً. ومن المحتمل أن يلاحقوني إلى هنا".

قال فابر: "أنا أشعر بأنني حي لأول مرة منذ سنوات. أشعر بأنني أفعل ما كان علي أن أفعله على مدى العمر. لقد تحررت من الخوف لفترة قصيرة. ربما كان سبب ذلك أنني أفعل الشيء الصحيح في آخر الأمر. ربما لأنني قمت بعملٍ طائش ولا أريد أن أظهر أمامك كرجل جبان. أفترض أنه سيتعين علّي القيام بأفعال أكثر عنفاً حتى وتعريض نفسي للانكشاف كي لا أفشل في مهمتي ويتملكني الذعر من جديد. ما هي خططك؟".

– "أن أواصل الهرب".

– "هل تعلم أن هناك حرباً تدور؟".

– "سمعت ذلك".

قال الرجل العجوز: "يا إلهي، أليس الأمر مضحكاً؟ تبدو الحرب بعيدة جداً لأننا منشغلون بمشكلاتنا الخاصة".

– "لم يُتَح لي الوقت للتفكير". أخرج مونتاغ ورقة مائة دولار وقال: "أريد أن تبقى هذه الورقة النقدية معك. استخدمها بأي طريقة مفيدة بعد رحيلي".

– "لكنْ".

– "قد أكون ميتاً بحلول الظهر. استخدمها".

أومأ فابر برأسه وقال: "الأفضل لك أن تتجه نحو النهر إذا استطعت. اتبع مجراه، وإذا تمكنت من بلوغ خطوط السكك الحديدية القديمة الموصلة إلى الريف، اتبعها أيضاً. وبالرغم من أن كل شيء صار ينقل عملياً بطريق الجو في هذه الأيام ومن أن معظم الخطوط الحديدية أصبحت مهجورة فإن السكك ما زالت في مكانها تصدأ. وسمعت أنه ما زالت هناك مخيمات للعمال المترحلين وللمشردين هنا وهناك في مختلف أنحاء البلد، يدعونها مخيمات الماشين، وإذا واصلت المشي مسافة كافية وأبقيت عينيك مفتوحتين ستجد، حسب ما يقال، شهادات كثيرة من جامعة هارفرد مرمية وسط السكك الحديدية بين هذا المكان ولوس انجلوس. ومعظم أصحاب هذه الشهادات مطلوبون وملاحقون في المدن حيث أظن أنهم يعتاشون، ليس عددهم كبيراً كما أعتقد، ولم تعتبرهم الحكومة يوماً خطراً كبيراً إلى درجة كافية لكي تتحرك وتطاردهم. يمكنك أن تختبئ معهم لفترة من الزمن وأن تتصل بي في مدينة سينت لويس. أنا مسافر إلى هناك بأوتوبيس الساعة الخامسة هذا الصباح لأقابل طبّاعاً متقاعداً يعيش هناك. أنا نفسي خارج إلى العلن في آخر الأمر. وسينفق هذا المال لغاية جيدة. شكراً لك وليباركك الله، هل تودّ أن تنام دقائق قليلة؟".

- "الأفضل أن أسرع في الذهاب".
- "دعنا نتحقق".

أخذ الرجل العجوز مونتاغ بسرعة إلى غرفة النوم ورفع إطار صورة فانكشف شاشة تلفزيون بحجم بطاقة بريدية. قال: "لقد أردت دائماً

شيئاً صغيراً جداً، شيئاً أستطيع أن أمشي إليه، شيئاً أستطيع تغطيته براحة يدي عند الضرورة، لم أرد شيئاً يطغى علي، شيئاً ضخماً قبيحاً، كما ترى". أدار زر التشغيل.

قال جهاز التلفزيون وهو يضيء: "مونتاغ، م... و... ن... ت... ا... غ". هجى الصوت الاسم حرفاً حرفاً. "غاي مونتاغ. ما زال هارباً. مروحيات الشرطة تحلق. كلب آلي جديد جلب من مقاطعة أخرى".

تبادل مونتاغ وفابر النظرات.

- "... الكلب الآلي لا يفشل أبداً. لم يرتكب هذا الاختراع الفذ أي خطأ منذ استخدامه لأول مرة لتعقب طريدة. وتفخر شبكتنا في هذه الليلة بالفرصة التي أتيحت لها لمتابعة الكلب بواسطة مروحية الكاميرا وهو ينطلق نحو هدفه...".

صبّ فابر كأسين من الويسكي قال: "ستحتاج إلى هذا".

شربا.

- "... للكلب الآلي أنف حساس إلى درجة أنه يستطيع أن يتذكر ويميّز عشرة آلاف رمز رائحة لعشرة آلاف رجل بدون إعادة برمجة!".

شرب فابر القطرة الأخيرة بيد مرتعشة ونظر حوله إلى منزله، إلى الجدران، الباب، مقبض الباب، والكرسي الذي كان مونتاغ جالساً عليه الآن. لاحظ مونتاغ هذه النظرة. جال كلاهما بنظره سريعاً في أرجاء المنزل وشعر مونتاغ بمنخريه يتوسعان وأدرك أنه يحاول تعقب نفسه. فجأةً أصبح أنفه حساساً إلى درجة كافية لاستشعار المسرب

الذي أحدثه في هواء الغرفة وعرق يده الذي ما زال عالقاً على مقبض الباب غير مرئيّ وإن تكن قطراته عديدةً كماسات ثريا صغيرة. كان موجوداً في كل مكان، داخل وعلى وحول كل شيء، كان غيمة مضيئة، كان شبحاً جعل التنفس مستحيلاً من جديد. رأى فابر يحبس نفسه خوفاً من استنشاق هذا الشبح إلى داخل جسمه وربما من الإصابة بعدوى زفرات الشبح وروائح رجل هارب.

– "الكلب الآلي ينزل الآن بطائرة مروحية في موقع الحرق!".

ظهر على الشاشة الصغيرة المنزل المحروق والجمهور المحتشد وشيء مغطى بغلالة وُضعت فوقه وأطلّت الطائرة المروحية في السماء وهي تهتز. كانت تشبه وردة عجيبة من نسج الخيال.

فكر مونتاغ أنهم لا بد وأن يكونوا قد عادوا إلى ممارسة لعبتهم... من الضروري أن يستمر السيرك حتى في غضون الساعة التي تبدأ فيها الحرب...

راقب المنظر مسحوراً وغير راغب في الحراك. بدت الأمور بعيدة جداً ولا تمّت إليه بصلة، كانت لعبة فريدة من نوعها ومنفصلة عن سواها، من الرائع التفرج عليها، لكن ليس بدون متعتها الغريبة. ظننت أن هذا كله لأجلي أنا، أن كل ما يحدث هو لي وحدي بحق الرب.

يستطيع إذا أراد أن يمكث هنا فترة أطول وهو مرتاح وأن يتابع المطاردة كلها عبر مراحلها السريعة على امتداد دروب ضيقة وعبر شوارع وفوق جادات.سريعة خاوية، مروراً بقطع أرض ممسوحة وملاعب، مع وقفات استراحة هنا أو هناك من أجل لقطات الدعايات

التجارية الضرورية، ثم عودة إلى دروب أخرى صاعدة إلى المنزل المحترق للسيد والسيدة بلاك، وختاماً إلى هذا المنزل الذي يجلس فيه فابر وهو نفسه ويشربان فيما يقتفي الكلب الكهربائي بحاسة شمّه الأثر إلى آخره بصمتٍ تام كنسمة الموت نفسه ويتوقف منزلقاً خارج تلك النافذة هناك. ثم من الممكن أن ينهض مونتاغ، إذا أراد، وأن يسير إلى النافذة مبقياً عيناً واحدة على شاشة التلفزيون وأن يفتح النافذة ويطلّ على الخارج وينظر خلفه ليرى نفسه معروضاً كشخص درامي يعطى أوصافاً ويعدل شكله ويؤطر من الخارج في شاشة التلفزيون اللامعة الصغيرة، ليصبح دراما تشاهد بموضوعية وهو يعرف أنه يظهر في ردهات منازل أخرى أكبر من الحياة نفسها بألوان كاملة ومقاييس مثالية! وإذا أبقى عينيه مفتوحتين سرعان ما سيرى نفسه لحظة واحدة قبل غياب الوعي وجسمه يثقب لتسلية مدنيين كثيرين جالسين في الردهات أنهضتهم من نومهم قبل دقائق قليلة الزعقات المسعورة لصفارات الإنذار في جدران غرف نومهم ليأتوا ويشاهدوا اللعبة الكبيرة، المطاردة، وكرنفال الرجل الواحد.

هل سيتاح له الوقت لإلقاء خطاب؟ وفيما يقبض عليه الكلب تحت أنظار عشرة ملايين شخص، أو عشرين مليوناً أو ثلاثين مليوناً، ألا يجدر به أن يوجز حياته كلها خلال الأسبوع الأخير في جملة واحدة وحيدة أو في كلمة تبقى في ذاكرتهم طويلاً بعد أن يكون الكلب قد استدار وقبض عليه بأسنانه المعدنية الشبيهة بالكماشة وانطلق به بعيداً في الظلام بينما ظلت الكاميرا ثابتة تراقب المخلوق يتضاءل في

المسافة - ويا لها من نقطة ختامية رائعة! ماذا يستطيع أن يقول في كلمة واحدة، في كلمات قليلة، لكي يلفح وجوههم جميعاً ويوقظهم من سباتهم؟

- "هناك"، همس فابر.

تدلّى هابطاً من طائرة مروحية شيء لم يكن آلة ولا حيواناً، لا ميتاً ولا حياً، يتوهج بلمعان أخضر باهت. وقف قرب أنقاض منزل مونتاغ التي كان الدخان يتصاعد منها. حمل الرجال قاذف اللهب الذي كان مونتاغ قد تركه، وأتوا به إلى الكلب ووضعوه تحت خطمه. سُمعت أصوات طنين وطقطقة وهمهمة.

هزّ مونتاغ رأسه ونهض وشرب ما تبقى في كأسه. وقال: "آن الأوان. أنا آسف لهذا الأمر".

- "بشأن ماذا؟ بشأني أنا؟ بشأن منزلي؟ أنا أستأهل كل شيء. أركض حبّاً بالرب، ربما أستطيع تأخيرهم هنا".

- "انتظر. لا فائدة من أن يكتشفوك. عندما أغادر أحرِق ملاءة هذا السرير التي لمستها، وأحرِق المقعد الموجود في غرفة النوم في موقدك الجداري. امسح الأثاث بالكحول وامسح مقابض الأبواب أيضاً. أحرِق بساط الردهة وشغّل مكيّف الهواء بقوته القصوى في جميع الغرف ورشّ فيها مبيداً للعث إذا كان متوفراً لديك. بعد ذلك افتح رشاشات ريّ العشب إلى أعلى قوتها واشطف الأرصفة. وإذا حالفنا الحظ قليلاً سنتمكن من القضاء على الأثر هنا بأية حال".

هزّ فابر يده وقال: "سأهتم بالأمر. أتمنى لك التوفيق. وإذا بقينا

أنت وأنا في صحة جيدة اتصل بي في الأسبوع القادم، الأسبوع الذي يليه، عن طريق خدمة التوصيل العامة في سينت لويس. يؤسفني عدم وجود أي طريقة تمكّنني من مرافقتك في هذه المرة عبر هاتف الأذن. كان ذلك مفيداً لكلينا، لكنّ تجهيزاتي محدودة. أنت ترى لماذا لم أفكر قط في أنني قد أستعمله. يا لي من رجل عجوز سخيف. لا تفكير هناك. غبي، غبي. لذا ليس لدي رصاصة خضراء أخرى من النوع الصحيح لكي تضعها في رأسك. اذهب الآن!".

– "أمر واحد أخير. بسرعة. اجلب حقيبة ثياب، املأها بملابسك الأشدّ اتساخاً وبذلة قديمة كلما زاد اتساخها كانت أفضل، وقميص وحذاء رياضي قديم وجوارب...".

ذهب فابر وعاد في غضون دقيقة واحدة، أحكما إغلاق الحقيبة الكرتونية بشريط لاصق شفّاف.

قال فابر وهو يتعرّق من المجهود: "هذا بالطبع لإبقاء الرائحة العتيقة للسيد فابر في الداخل".

رشّ مونتاغ خارج الحقيبة بالويسكي وقال: "لا أريد أن يشتمّ الكلب رائحتين في نفس الوقت. هل تسمح لي بأخذ هذا الويسكي؟ سأحتاج إليه في وقت لاحق. يا يسوع، أرجو أن ينجح هذا الأمر!".

تصافحا من جديد، وعند خروجهما من الباب نظرا إلى التلفزيون. كان الكلب في طريقه إلى هدفه تتبعه مروحيات الكاميرات المحلّقة فوقه وهو يشتمّ بصمت، بصمت هواء الليلة العظيمة. كان يعدو في الدرب الأول.

- "مع السلامة!".

خرج مونتاغ من الباب الخلفي بخطى خفيفة وجرى حاملاً الحقيبة المملوءة إلى نصفها. سمع الحياة تدبّ خلفه في شبكة رشاشات ريّ العشب التي ندّت الهواء الداكن أولاً بقطرات مطر متساقطة بلطف ثم انهمرت في وابل متواصل على كامل المنطقة المحيطة بها فغسلت الأرصفة وتسرّبت إلى الطريق. حمل مونتاغ معه على وجهه قطرات قليلة من هذا المطر. ظنّ أنه سمع الرجل العجوز يناديه متمنياً له السلامة، لكنه لم يكن متأكداً من ذلك.

جرى بسرعة كبيرة مبتعداً عن المنزل ونزولاً نحو النهر.

ركض مونتاغ.

كان في إمكانه الشعور بالكلب آتياً كالخريف بارداً وجافاً ومسرعاً كريح لا تحرّك عشباً ولا ترجّ نوافذ ولا تزعج في مرورها أفياء أوراق الشجر على الأرصفة البيضاء. لم يكن الكلب يلامس العالم. كان يحمل صمته معه بحيث تستطيع الشعور بالصمت وهو يراكم ضغطاً وراءك في كافة أنحاء المدينة، أحس مونتاغ بتعاظم الضغط وركض.

توقف لالتقاط أنفاسه وهو في طريقه إلى النهر وليحدّق عبر نوافذ خافتة الإنارة في منازل تمّ إيقاظها. رأى خيالات أشخاص في الداخل ينظرون إلى جدران ردهاتهم، وعلى هذه الجدران الكلب الآلي بنَفَسه من بخار النيون وهو يتقدم بخطى عنكبوتية فيظهر هنا ويختفي، يظهر هنا ويختفي! تجاوز محلة إلم تيراس، شارع لنكولن، شارع أوك، شارع بارك، وبلغ الآن الطريق الصاعد إلى منزل فابر.

فكر مونتاغ: تابع سيرك، لا تتوقف، تابع سيرك، لا تنعطف إلى الطريق!

ظهر على جدار الردهة منزل فابر وشبكة رشاشات الري تنبض في هواء الليل.

توقف الكلب وهو يرتجف.

كلا! تمسّك مونتاغ بعتبة النافذة في هذا الاتجاه هنا!

خرجت إبرة البروكايين ودخلت بسرعة خاطفة، خرجت ودخلت. سقطت من الإبرة وهي تختفي في خطم الكلب قطرة صافية واحدة من عقار الأحلام.

حبس مونتاغ نفسه كما لو أُصيب بلكمة مزدوجة في صدره.

استدار الكلب الآلي وهرع من جديد نزولاً في الطريق بعيداً عن منزل فابر.

وجّه مونتاغ نظره بسرعة إلى السماء. كانت المروحيات أقرب الآن كغمامة كبيرة من الحشرات المتحلقة حول مصدر وحيد للنور.

اعاد مونتاغ تذكير نفسه بشق النفس أن هذه ليست حلقة في مسلسل يشاهدها وهو يعدو إلى النهر. كان يشاهد في الواقع لعبة الشطرنج الخاصة به حركة إثر حركة.

صرخ ليعطي نفسه الدفعة اللازمة للابتعاد عن نافذة هذا المنزل الأخير والجلسة الأخاذة الملتئمة داخله! "بحق الجحيم". غادر المكان واختفى! الدرب، شارع، الدرب، شارع ورائحة النهر. ساق ممدودة، ساق هابطة، ساق ممدودة وهابطة. لو اكتشفته الكاميرات سيكون

هناك قريباً عشرون مليون مونتاغ يركضون، عشرون مليون مونتاغ يركضون، يركضون مثل شخصيات فيلم هزلي رخيص قديم من أفلام كيستون: رجال شرطة، لصوص، مطارِدون ومطارَدون، صيادون وطرائد، لقد شاهده ألف مرة. وخلفه الآن عشرون مليون كلب، نابح بلا صوت، كلاب تتطاير صورها عبر الردهات، صور بحجم ثلاث وسادات تطلق من جدار اليمين إلى جدار الوسط إلى جدار اليسار، تختفي، جدار اليمين، جدار الوسط، جدار اليسار، تختفي!

دسّ مونتاغ صدفته البحرية في أذنه:

- "تقترح الشرطة على جميع سكان محلة إلم تيراس أن يلتزموا بما يلي: على كل شخص في كل منزل في كل شارع أن يفتح باباً أمامياً أو باباً خلفياً أو أن ينظر عبر النوافذ. لا يمكن للهارب أن ينجو إذا نظر كل شخص من منزله خلال الدقيقة التالية. جاهزون!".

بالطبع! لماذا لم يفعلوا ذلك من قبل!

لماذا لم تجرّب هذه اللعبة على امتداد كل السنين! جميع الناس يستيقظون، جميع الناس يخرجون! هكذا لا يمكن أن يضيّعوه! إنه الرجل الوحيد الذي يركض وحيداً في مدينة الليل، الرجل الوحيد الذي يثبت قوة ساقيه!

- "عند العدّ إلى عشرة الآن! واحد، اثنان!".

شعر بالمدينة تنهض.

- "ثلاثة".

شعر بالمدينة تلتفت إلى آلاف الأبواب فيها.

- "أربعة".

الناس يسيرون وهم نائمون في أروقة منازلهم.

- "خمسة".

شعر بأيديهم توضع على مقابض الأبواب!

أتتْه رائحةُ النهر باردة كزخة مطر قوية. كانت حنجرته كصدأ محروق بعدما دمعت عيناه حتى جفّتا وهو يجري. صرخ وكأن صرخته ستعطيه دفعة قوية إلى الأمام وتطير به مسافة الياردات المائة الباقية.

- "ستة، سبعة، ثمانية!".

أُديرت المقابض في خمسة آلاف باب.

- "تسعة!".

ركض مبتعداً عن الصف الأخير من المنازل على منحدر يهبط إلى ظلمة كثيفة متحركة.

- "عشرة!".

فُتحت الأبواب.

رأى مونتاغ في مخيلته آلافاً مؤلفة من الوجوه تحملق في الأفنية والدروب والسماء، ووجوه مختبئة خلف الستائر، ووجوه شاحبة مصابة بفزع الليل تشبه حيوانات رمادية تحملق من داخل كهوف كهربائية، ووجوه لها عيون رمادية بلا لون وألسنة رمادية وأفكار رمادية تطل على الخارج عبر لحم وجوههم فاقد الحس.

لكنه كان عند النهر.

لمس النهر ليتأكد فقط من أنه حقيقي وخاض في مائه. خلع كل

ثيابه في العتمة حتى تعرّى تماماً ودلك جسمه وذراعيه وساقيه ورأسه بالشراب الكحولي المركّز وشرب منه. استنشق بعضاً منه في أنفه. ارتدى بعد ذلك ملابس فابر القديمة وحذاءه العتيق ورمى ملابسه في النهر وراقبها تنجرف بعيداً. بعد ذلك نزل إلى النهر حاملاً الحقيبة وسار إلى أن اختفى القعر من تحت قدميه وانجرف مع المياه في الظلام.

كان قد قطع ثلاثمائة ياردة في المجرى المائي عندما وصل الكلب إلى النهر. كانت المراوح الضخمة الزاعقة للطائرات العمودية تدور فوق المكان.

انهالت على النهر عاصفة من الأضواء كما لو أن الشمس اخترقت أحجبة الغيوم. أحسّ بالنهر يسحبه أبعد فأبعد في مجراه إلى داخل العتمة. أُعيد توجيه الأضواء إلى اليابسة وبدّلت المروحيات مسارها عائدةً إلى المدينة كما لو أنها اكتشفت أثراً آخر. اختفت المروحيات، اختفى الكلب. لم يبقَ الآن إلا النهر البارد ومونتاغ الطافي بإحساس أمان مفاجئ مبتعداً عن المدينة والأضواء والمطاردة مبتعداً عن كل شيء.

شعر وكأنه ترك وراءه مسرحاً وممثلين عديدين. شعر وكأنه غادر الجلسة العظيمة لاستحضار الأرواحِ وجميع الأشباح المهمهمة. كان ينتقل من اللاحقيقة المفزعة إلى حقيقة غير حقيقية لأنها كانت جديدة.

انزلقت الأرض السوداء وراءه فيما كان متجهاً إلى الريف الواقع بين التلال. ولأول مرة منذ اثنتي عشرة سنة كانت النجوم تسطع

فوقه في مواكب عظيمة من النار الدوارة. رأى كتلة هائلة من النجوم تتشكل في السماء وتهدّد بالسقوط عليه وسحقه.

طفا على ظهره عندما امتلأت الحقيبة بالماء وغرقت. وكان النهر معتدلاً ومتمهلاً يتجه بعيداً عن الناس الذين كانوا يأكلون أطيافاً لفطور الصباح وبخاراً لوجبة الغداء وضباباً لوجبة العشاء. كان النهر حقيقياً جداً، حمله بصورة مريحة وأتاح له في آخر الأمر الوقت والفراغ اللازمين للتفكير في هذا الشهر، هذا العام، وهذا العمر الحافل بالسنين. استمع إلى قلبه وهو يبطئ حركته وتوقفت أفكاره عن الجري مع دمه.

رأى القمر منخفضاً في كبد السماء الآن. القمر موجود هناك، لكن ما الذي يسبب ضوء القمر؟ الشمس بطبيعة الأمر. وما الذي يضيء الشمس؟ نارها الخاصة. وتظل الشمس تحترق وتحترق يوماً بعد يوم. الشمس والزمن. الشمس والزمن والاحتراق. الاحتراق. حمله النهر مترجرجاً بلطف. الاحتراق. الشمس وكل ساعة على الأرض. تجمّعت كافة هذه الأمور معاً وأصبحت شيئاً واحداً في ذهنه. وبعد زمن طويل من الطفو على الأرض وزمن قصير من الطفو على النهر أدرك لماذا لا يجوزو له أبداً أن يحرق من جديد في حياته.

الشمس تحرق كل يوم، إنها تحرق الزمن. الأرض تلتف مسرعةً في دائرة حول محورها فيما ينشغل الزمن في إحراق السنين والبشر بدون مساعدة منه بأية حال. إذاً إذا كان قد أحرق أشياء مع الإطفائيين، وإذا كانت الشمس تحرق الزمن، فمعنى ذلك أن كل شيء يحترق!

كان على أحد ما أن يتوقف عن الإحراق.

الشمس لن تفعل ذلك بالتأكيد، فبدا أن هذه المهمة لا بد وأن تقع على مونتاغ والأشخاص الذين كان يعمل معهم حتى قبل ساعات قليلة قصيرة. كان لا بدّ من البدء في مكان ما من جديد بالإنقاذ والمحافظة، وكان لا بدّ من قيام شخص ما بالإنقاذ والمحافظة بطريقة أو أخرى، بالكتب، بالتسجيلات، في رؤوس الناس، بأي طريقة ما دامت آمنة وخالية من العث وحشرة السكر والصدأ والعفن اليابس والرجال حاملي أعواد الثقاب. كان العالم مليئاً بالحرائق من جميع الأنواع والأحجام. وسيتعين الآن على نقابة ناسجي الأسبتس[1] أن تعيد فتح مشاغلها عاجلاً جداً.

شعر بكعب قدمه يرتطم بالأرض، لامس حصىً وصخوراً ورملاً خشناً. لقد حمله النهر نحو الشاطئ.

أمعن نظره في المخلوق الأسود الكبير الذي لا يملك عينين أو نوراً ولا شكلاً، له حجم واحد فقط يمتد ألف ميل لا يريد أن يتوقف بين تلاله المعشوشبة وغاباته اللابثة في انتظاره.

تردّد مونتاغ في الخروج من مجرى الماء الموحي بالطمأنينة. توقّع أن يجد الكلب هناك. ومن المحتمل أن ينشقّ ستار الأشجار فجأةً تحت ريح عاصفة من الطائرات المروحية.

لكن لم تكن فوقه في الجو إلا ريح خريفية عادية عابرة من هناك

---

١ الأسبتس Asbestus: معدن مضاد للنار يُعرف أيضاً باسم الحرير الصخري أو الأميـنت. يُصنَّف كمادة ضارة جداً بصحة الإنسان.

كنهر آخر. لماذا لم يكن الكلب يعدو؟ لماذا تحولت عملية البحث إلى الداخل؟ أصاخ مونتاغ السمع. لا شيء. لا شيء.

فكّر: ميللي. كل هذا الريف هنا؟ استمعي إليه! لا شيء ولا شيء. كل هذا الصمت يا ميللي، ترى كيف كنت ستتقبلينه؟ هل كنت ستصرخين: اخرس، اخرس! آه ميللي، يا ميللي. وشعر بالحزن.

لم تكن ميللي هنا و لم يكن الكلب هنا، لكن الرائحة الجافة للقش التي حملتها الريح من حقل بعيد وضعت مونتاغ على اليابسة. تذكّر مزرعة زارها عندما كان صغيراً جداً، وكانت من المرات النادرة التي اكتشف فيها أنّ في مكان ما خلف البراقع السبعة للاحقيقة ووراء جدران الردهات وبعد الخندق القصديري المحيط بالمدينة أبقاراً تمضغ أعشاباً وخنازيرَ قابعةً في برك دافئة وقت الظهيرة وكلاباً تنبح خلف خراف بيضاء على تل.

والآن جعلته الرائحة الجافة للقش وحركة المياه يفكر في النوم على قشّ طازج في زريبة منعزلة بعيدة عن الطرق السريعة الصاخبة تقع خلف منزل مزرعة هادئة وتحت طاحونة هواء قديمة يشبه أزيزها صوت السنين العابرة فوقنا. تمدّد في الشرفة العالية للزريبة طول الليل مصغياً للحيوانات والحشرات والأشجار البعيدة وللحركات والاهتزازات الصغيرة.

فكّر أنه سيسمع خلال الليل من تحت الشرفة صوتاً ربما يشبه حركة أقدام. سيتوتر ويستوي في جلسته. سيبتعد الصوت وسيستدير هو وينظر من نافذة الشرفة في ساعة متأخرة جداً من الليل وسيرى الأنوار

تنطفئ في منزل المزرعة نفسه إلى أن تجلس امرأة شابة وجميلة جداً عند نافذة غير مضاءة تضفر شعرها. ستكون رؤيتها صعبة، لكن وجهها سيكون شبيهاً بوجه الفتاة التي عرفها قبل زمن طويل في ما أصبح ماضيه الآن، قبل زمن طويل جداً، الفتاة التي عرفت أحوال الطقس ولم تحرق أبداً من قبل اليراعات النارية، الفتاة التي كانت تعرف معنى فرك زهرة الهندباء البرية على ذقنك، بعد ذلك ستغادر النافذة الدافئة وتظهر ثانيةً في الطابق الأعلى داخل غرفتها المبيضّة بنور القمر، ثم سيتمدّد في الشرفة برفقة صوت الموت وزئير الطائرات النفاثة التي تحزّ السماء إلى قطعتين سوادوين وراء الأفق. سيتمدد في الشرفة مختبئاً وآمناً يراقب تلك النجوم الغريبة الجديدة فوق حافة الأرض وهي تهرب من لون الفجر الناعم.

وبحلول الصباح لن يكون قد احتاج إلى أي نوم لأن جميع الروائح والمناظر الدافئة لليلة ريفية كاملة ستكون قد أراحته ونوّمته وعيناه مفتوحتان. وعندما فكر في اختبار فمه وجده مفتراً عن نصف ابتسامة.

وفي أسفل درج شرفة القش سيكون في انتظاره ذلك الشيء العصي على التصديق. سينزل الدرج بحذر في النور الوردي للصباح الباكر وهو في كامل وعي العالم بأنه سيكون خائفاً، وسيقف فوق المعجزة الصغيرة وينحني ليلمسها في نهاية المطاف.

سيجد في أسفل الدرج كوباً من الحليب الطازج البارد وتفاحات وإجاصات قليلة.

كان هذا كل ما يريده الآن، إشارة ما إلى أن العالم الكبير سيقبله

ويعطيه الوقت المديد الذي سيحتاج إليه للتفكير في جميع الأمور التي ينبغي التفكير فيها.

كوب من الحليب، تفاحة، إجاصة.

سار خارجاً من النهر.

هجمت اليابسة عليه، موجة مدّيّة. داهمه الظلام ومنظر الريف ومليون رائحة حملتها ريح برّدت جسمه كالجليد. انكفأ تحت الحَنْيَة المكسورة للظلام والصوت والرائحة وأذناه تطنّان. التفّ حول نفسه والنجوم تنصب على ناظريه كنيازك لاهبة. أراد أن يغوص في النهر من جديد وأن يتركه يحمله ببطء وأمان إلى مكان في مجراه. كانت هذه الأرض الداكنة الصاعدة شبيهة بذلك اليوم في طفولته عندما كان يسبح فضربته أكبر موجة في تاريخ الذاكرة جاءت من لا مكان ومرّغته في الملح والطين والظلمة الخضراء والماء يحرق فمه وأنفه ويقلب معدته. كان يصرخ. ماء أكثر مما ينبغي.

أرض أوسع مما ينبغي.

وصلته همسة من الحائط الأسود الماثل أمامه. هناك شكل، في الشكل عينان. الليل ينظر إليه. الغابة تراه.

الكلب!

بعد كل الجري والاستعجال والصبر على المعاناة والإشراف على الغرق وقطع هذه المسافة وبذل مجهود شاق والظن أنك آمن وتنفسك الصعداء، تخرج إلى اليابسة لا لشيء إلا لتجمد...

الكلب!

أطلق مونتاغ صرخة معذبة أخيرة كما لو كان ذلك أكثر مما يحتمله أي رجل.

اختفى الشيء كومضة انفجار. اختفت العينان. تطايرت أكوام ورق الشجر في وابل جاف.

كان مونتاغ وحيداً في البرية.

غزال. شمّ العطر القوي الشبيه بالمسك الممتزج بالدم ونَفَسِ الحيوان المصحوب برائحة لثّته، عطر عابق بروائح حبّ الهال والطحالب وعشب الرَجيد في هذه الليلة الهائلة التي داهمته الأشجار فيها، انسحبت، جرت، انسحبت على وقع نبض القلب الجاثم خلف عينيه.

كان لا بدّ من وجود مليار ورقة شجر على الأرض. خاض فيها؛ نهر جاف له رائحة أكباش قرنفل ساخنة وغبار دافئ. والروائح الأخرى! كانت هناك رائحة شبيهة بحبات بطاطس مقطوعة من الأرض كلها، فجة وباردة وبيضاء لاغتسالها بضوء القمر معظم الليل. كانت هناك رائحة تذكّر بمخللات في زجاجة ورائحة شبيهة بعبير البقدونس على مائدة المنزل. كانت هناك أيضاً رائحة باهتة صفراء تشبه رائحة الخردل في مرطبان، كانت هناك رائحة كأريج أزهار القرنفل من الفناء المجاور. أنزل يده وشعر بعشبة ترتفع كطفل يلامسه. انتقلت رائحة عرق السوس إلى أصابعه.

توقف وهو يتنفس، وكلما استنشق عبير الأرض إلى داخله كلما استوعب ضمنه جميع تفاصيلها. لم يكن خاوياً. كان هناك ما يكفي ليملأه. سيكون هناك دائماً أكثر مما يكفي.

سار متعثراً عبر المد الضحل لأوراق الشجر.

وفي وسط اللامألوف كان شيء مألوف.

ارتطمت قدمه بشيء له رنّة باهتة.

حرّك يده على الأرض، باردة في هذا الاتجاه، باردة في ذلك الاتجاه.

السكة الحديدية.

السكة الخارجة من المدينة والتي أصابها الصدأ في امتدادها على الأرض عبر غابات وأحراج بعد أن أصبحت الآن مهجورة قرب النهر.

هنا كان الطريق إلى المكان الذي سيذهب إليه حيثما وجد. هنا كان الشيء المألوف الوحيد، هنا كانت التعويذة السحرية التي قد يحتاج إليها بعد قليل، إلى ملامستها والإحساس بها تحت قدميه فيما يتحرك عبر شجيرات العليق وبحيرات الشم والشعور واللمس وسط الوشوشات وأوراق الشجر المتطايرة.

سار على السكة الحديدية.

دُهش لإدراكه كم أصبح واثقاً فجأةً من حقيقة واحدة لم يستطع إثباتها.

لقد سارت كلاريس هنا مرة قبل زمن طويل، هنا حيث كان يسير الآن.

ما هي إلا نصف ساعة حتى شاهد النار أمامه فيما كان يتقدم على السكة بحذر وهو يشعر بالبرد ويتملكه وعي كامل بكل جسمه

ووجهه وفمه وعينيه المحشوتين بالعتمة وأذنيه المسدودتين بالصوت وساقيه المخدوشتين بالأشواك والقرّاص.

اختفت النار ثم التمعت من جديد كأنها عين غامزة، توقف خوفاً من أن يطفئ النار بنفَسٍ واحد. لكن النار كانت هناك فاقترب منها من مسافة بعيدة بحذر. احتاج إلى أكثر من خمس عشرة دقيقة ليصل إلى موضع قريب جداً منها بالفعل. بعد ذلك وقف مستتراً ينظر إليها. تلك الحركة الصغيرة، اللون الأبيض - الأحمر، إنها نار غريبة لأنها عنت شيئاً آخر له.

لم تكن تحرق، كانت تدفئ.

رأى أيدياً كثيرة ممدودة التماساً لدفئها، أيدياً بدون أذرع مختبئة في الظلام، ورأى فوق الأيدي وجوهاً مسمّرة لا تتحرك ولا تدفع ولا ترتجّ إلا بوهج النار. لم يكن يعلم أن النار يمكن أن تتخذ مثل هذا الشكل. لم يفكر في حياته قط أن في وسع النار أن تعطي مثلما تأخذ، وحتى رائحتها كانت مختلفة.

لم يعرف كم من الوقت وقف هناك، لكن إحساساً سخيفاً ولذيذاً في آن غمره بأن اكتشف في نفسه حيواناً خارجاً من الغابة تجذبه النار إليها. كان شيئاً من أجمة وعين سائلة وفرو وخطم وحافر، كان شيئاً من مادة قرنية ودم تفوح منها رائحة الخريف إذا صفّيت دمها على الأرض.

وقف فترة طويلة جداً منصتاً لطقطقة ألسنة اللهب.

كان هناك صمت متجمّع حول النار من كل جانب، وكان

الصمت في وجوه الرجال، وكان هناك وقت، وقت كافٍ للجلوس قرب السكة الصدئة تحت الأشجار والتفرج على العالم وتقليبه في عينيه كما لو كان مثبتاً في وسط المشعلة، كما لو كان قطعة من الفولاذ يشكّلها جميع هؤلاء الرجال. لم تكن النار وحدها مختلفة. الصمت كان مختلفاً. تحرك مونتاغ نحو الصمت الخاصّ الذي كان ممنيّاً بالعالم كله.

ثم بدأت الأصوات وكانت تتكلم، ولم يستطع أن يسمع شيئاً مما قالته الأصوات، لكن الجلبة ارتفعت وهبطت بهدوء. كانت الأصوات تقلب العالم وتحدق فيه، كانت الأصوات تعرف الأرض والأشجار والمدينة التي مدّت السكة الحديدية بمحاذاة النهر. كانت الأصوات تتكلم عن كل شيء، لم يكن ثمة ما تعجز عن التحدث عنه. وقد عرف مونتاغ ذلك من إيقاعها وحركتها واستمرار إيقاظها للفضول والتعجب.

ثم نظر أحد الرجال إلى أعلى وشاهده للمرة الأولى أو ربما للمرة السابعة، ونادى صوتٌ مونتاغ قائلاً:

– "لا بأس، في استطاعتك الخروج الآن!".

خطا مونتاغ إلى الخلف تحت الظلال.

قال الصوت: "لا بأس عليك، أنت مرحب بك هنا".

مشى مونتاغ ببطء نحو النار والرجال المسنّين الخمسة الجالسين هناك مرتدين سراويل قطنية زرقاء داكنة وسترات وقمصاناً زرقاء داكنة. لم يعرف ماذا يقول لهم.

قال الرجل الذي بدا كقائد المجموعة الصغيرة: "اجلس، أتريد قليلاً من القهوة؟".

راقب المزيج الأسود الحار يسكب في كوب قصديري قابل للطي وضع في يده مباشرة، رشف من الكوب بحذر وشعر بهم يراقبونه بفضول، لسعت شفتاه، لكن ذلك كان جيداً. كانت الوجوه حوله ملتحية، لكن اللحى كانت نظيفة ومشذبة، كما كانت أيدي الرجال نظيفة. كانوا قد وقفوا على أقدامهم كما لو للترحيب بضيف ثم جلسوا الآن من جديد ومونتاغ يرشف القهوة.

قال: "شكراً، شكراً جزيلاً".

- "على الرحب والسعة يا مونتاغ، اسمي غرينجر".

قدم إليه زجاجة صغيرة فيها سائل بلا لون. "اشرب هذا أيضاً، سيغير المؤشر الكيميائي لتعرقك، وبعد نصف ساعة من الآن ستكون رائحتك مثل رائحة شخصين آخرين. وبما أن الكلب يطاردك فالأفضل لك هو أن تفرغ الزجاجة في جرعة واحدة".

تجرع مونتاغ السائل المرّ.

قال غرينجر: "ستفوح منك رائحة كريهة كرائحة هرّ بري، لكن لا بأس في ذلك".

قال مونتاغ: "أنت تعرف اسمي".

أشار غرينجر إلى جهاز تلفزيون محمول يعمل بالبطارية موضوع قرب النار وقال: "لقد راقبنا المطاردة. فكرنا في أن المطاف سينتهي بك جنوباً بمحاذاة النهر، وعندما سمعناك تهيم على وجهك في الغابة

مثل إيلٍ ثمل لم نختبئ كما نفعل عادة. اعتقدنا أنك كنت في النهر عندما أُعيد توجيه كاميرات المروحيات نحو المدينة. ثمة أمر غريب يجري هناك. المطاردة ما زالت مستمرة، لكن في الاتجاه المعاكس".

- "في الاتجاه المعاكس؟".

- "دعنا نلقي نظرة".

أضاء غرينجر شاشة التلفزيون المحمول. كانت الصورة كابوساً، كابوساً مكثفاً يسهل تناقله من يد إلى يد في الغابة، ملوؤه لون دوار وفرار. صاح صوت:

"المطاردة مستمرة إلى الشمال من المدينة! مروحيات الشرطة تتقاطر على الجادة ٨٧ وحديقة إلم غروف!".

أومأ غرينجر وقال: "إنهم يتظاهرون. لقد ضللتهم عند النهر ولا يستطيعون الاعتراف بذلك. يعلمون أنهم لا يستطيعون خداع جمهورهم إلا لفترة معينة. ولا بد من إيجاد نهاية مؤثرة لهذا الاستعراض، نهاية سريعة! ولو بدأوا تفتيش النهر اللعين بكامله لربما استغرقهم ذلك طول الليل. لهذا السبب يبحثون عن كبش فداء للوصول إلى نهاية مدويّة. سيلقون القبض على مونتاغ في غضون الدقائق الخمس القادمة!".

- "لكنْ كيف".

- "راقبْ".

وجّهت الكاميرا الجاثمة في بطن المروحية عدستها الآن نحو شارع خالٍ.

همس غرينجر: "أترى ذلك؟ ستكون أنت ستكون ضحيتنا هناك في آخر الشارع. هل ترى كيف تقترب الكاميرا الخاصة بنا؟ إنها تهيّئ المنظر. تشويق. لقطة طويلة. ثمة رجل مسكين الآن يتمشى في الخارج. أمر نادر. شخص غريب الأطوار. ولا تظن أن الشرطة لا تعرف عادات الأشخاص ذوي الطباع الغريبة مثل هذا الرجل، رجال يسيرون في الصباح من أجل متعة السير أو لإصابتهم بالأرق. ومهما يكن من أمر فإن الشرطة تترصده منذ أشهر، منذ سنوات، لا يعلم أحد متى تصبح معلومات من هذا النوع مفيدة، ومن الواضح أن هذه المعلومات أثبتت أنها مفيدة جداً اليوم. إنها تنقذ ماء الوجه. آه يا إلهي، انظر هناك!".

انحنى الرجال المحيطون بالنار إلى الأمام.

على الشاشة انعطف رجلٌ حول زاوية. فجأةً اندفع الكلب الآلي مسرعاً إلى مجال الرؤية، وسدّدت مصابيح المروحيات أكثر من عشرة أعمدة ساطعة من الضوء إلى أسفل لتشكل قفصاً حول الرجل.

صاح صوت: "هو ذاك مونتاغ! انتهى البحث!".

وقف الرجل البريء مذهولاً وفي يده سيجارة مشتعلة. حدّق في الكلب بدون أن يعرف ما يكون. والأرجح أنه لم يعرف ذلك أبداً. نظر فوقه إلى السماء الصاخبة بصفارات الإنذار المولولة. انقضّت الكاميرا نازلةً بسرعة وقفز الكلب في الهواء بإيقاع وحسّي توقيت بديعين إلى درجة لا تصدق.

انطلقت إبرة الكلب إلى الخارج وبقيت معلّقة لبرهة تحت نظراتهم

وكأنها تتيح للجمهور العريض وقتاً للاستمتاع بكل شيء: النظرة الفجّة على وجه الضحية، الشارع الخالي والحيوان المعدني الهاجم على هدفه كرصاصة.

صاح صوت من السماء: "مونتاغ، لا تتحرك!".

انقضّت الكاميرا على الضحية في ذات اللحظة التي انقضّ فيها الكلب عليه. وصل الاثنان إليه في اللحظة ذاتها. أمسك كلّ من الكلب والكاميرا الضحية في قبضة عنكبوتية محكمة. صرخ. صرخ. صرخ!

تعتيم.

صمت.

ظلمة.

زعق مونتاغ وسط الصمت وأدار وجهه.

صمت.

وبعد فترة أمضاها الرجال الجالسون حول النار بوجوه خالية من التعابير أعلن مذيع على الشاشة الداكنة: "انتهت عملية البحث. مونتاغ مات. لقد تمّ الانتقام لجريمة ارتُكبت ضد المجتمع".

ظلام.

"والآن نأخذكم إلى القاعة السماوية لفندق لوكس لفترة نصف ساعة فقط قبل الفجر من أجل برنامج...".

أطفأ غرينجر جهاز التلفزيون.

- "لم يظهروا وجه الرجل في لقطة واضحة، هل لاحظت ذلك؟ حتى أقرب أصدقائك ما كان في وسعهم أن يعرفوا ما إذا كنت أنت

ذلك الرجل. لقد شوّشوا الصورة إلى درجة تكفي فقط لترك المخيلة تقوم بدورها". ثم همس: "يا للجحيم".

لم يقل مونتاغ شيئاً، لكنه جلس الآن متطلعاً إلى الوراء وهو يرتجف وعيناه مركّزتان على الشاشة السوداء.

لمس غرينجر ذراع مونتاغ. قال: "أهلاً بعودتك من عالم الأصوات". أومأ مونتاغ برأسه. أضاف غرينجر يقول: "قد يجدر بك الآن بأية حال أن تتعرف إلينا جميعاً. هذا فريد كليمنت، الشاغل السابق لكرسي أستاذية توماس هاردي في جامعة كامبريدج في السنوات التي سبقت تحويلها إلى كلية للهندسة الذرية.

وهذا الرجل الآخر هو الدكتور سيمونز من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس المتخصص في أعمال الكاتب والفيلسوف الإسباني خوسي أورتيجا إي غاسيت. وهنا البروفسور وست الذي قدم مساهمات معتبرة لعلم الأخلاق في جامعة كولومبيا قبل سنوات عديدة، هذا العلم الذي أصبح الآن مادة دراسية قديمة. أما القسيس بادوفر الجالس هنا فقد ألقى عدداً من المحاضرات قبل ثلاثين سنة وخسر رعيته بين يوم أحد وآخر بسبب آرائه. وهو يتسكع معنا منذ بعض الوقت الآن. بالنسبة إلى شخصي، لقد ألفت كتاباً عنوانه **الأصابع في القفاز: العلاقة السليمة بين الفرد والمجتمع**، وهأنذا موجود هنا! أهلاً بك يا مونتاغ!".

قال مونتاغ بعد لأي وبطء: "مكاني ليس بينكم. لقد كنت غبياً طول حياتي".

- "نحن معتادون على ذلك. لقد ارتكبنا جميعنا النوع الصحيح

من الأخطاء وإلا لما كنا هنا، عندما كنا أفراداً منفصلين لم نكن نمتلك إلا الغضب. لقد ضربت إطفائياً عندما جاء لإحراق مكتبتي قبل سنوات، وأنا فارّ منذ ذلك الوقت. هل تريد أن تنضم إلينا يا مونتاغ؟".

- "نعم".

- "ماذا لديك لتقدمه إلينا؟".

- "لا شيء، ظننت أنّ لدي جزءاً من كتاب **العلوم الكنسية** وقليلاً من **سفر الرؤيا**. لكن حتى هذا ليس لدي الآن".

- "كتاب **العلوم الكنسية** سيفي بالغرض. أين كان؟".

- "هنا". لمس مونتاغ رأسه.

- "آه". ابتسم غرينجر وأومأ برأسه.

قال مونتاغ: "ما الخطب؟ أليس ذلك جيداً؟".

التفت غرينجر إلى القسيس وقال: "أفضل من جيد. ممتاز! هل لدينا كتاب **العلوم الكنسية**؟".

- "نسخة واحدة. لدى رجل اسمه هاريس في يونغزتاون".

أمسك غرينجر كتف مونتاغ بإحكام وقال: "مونتاغ، امشِ بحذر، انتبه لصحتك. إذا حدث أي شيء لهاريس تصبح أنت كتاب **العلوم الكنسية**. أترى كم أصبحت مهماً في آخر دقيقة!".

- "لكني نسيت".

- "كلا، لا شيء يضيع أبداً. لدينا وسائلنا لنعيد إليك ذاكرتك".

- "لكنني حاولت أن أتذكر!".

- "لا تحاول. ستعود ذاكرتك إليك عندما نحتاج إليها. نمتلك

جميعاً ذاكرة فوتوغرافية لكننا نمضي أعمارنا في تعلم كيف نحجب الأمور الموجودة فيها حقاً. لقد عمل سيمونز هنا عشرين سنة على الموضوع ولقد أتقنّا الآن الوسيلة التي تمكّننا من تذكر كل شيء قُرئ في الماضي. هل تودّ يا مونتاغ أن تقرأ يوماً كتاب **الجمهورية** لأفلاطون؟".

- "بالطبع".

- "أنا **جمهورية أفلاطون**، هل تريد قراءة **مرقص أوريليوس**؟ السيد سيمونز هو مرقص".

قال السيد سيمونز: "كيف حالك؟".

- "هاللو"، قال مونتاغ.

- "أريدك أن تقابل جوناثان سويفت مؤلف الكتاب السياسي الشرير **رحلات غوليفر**! وهذا الرجل الآخر هو تشارلز داروين، وهذا الشلخص هو شوبنهاور وذاك هو آينشتاين، وهذا الرجل عند مرفقي هو السيد ألبرت شفايتزر الفيلسوف اللطيف جداً بالفعل. نحن موجودون هنا جميعاً يا مونتاغ. أريستوفانس والمهاتما غاندي وغوتاما بوذا وكونفوشيوس وتوماس لاف بيكوك وتوماس جفرسون والسيد لنكولن، إن تلطّفت، نحن أيضاً متّى ومرقص ولوقا ويوحنا".

ضحك الجميع بهدوء.

قال مونتاغ: "ذلك غير ممكن".

أجاب غرينجر وهو يبتسم: "ذلك ممكن. نحن أيضاً حارقو كتب قرأنا الكتب وأحرقناها خوفاً من أن يعثر عليها. لم يكن التصوير على الميكروفيلم مجدياً، وقد كنّا على سفر طول الوقت و لم نشأ أن ندفن

الفيلم لنعود إليه في ما بعد، احتمال الانكشاف موجود دائماً. الأفضل الاحتفاظ بالكتب في الرؤوس الهرمة حيث لا يمكن لأحد أن يراها أو يشتبه بوجودها. جميعنا قطع وأجزاء من التاريخ والأدب والقانون الدولي: بايرون، توم بين، ماكيافللي أو المسيح، كلهم هنا. الساعة متأخرة والحرب بدأت ونحن موجودون في الخارج هنا والمدينة موجودة هناك ملتفة بمعطفها ذي الألف لون. ما رأيك يا مونتاغ؟".

- "أظن أنني كنت أعمى عندما حاولت التصرف بطريقتي مثل زرع الكتب في منازل الإطفائيين وإرسال الإنذارات".

- "لقد فعلت ما كان عليك فعله. ولو نُفِّذ هذا العمل على الصعيد الوطني يحتمل أن يكون قد حقق نجاحاً باهراً، لكن طريقتنا أبسط ونحن نفكر بشكل أفضل. كل ما نريد تحقيقه هو المحافظة على المعرفة التي نظن أننا سنحتاج إليها كاملة وسليمة. إننا لم نخرج بعد لكي نُحرِّض أو لنغضب أحداً لأن المعرفة ستموت، وربما إلى الأبد، إذا دُمِّرنا. نحن مواطنون نموذجيون بطريقتنا الخاصة، نسير على السكك القديمة ونهجع في التلال خلال الليل ويدعنا أهل المدينة وشأننا. إننا نوقف ونفتّش بين حين وآخر، لكن لا يوجد على أشخاصنا ما يجرمنا. التنظيم مرن وشديد القابلية للتكيف ومتفرق. ولقد أُجريت لبعض منا جراحات تجميلية على الوجوه وبصمات الأصابع. ولدينا الآن مهمة رهيبة، ونحن ننتظر أن تبدأ الحرب بأسرع ما يمكن وأن تنتهي. هذا ليس ممتعاً، لكننا لا نسيطر على الوضع أيضاً، كما أننا نشكّل الأقلية الاستثنائية الصارخة في البرية. وعندما تنتهي الحرب ربما نستطيع أن نكون مفيدين للعالم".

- "هل تظن فعلاً أنهم سوف يصغون عند ذلك؟".

- "إن لم يصغوا لن يسعنا إلا أن ننتظر. سنوصل الكتب إلى أطفالنا عبر الكلمة المنطوقة وسندع أطفالنا ينتظرون بدورهم أناساً آخرين. بهذه الطريقة سيضيع الكثير طبعاً، لكنك لا تستطيع إرغام الناس على الإصغاء. لا بد لهم من أن يتوصلوا هم أنفسهم وفي الوقت الملائم لهم إلى التساؤل عما حدث ولماذا انفجر العالم تحتهم. لا يمكن للأمر أن يدوم".

- "كم عددكم؟".

- "آلاف على الطرق، على السكك الحديدية المهجورة، مشرّدون من الخارج ومكتبات من الداخل في هذه الليلة. في البدء لم يكن ذلك مخططاً؛ في البدء كان لدى كل رجل كتاب أراد تذكّره، وهذا ما فعل. فيما بعد، وعلى مدى عشرين عاماً أو نحو ذلك، التقينا خلال أسفارنا ونظّمنا الشبكة السائبة ووضعنا خطتنا. كان أهم شيء اضطررنا إلى إقناع أنفسنا به أننا لسنا أشخاصاً مهمين ولا يجوز لنا أن نكون متحذلقين ولا أن نشعر بأننا متفوقون على أي إنسان آخر في العالم. إننا لسنا أكثر من أغلفة للكتب ولا أهمية لنا سوى ذلك. يعيش بعضنا في مدن صغيرة. الفصل الأول من كتاب **فالدن** لثورو موجود في غرين ريفر، والفصل الثاني موجود في ويللو فارم في ولاية ماين، ما العجب؟ وهناك بلدة صغيرة في ولاية ماريلند يسكنها سبعة وعشرون شخصاً فقط، لن تصيب قنبلة يوماً هذه البلدة التي تضمّ المجموعة الكاملة لمقالات رجل اسمه برتراند راسل. تكاد أن تختار هذه البلدة وأن تقلّب الصفحات،

صفحات كثيرة جداً عن شخص واحد. وعندما تنتهي الحرب يوماً ما أو في سنة ما ستمكن إعادة تدوين هذه الكتب، وسيستدعى الناس واحداً واحداً لتسميع ما يعرفونه وسنطبع ذلك إلى أن يحلّ عصر مظلم جديد قد نضطر فيه إلى تكرار هذه العملية اللعينة من جديد. لكن هذا هو الأمر المدهش المتعلق بالإنسان: إنه لا يحبط أو ينفر أبداً إلى درجة التخلي عن القيام بالعمل من جديد لأنه يعرف جيداً أنه مهم ويستحق أن ينجز".

سأل مونتاغ: "ماذا نفعل هذه الليلة؟".

أجابه غرينجر: "انتظر، وتقدّم قليلاً مع مجرى النهر من باب الاحتياط".

بدأ يلقي غباراً وتراباً على النار.

ساعده الرجال الآخرون، وساعده مونتاغ. هناك في البرية حرّك جميع الرجال أيديهم لإطفاء النار معاً.

وقفوا قرب النهر تحت ضوء النجوم.

رأى مونتاغ الميناء اللامع لساعته المقاومة للماء. الخامسة وخمس دقائق في الصباح. سنة أخرى انقضت متكتكةً في ساعة واحدة والفجر ينتظر خلف الضفة البعيدة للنهر.

قال مونتاغ: "لماذا تثق فيّ؟".

تحرّك رجل في الظلام.

- "منظرك كافٍ. أنت لم ترَ نفسك أخيراً في مرآة، علاوةً على ذلك لم تهتم المدينة بنا أبداً إلى درجة كافية لتتعب نفسها بشنّ مطاردة معقدة للعثور علينا. يظنون أن معتوهين قلائل تملأ الأشعار رؤوسهم لا

يمكن أن يمسّوهم. هم يعرفون ذلك ونحن نعرف ذلك والجميع يعرف ذلك. وما دام الجمهور العريض من السكان لا يطوف في الأرجاء مردّداً مقتبسات من الوثيقة العظمى للحقوق[1] والدستور يظلّ الوضع مقبولاً، كان الإطفائيون كافين لضبط الأمور بين حين وآخر. كلا، المدن لا تضايقنا، وأنت تبدو كخارج من جهنم".

ساروا جنوباً على ضفة النهر. حاول مونتاغ أن يرى وجوه الرجال، الوجوه الهرمة المعرقة المتعبة التي تذكرها من ضوء النار. كان يبحث عن إشراقة، عن عزيمة، عن اختصار على الغد الذي بالكاد بدا وشيكاً. ربما توقّع أن تشتعل وجوههم وأن تلمع بالمعرفة التي يحملونها، أن تسطع كما تسطع الفوانيس بالضوء الجاثم داخلها. لكن كل الضوء كان آتياً من مشعلة المخيم، ولم يبدُ هؤلاء الرجال مختلفين عن أي رجال آخرين ركضوا في سباق طويل وبحثوا بحثاً طويلاً وشاهدوا أشياء جيدة تدمّر ثم اجتمعوا الآن في ساعة متأخرة جداً لينتظروا نهاية الحفلة وإطفاء المصابيح. لم يكونوا متأكدين على الإطلاق من أن الأمور التي يحملونها في رؤوسهم قد تجعل كل فجر مستقبلي يتوهج بنور نقي. لم يكونوا متأكدين من أي شيء باستثناء إدراكهم أن الكتب محفوظة خلف عيونهم الهادئة، أن الكتب تنتظر بصفحاتها غير المقصوصة العملاءَ الذين قد يأتون في سنوات لاحقة، بعضهم بأصابع نظيفة وبعضهم بأصابع قذرة.

---

١ الوثيقة العظمى للحقوق Magna Charia: شريعة فرضها ملك الإنكليز جون على النبلاء في عام ١٢١٥ لاحترام حقوق العامة.

جال مونتاغ ببصره من وجه إلى آخر فيما كانوا يسيرون. قال أحدهم: "لا تحكم على كتاب من غلافه. وضحك الجميع بهدوء وهم يمشون مع مجرى النهر".

سمع زعيق واختفت الطائرات النفاثة الآتية من المدينة عالياً قبل أن ينظر الرجال إلى أعلى.

حدّق مونتاغ خلفه في المدينة البعيدة عند النهر والتي لم يبدُ منها الآن إلا وهج باهت.

- "زوجتي عادت إلى هناك".

قال غرينجر: "يؤسفني سماع ذلك. المدن لن تكون في وضع جيد خلال الأيام القليلة القادمة".

قال مونتاغ: "الأمر غريب. أنا لا أفتقدها، الأمر غريب. ليس لدي كثير من الإحساس بأي شيء. لقد أدركت قبل لحظة أنني لن أشعر بالحزن حتى لو ماتت كما أظن. هذا ليس صحيحاً. لا بد من وجود خطب فيّ".

- "اسمع"، قال غرينجر وهو يمسك ذراعه ويسير معه مبعداً أغصان الأجمة ليدعه يمر. أضاف: "عندما كنت صبياً مات جدي، وكان نحّاتاً، كان أيضاً رجلاً لطيفاً جداً مليئاً بالكثير من الحب الذي وهبه للعالم. وقد ساعد على تنظيف حي الصفيح في بلدتنا وصنع ألعاباً لنا وأنجز مليون شيء في حياته، وقد كان دائماً منشغلاً بيديه، وعندما مات أدركت فجأةً أنني لم أبكِ لرحيله على الإطلاق بل حزناً على كل الأمور التي فعلها. بكيت لأنه لن يفعل تلك الأمور بعد ذلك

أبداً. لن يحفر بعد ذلك قطعة أخرى من الخشب أو يساعدنا في تربية الحمامات واليمامات في الفناء الخلفي ولن يعزف الكمان كما كان يفعل أو يروي النكات بطريقته. كان جزءاً منا وعندما مات توقفت جميع الأعمال توقفاً تاماً و لم يعد هناك من يقوم بها مثلما كان يفعل هو. كان إنساناً فذّاً، كان رجلاً مهماً. لم أتقبّل أبداً موته. وكثيراً ما أقول في فكري: يا لهذه المنحوتات الرائعة التي لم تولد لأنه مات! كم من النكات فاتت العلم وكم من الحمامات الزاجلة فقدت لمسة يديه. لقد صاغ شكل العالم. لقد فعل أموراً من أجل العالم. لقد خسر العالم مقدار عشرة ملايين فعلة خيرة في ليلة وفاته".

مشى مونتاغ صامتاً، همس: "ميللي، ميللي، ميللي".

– "ماذا؟".

– "زوجتي، زوجتي. ميللي المسكينة، ميللي المسكينة، لا أستطيع أن أتذكر أي شيء. أفكر في يديها لكنني لا أراهما تفعلان أي شيء على الإطلاق. تظلان متدليتين هكذا إلى جانبيها أو جاثمتين على حضنها أو ممسكتين بسيجارة، هذا كل شيء".

استدار مونتاغ ونظر إلى الخلف.

ماذا أعطيت المدينة يا مونتاغ؟

أعطيتها رماداً.

ماذا تبادل الآخرون عطاءه في ما بينهم؟

اللاشيئية.

وقف غرينجر ينظر إلى مونتاغ بإمعان وقال: "على كل إنسان أن

يترك شيئاً خلفه عندما يموت على حد قول جدي. عليه أن يترك خلفه طفلاً أو كتاباً أو لوحة أو منزلاً أو جداراً مبنياً أو زوج أحذية من صنعه، أو حديقة مزروعة شيئاً ما. لامسته يدك بطريقة معينة بحيث يكون لروحك مكان تذهب إليه عندما تموت. وعندما ينظر الناس إلى الشجرة أو الزهرة التي زرعتها تكون أنت موجوداً هناك. كان يقول: لا يهمّ ما تفعل ما دمت تغيّر شيئاً ما عمّا كان قبل أن تلمسه وتحوله إلى شيء يشبهك بعد أن ترفع يديك عنه. والفرق بين الرجل الذي يجزّ العشب فقط والبستاني الحقيقي هو في الملمس كما كان يقول. ولعلّ وجود جازّ العشب لا يكون ضرورياً على الإطلاق، لكن البستاني سيكون هناك مدى العمر".

حرّك غرينجر يده وقال: "لقد أراني جدي قبل حوالى خمسين سنة بعض الأفلام عن صواريخ v-2. هل رأيت مرة الغيمة الشبيهة بالفطر التي تخلّفها القنبلة الذرية على ارتفاع مائتي ميل؟ إنها وخزة إبرة، إنها لا شيء، بوجود كل هذا القفر المحيط بها من جميع الجوانب".

– "عرض جدي فيلم صواريخ v-2 اثنتي عشرة مرة ثم ساوره الأمل في أن تصبح مدننا أكثر انفتاحاً وأن تسمح بمزيد من الخضار والأرض والبرية لتذكير الناس بأن مساحة صغيرة على الأرض مخصصة لنا وبأننا سنبقى على قيد الحياة في ذلك القفر الذي يستطيع أن يستردّ ما وهبه أصلاً بسهولةِ نفخ نَفَسه علينا أو إرسال البحر إلينا ليبلغَنا أننا لسنا كبيرين جداً. وقال جدي: عندما ننسى كم القفر قريب في الليل سيأتي في يوم ما لينال منا لأننا سنكون قد نسينا مدى ما يمكن

أن يتّسم به من حضور وفظاعة. أتفهم ما أقول؟". التفت غرينجر إلى مونتاغ وقال: "جدي مات قبل كل هذه السنين، لكنك إذا فتحت جمجمتي ستجد، بحقّ الرب، داخل تلافيف دماغي المعالم الكبيرة لبصمة إبهامه. لقد لمسني. وكما قلت من قبل كان نحّاتاً. قال لي: أكره رومانياً اسمه ستاتوس كو[1]. احشُ عينيك بالعجائب. عش وكأنك ستخرّ ميتاً بعد عشر ثوان. شاهد العالم. إنه أروع من أي حلم مصنوع في المعامل أو مشترى منها. لا تطلب ضمانات، لا تطلب أماناً، إذ لم يوجد حيوان من هذا النوع قط، ولو وجد فعلاً سيكون نسيباً للدب الكسلان الكبير الذي يتدلى من شجرة طول النهار كل يوم ورأسه إلى أسفل ويبدّد حياته في النوم. فليذهب إلى الجحيم. وقد قال: هزّ الشجرة وأوقع الدب الكسلان الكبير على قفاه".

صاح مونتاغ: "انظر!".

وبدأت الحرب وانتهت في تلك اللحظة.

بعد ذلك لم يستطع الرجال المحيطون بمونتاغ أن يقولوا ما إذا كانوا قد شاهدوا أي شيء حقاً. ربما لمحوا في السماء حركة عابرة وومضة نور لا أكثر. ربما كانت القنابل هناك، وكذلك النفاثات، على ارتفاع عشرة أميال، خمسة أميال، ميل واحد، لمجرد لحظة بالغة القصر، كحبوب بذار رمتها يد زارعة عملاقة فوق السماوات فتساقطت القنابل بسرعة رهيبة، ومع ذلك ببطء مفاجئ على المدينة الصباحية التي غادروها. كانت عملية القصف بالقنابل قد انتهت

١ SITATUS QVO: الوضع الراهن، باللاتينية.

محققةً أغراضها وغاياتها ما إن شاهدت النفاثات هدفها ونبّهت راميها وهي منطلقة بسرعة خمسة آلاف ميل في الساعة. وانتهت الحرب بسرعة همس نصل منجل. انتهى الأمر في اللحظة التي سحب فيها مقبض إسقاط القنابل. والآن بقيت ثلاث ثوانٍ كاملة، زمن التاريخ كله، قبل أن تصيب القنابل أهدافها. كانت سفن العدو نفسها قد ابتعدت مسافة نصف العالم المرئي كرصاصات قد لا يؤمن بوجودها همجي من أبناء الجزر لأنها غير مرئية مع أن القلب يتمزق بغتةً والجسم يسقط في خلجات منفصلة والدم يدهش لتحرره في الهواء والدماغ يبدّد ذكرياته الثمينة القليلة ليموت وهو مذهول.

لم يكن ذلك مادة تصدّق، كان مجرد إشارة. شاهد مونتاغ اندفاعة القبضة المعدنية الجبّارة فوق المدينة البعيدة وعلم أنّ ما سيقوله لها زئير النفاثات الوشيك بعد إتمام المهمة هو: تحطمي، لا يبقينّ فيك حجرٌ على حجر، اهلكي. موتي.

تعلّق بصر مونتاغ بالقنابل الهاوية من السماء للحظة واحدة ومدّ إليها عالياً عقله ويديه، شاعراً بعجزه. صاح منادياً فابر: "اركض!". صاح منادياً كلاريس: "اركضي!". صاح منادياً ميلدرد: "اخرجي، اخرجي من هناك!". لكنه تذكر أن كلاريس ماتت وأن فابر كان في الخارج، في الوديان السحيقة في مكان ما في البلد داخل حافلة الساعة الخامسة المتوجهة من خراب إلى خراب. وبالرغم من أن الخراب لم يكن قد حلّ بعد فقد كان لا يزال معلقاً في الهواء، كان أكيداً بقدر ما يستطيع إنسان أن يجعله أكيداً. وقبل أن تقطع الحافلة خمسين ياردة

على الطريق السريع ستكون وجهتها قد أصبحت بلا معنى ونقطة انطلاقها تبدلت من مدينة كبرى إلى ساحة خردة.

وميلدرد...

اخرجي، اركضي!

رآها داخل غرفة فندقها في مكانٍ ما في نصف الثانية المتبقية بعد أن أصبحت القنابل على مسافة ياردة، قدم، بوصة من مبناها. رآها متكئة على الجدران الضخمة اللامعة باللون والحركة حيث العائلة تتكلم وتتكلم وتتكلم معها، حيث العائلة تثرثر وتتحادث وتقول اسمها وتبتسم لها دون أن تذكر شيئاً عن القنبلة التي أصبحت الآن على مسافة بوصة، نصف بوصة، ربع بوصة من سقف الفندق. اتكأت على الجدار كما لو كان جوع النظر سيعثر هناك على سرّ قلقها الأرِق. كانت ميلدرد متكئة بقلق وعصبية كأنها ستغوص، ستهوي، ستسقط في ذلك الاتساع الجيّاش باللون لكي تغرق في سعادته المتلألئة.

أصابت القنبلة الأولى هدفها.

- "ميلدرد!".

ربما، من سيعلم يوماً؟ ربما دُمِّرت أولاً محطات البث الكبيرة بأشعة اللون والضوء والكلام والثرثرة التي تنطلق منها.

وفيما كان مونتاغ يسقط على وجهه رأى، أو تحسس، أو تخيل أنه رأى وتحسس الجدران تعتم في وجه ميلدرد وسمعها تصرخ لأنها رأت وجهها منعكساً هناك في الجزء الواحد المتبقي من مليون جزء من الثانية، منعكساً في مرآة بدلاً من كرة بلورية، وكان وجهاً خاوياً إلى

درجة موحشة، ماثلاً وحده في الغرفة لا يلامس شيئاً، يموت جوعاً ويلتهم نفسه، حتى أدركت في آخر الأمر أن هذا الوجه هو وجهها، ونظرت بسرعة إلى أعلى نحو السقف في اللحظة التي انفجر فيها السقف مع مبنى الفندق كله وانهار عليها فحملها مع مليون باوند من الآجر والمعدن والجصّ والخشب لتلقي أناساً آخرين في الحجرات السفلى ويسقط الجميع سريعاً إلى القبو حيث قضى عليهم الانفجار بطريقته الخاصة اللاعقلانية.

أتذكّر. تشبّث مونتاغ بالأرض. أتذكّر. شيكاغو. شيكاغو قبل زمن طويل. ميللي وأنا. ذلك هو المكان الذي التقينا فيه. أتذكر الآن. شيكاغو. قبل زمن طويل.

أفرغت رجّة الانفجار الهواء عبر النهر وعلى امتداده وقلبت الرجال كأحجار دومينو مصفوفة وأخرجت الماء في نوافير صاعدة ونفخت الغبار وجعلت الأشجار فوق رؤوسهم تنوح مع ريح عظيمة عابرة نحو الجنوب. التصق مونتاغ بالأرض وضغط جسمه ليتقلص وأغمض عينيه بإحكام. طرف بعينيه مرة واحدة ورأى المدينة معلّقةً في الهواء بدلاً من القنابل، لقد تبادلت المدينة والقنابل مكانيهما. مثلت المدينة في واحدة من تلك اللحظات المستحيلة مبنية من جديد، لا يمكن التعرف عليها، أطول ممّا أملت أو سعت لأن تصبح يوماً، أطول مما كان الإنسان قد بناها، مشيّدة في آخر الأمر من بقع من الإسمنت المحطّم وشظايا من معادن ممزقة ضمن جدارية معلقة كانهيار ثلجي مقلوب لها مليون لون ومليون شذوذ وباب حيث يجب أن توجد

نافذة، عاليها سافلها، جانبها ظهرها. بعد ذلك انقلبت المدينة على نفسها وسقطت ميتة.

وصل صوت موتها لاحقاً.

كان مونتاغ هناك بالتحديد وعيناه مغمضتان تغطيهما طبقة من الغبار وقد تسرّب إلى داخل فمه المطبق بلاط اسمنتي مبتل من الغبار الناعم، وهو يلهث ويبكي. فكّر الآن من جديد: أتذكر، أتذكر، أتذكر شيئاً آخر. ما هو؟ نعم، نعم، جزء من كتاب **العلوم الكنسية**. جزء من كتاب **العلوم الكنسية** و**سفر الرؤية**. جزء من ذلك الكتاب، جزء منه، بسرعة الآن قبل أن يختفي، قبل أن تزول الصدمة، قبل أن تموت الريح، كتاب **العلوم الكنسية**. هنا. كرر قول ذلك لنفسه بصمت وهو ممدد على الأرض المرتجفة. قال كلماته مرات كثيرة وكانت صحيحة تماماً بدون أن يحاول. ولم يكن هناك معجون أسنان دنهام في أي مكان. لم يكن هناك إلا المبشّر نفسه يقف وحيداً داخل عقله وينظر إليه...

- "ها هنا"، قال صوت.

كان الرجال منبطحين يلتقطون أنفاسهم كسمكات رُميت على العشب. تمسّكوا بالأرض كما يتمسّك الأطفال بالأشياء المألوفة لديهم مهما تبلغ درجةُ بردهم أو موتهم، مهما يكن قد حدث أو سيحدث. كانت أصابعهم منغرسة في التراب وكانوا يصرخون جميعاً ليحولوا دون انفجار طبلات آذانهم وأفواههم مفتوحة. وكان مونتاغ يصرخ معهم احتجاجاً على الريح التي كانت تجلد وجوههم وتلسع شفاههم وتدمي أنوفهم.

راقب مونتاغ غيمة الغبار العظيمة وهي تستقر والصمت العظيم وهو يهبط على عالمهم. وفيما هو ممدّد هناك بدا له أنه يرى كل ذرة غبار بمفردها وكل ورقة عشب وأنه يسمع كل صيحة وصرخة وهمسة تصعد في العالم الآن. نزل الصمت على الغبار المذرور وعلى كل الفسحة التي قد يحتاجون إليها للنظر حولهم، لاستجماع حقيقة هذا اليوم في حواسهم.

نظر مونتاغ إلى النهر. سنذهب على صفحة النهر. نظر إلى السكة الحديدية القديمة. أو سنذهب على هذه السكة. أو سنمشي على الطرق السريعة الآن وسيتاح لنا الوقت لنضع الأمور داخل أنفسنا، وفي يوم ما، بعد أن تكون قد استقرت لفترة طويلة، ستخرج من أيدينا وأفواهنا. وسيكون الكثير مما يخرج خاطئاً لكن ما يكاد يكفي منه سيكون صحيحاً. سنبدأ في السير اليوم لا أكثر وسنرى العالم وكيف يتجول العالم ويتكلم؛ سنرى كيف يبدو العالم في حقيقته. أريد أن أرى كل شيء الآن. وفي حين لن يكون أيٌّ منه جزءاً مني عندما يدخل فإنه سيتراكم كله في داخلي بعد فترة وسيكون أنا. انظرْ إلى العالم هناك في الخارج، آه يا ربي، آه يا ربي، انظرْ إليه هناك في الخارج، خارج جسمي، هناك في الخارج أبعد من وجهي، والطريقة الوحيدة للمسه حقاً هي وضعه حيث يصبح أنا في آخر الأمر، حيث يكون في الدم، حيث يضخّ في دورته ألف مرة، عشرة آلاف مرة في اليوم. سوف أضع يدي عليه كي لا يهرب أبداً بعد ذلك. سوف أتمسك بالعالم يوماً ما. أضع إصبعاً عليه الآن، وهذه هي البداية.

خمدت الريح.

ظلّ الرجال الآخرون ممددين فترة من الوقت لجهة الفجر من نومهم و لم يكونوا مستعدين بعد للنهوض ومباشرة واجبات اليوم، نيرانه وأغذيته والتفاصيل الألف لوضع قدم بعد قدم ويد بعد يد. ظلوا ممددين وأجفانهم المغبرّة تطرف. كان في وسعك سماعهم يتنفسون بسرعة، ثم أبطأ، ثم أبطأ.

استوى مونتاغ في جلسته.

غير أنه لم يقم بأي حركة أكثر من ذلك. حذا الرجال الآخرون حذوه، كانت الشمس تلامس الأفق الداكن برأس إصبعها حمراء فاتحة. وكان الهواء بارداً تفوح منه رائحة مطرٍ آتٍ.

نهض غرينجر بصمت وتحسس ذراعيه وساقيه وهو يشتم، يشتم مهمهماً بلا توقف والدموع تنهمر من عينيه. جرجر قدميه إلى النهر لينظر نحو أعلى مجراه.

قال بعد فترة طويلة: "إنها على الأرض، المدينة تبدو ككومة من بودرة الخبّيز. لقد زالت من الوجود".

أضاف بعد فترة طويلة أخرى: "ترى كم من الناس عرفوا أن الضربة آتية؟ أتساءل كم منهم فوجئوا؟".

فكّر مونتاغ: وعلى امتداد العالم كم مدينة أخرى ماتت؟ وهنا في بلدنا، كم عددها؟ مائة، ألف؟

أشعل أحدهم عود ثقاب وألهب به ورقة جافة أخرجها من جيبه ثم دسّها تحت كومة صغيرة من العشب وورق الشجر، أضاف إليها

بعد قليل أغصاناً رفيعة كانت مبتلة فطقطقت أولاً ثم اشتعلت في آخر الأمر. كبرت النار في الصباح الباكر مع شروق الشمس. انتهى الرجال ببطء من النظر إلى أعلى مجرى النهر وانجذبوا إلى النار مرتبكين دون أن يكون لديهم ما يقولونه، وعندما انحنوا لوّنت الشمس أقفية أعناقهم.

فرد غرينجر ورقة تغليف مشمّعة تحتوي على بعض اللحم المقدد. قال: "سنأكل لقمة. بعد ذلك سنستدير ونسير في اتجاه أعلى النهر. إنهم سيحتاجون إلينا في ذلك المكان".

أخرج أحدهم مقلاة صغيرة، ونقل اللحم المقدّد إليها ثم وضعت فوق النار. ما هي إلا لحظة حتى بدأ اللحم يتلوى ويقفز في المقلاة وملأ رذاذه هواء الصباح بشذاه. راقب الرجال هذا الطقس صامتين.

حدّق غرينجر في النار وقال: "فينكس - طائر الفينيق".

- "ماذا؟".

- "كان هناك في ما مضى قبل المسيح طائر سخيف يدعى الفينيق. كان يوقد ناراً عظيمة كل مئات قليلة من السنين ويحرق نفسه فيها. لا بدّ وأنه كان نسيباً من الدرجة الأولى للإنسان. لكنه كلما أحرق نفسه كان يقفز ناهضاً من الرماد ليولد من جديد. ويبدو أننا نفعل الأمر ذاته مراراً وتكراراً، لكن لدينا شيئاً لعيناً لم يمتلكه الفينيق قط. إننا نعرف الفعلة اللعينة السخيفة التي فعلناها للتو. نعرف جميع الأشياء اللعينة السخيفة التي فعلناها طيلة ألف سنة، وما دمنا نعلم ذلك ويظل الأمر ماثلاً حولنا حيث نستطيع أن نراه، سنتوقف يوماً عن إيقاد نيران الجنازات وعن القفز في وسطها، سنضمّ إلينا أشخاصاً قليلين إضافيين

يتذكرون، من كل جيل".

نحّى المقلاة عن النار وترك اللحم المقدد يبرد قليلاً ثم أكلوه ببطء وتأمل.

قال غرينجر: "لنذهب الآن في اتجاه أعلى النهر. وتذكّروا فكرة وحيدة هي أنكم لستم مهمين. أنتم لا شيء، وفي يوم من الأيام يحتمل أن يساعد الحمل الذي نحمله شخصاً ما. لكن حتى عندما كانت الكتب بين أيدينا قبل زمنٍ طويل لم نستخدم ما استخلصناه منها. تابعنا بإصرار إهانة الأموات. وواصلنا البصق في قبور جميع المساكين الذين ماتوا قبلنا. سنلتقي أناساً وحيدين كثيرين في الأسبوع القادم والشهر القادم والعام القادم. وعندما يسألوننا ماذا نفعل في هذا المكان تستطيعون أن تقولون إننا نتذكر. هذه هي النقطة التي سننتصر عندها على المدى الطويل، وفي يوم ما سنتذكر الكثير الكثير إلى درجة أننا سنصنع أكبر جرّافة بخارية لعينة عرفها التاريخ وسنحفر أكبر قبر على امتداد الزمن وسنواري فيه الحرب ونطمرها. تعالوا الآن، سنذهب أولاً لبناء مصنع مرايا ولن ننتج شيئاً إلا المرايا من أجل السنة القادمة لكي ننظر فيها ملياً".

انتهوا من تناول الطعام وأطفأوا النار. كان النهار يزداد إشراقاً في كل مكان حولهم كما لو ازداد طولُ فتيل سراج وردي. وعادت الطيور إلى الأشجار واستقرت فيها بعد أن سبق لها الفرار سريعاً من قبل.

بدأ مونتاغ يمشي واكتشف بعد لحظة أن الآخرين تخلفوا وراءه في سيرهم نحو الشمال. دهش وتنحّى جانباً ليسمح لغرينجر بالمرور، لكنّ غرينجر نظر إليه وأومأ إليه برأسه أن يتابع طريقه. سار مونتاغ في

المقدمة. نظر إلى النهر والسماء والسكة الحديدية الصدئة الراجعة إلى حيث توجّه المزارع، إلى حيث تمتلئ الزرائب بالقش، إلى حيث كان أناس كثيرون يمرّون في الليل في طريق خروجهم من المدينة. وسيسير هو هناك أيضاً في وقتٍ لاحق، بعد شهر، أو بعد ستة أشهر، وبالتأكيد قبل انقضاء سنة واحدة، سيسير هناك وحيداً من جديد وسيثابر بلا كلل إلى أن يلحق بالناس الآخرين.

لكن كانت في انتظاره الآن مسيرة صباحية طويلة حتى الظهيرة، وإذا كان الرجال صامتين فلأن عليهم أن يفكروا في كل شيء وأن يتذكروا الكثير، وعندما ترتفع الشمس في وقت لاحق من الصباح وتدفئهم ربما يبدأون في التحدث أو قول الأشياء التي يتذكرونها فقط للتأكد من وجودهم هناك، ليكونوا واثقين تماماً أن الأمور آمنة بالنسبة إليهم. أحسّ مونتاغ بالحراك المتمهل للكلمات، أحس بجيشانها البطيء، وعندما يأتي دوره ماذا يستطيع أن يقول، ماذا يستطيع أن يقدّم في يوم كهذا لجعل الرحلة أسهل قليلاً؟ هناك موسم لكل شيء. نعم، هناك وقت للتدمير، وهناك وقت للتشييد. نعم، هناك وقت لالتزام الصمت ووقت للكلام. نعم، هناك كل ذلك، لكن ماذا أيضاً، ماذا أيضاً؟ شيء ما، شيء ما...

وكانت على كلٍّ من ضفتي النهر شجرة حياة تحمل اثني عشر نوعاً من الثمار وتنضج ثمارها كل شهر. وكانت أوراق الشجرة مخصصة لشفاء الأمم.

فكّر مونتاغ: نعم، هذه هي التي سأوفرها للظهيرة، للظهيرة...
عندما نصل إلى المدينة.

ميدالية العطاء المتميّز للأدب الأميركي ٢٠٠٠

«أبرع سرد جهنّمي»

Kingsley Amis

غاي مونتاغ إطفائي وظيفته حرق الكتب الممنوعة أصلاً، كون الحكّام يعتبرونها مصدر كل شرّ وفاجعة. مع هذا فإن مونتاغ تعيس. يتأثّر بجارته كلاريس فيبدأ بسرقة الكتب المفترض به حرقها. عندما تكتشف جريمته يؤمر بحرق منزله. بعد ذلك يلجأ مونتاغ إلى الريف حيث يلتقي مجموعة من الهاربين، كل واحد منهم قد حفظ عن ظهر قلب عدداً من الكتب إلى حين يصبح المجتمع جاهزاً لإعادة اكتشافها.

أثارت هذه الرواية عند صدورها جدلاً واسعاً، من الإطراء إلى الذم. أما اليوم فثمّة إجماع عالمي على أنها من الإبداعات الأدبية الرائعة في القرن العشرين.



